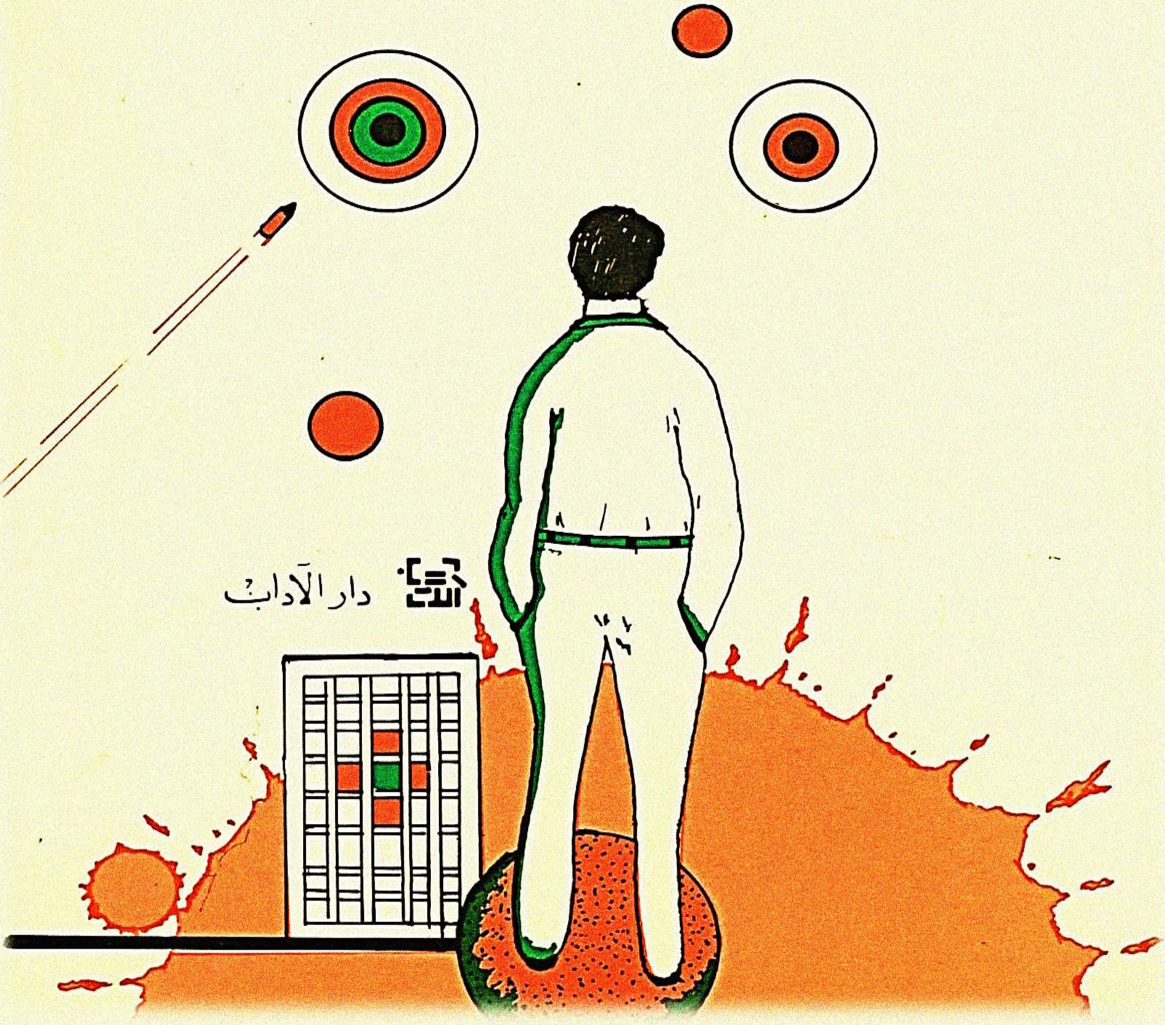
البير كامو

ترجمة : عايدة مطرجي ادريس

الغريب

وقصص أخرى



دار الآداب

الغريب

وقصص أخرى

البير كامو
الحائز على جائزة نوبل للآداب ١٩٥٧

الغريب
وقصص أخرى

ترجمة
عايدة مطرجي إدريس

- ٢ -

سلسلة القصص العالمية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الرابعة
كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠

الغريب

القسم الأول

اليوم ، ماتت أمي . أو ربما ماتت أمس ، لست أدري . لقد تلقيت برقية من المأوى تقول : « الوالدة توفيت . الدفن غداً . احترامتنا . » ان ذلك لا يعني شيئاً . ربما كان ذلك أمس .

ان مأوى العجز في مارنغو ، على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً من مدينة الجزائر . سأستقل الأوتوبيس في الساعة الثانية فأصل بعد الظهر . وهكذا أستطيع أن أسهر ، وسأعود غداً مساء . ولقد طلبت يومي عطلة من معلمي ولم يكن يستطيع أن يرفض ذلك ، وحجتي هي هذه . ولكن لم يكن يبدو عليه انه مسرور ، حتى اني قد قلت له : « ليس هذا من جراء غلطتي » . فلم يجب . وفكرت آنذاك انه ما كان ينبغي لي أن أقول له ذلك . وبالاجمال ، لم يكن علي أن أعتذر . بل كان الأجدر به أن يقدم لي تعازيه . ولكنه سيفعل ذلك ، بلا شك ، بعد غد ، عندما يراني في الحداد . أما فيما يتعلق بهذه اللحظة ، فالأمر هو تقريباً كما لو أن أمي لم تكن قد ماتت .. وأما بعد الدفن ، فسيكون الأمر على العكس قد طُوي ، وسوف يتلبس كل شيء مظهراً رسمياً أكثر من قبل .

واستقللت الأوتوبيس في الساعة الثانية . كان الطقس حاراً جداً . وأكلت في المطعم ، عند سيلست ، كالعادة . لقد كانوا جميعاً متألمين جداً من أجلي .

ولقد قال لي سيلست « ليس للمرء الا أم واحدة » . وعندما ذهبت ، رافقوني نحو الباب كنت شارداً بعض الشيء ، لأنه كان علي أن أصعد عند ايمانويل لأستعير منه ربطة عنق سوداء وساعدة . لقد فقد عمه ، منذ عدة شهور .

وركضت كي لا أفوّت وقت الذهاب. وهذه العجلة ، والركض ، والضجيج ورائحة البزين ، وانعكاسات الطريق والسماء ، كل ذلك هو الذي سبّب بلا شك ، أني أغفيت . ولقد نمت طوال الطريق تقريباً . وعندما استيقظت كنت مكوّماً على عسكري ابتسم لي وسألني هل أنا قادم من بعيد ، فقلت : « نعم » حتى لا يكون عليّ أن أتكلم بعد .

ويبعد المأوى كيلومترين عن القرية ، وقد قطعت الطريق مشياً . وأردت أن أرى أمي على التوّ ، ولكن الحاجب قال لي انه يجب ان ألتقي بالمدير ، ولما كان المدير مشغولاً ، فقد انتظرت قليلاً : وفي هذه الأثناء كلها ، تكلم الحاجب. ثم رأيت المدير بعد ذلك : وقد استقبلني في مكتبه . انه رجل قصير مسن ، ويحمل وسام الشرف. وقد نظر إليّ بعينيه الصافيتين . ثم شدّ على يدي التي تركها طويلاً في يده حتى انني لم أكن أعرف كيف أستطيع أن أسحبها . وراجع ملفاً وقال لي : « ان السيدة مارسو دخلت هنا منذ ثلاث سنوات . وكنت أنت سندها الوحيد » . واعتقدت انه يعيب علي شيئاً فأخذت أشرح له . ولكنه قاطعني : « ليس عليك أن تبرر نفسك، يا ولدي العزيز . لقد قرأت ملف والدتك. وانك لم تكن تستطيع أن تسعفها في حاجاتها . وقد كانت بحاجة الى ممرضة ، ورواتبك متواضعة ، وبعد كل حساب ، كانت هنا أكثر سعادة ». وقلت : « أجل ، يا سيدي المدير » . وأضاف : « أنت تعلم، كان لها أصدقاء ، أشخاص من عمرها . وكانت تستطيع أن تقاسمهم شؤوناً من عهد ماض . وأنت شاب ، ولا بدّ انها كانت تعاني الضجر معك » .

وكان ذلك صحيحاً . فعندما كانت أمي في البيت ، كانت تمضي وقتها وهي تتابعني بعينيها صامتة . وفي الأيام الأولى التي نزلت فيها المأوى ، كانت تبكي غالباً . ولكن كان ذلك بسبب العادة . فبعد عدة أشهر ، كانت ستبكي

لو أنهم سحبوها من المأوى . بسبب العادة أيضاً ، ومن أجل ذلك لم أزرها في السنة الماضية أبداً تقريباً ، ثم لأن ذلك كان يأخذ مني يوم الأحد ، هذا اذا لم نحسب الجهد للذهاب في الأوتوبيس وقطع التذاكر والسفر مدة ساعتين .

وحدّثني المدير أيضاً . ولكنني لم أكن أصغي له تقريباً ، ثم قال لي : « أفترض انك تريد أن ترى أمك » . فنهضت من غير أن أقول شيئاً وتقدم نحو الباب . وعلى السلم ، شرح لي : « لقد نقلناها الى معرض الجثث الصغير ، لكي لا نؤثر على الآخرين ، فكلما مات مريض ، ظل الآخرون ثائري الأعصاب مدة يومين أو ثلاثة ، وهذا ما يجعل الخدمة شاقة » واجتزنا ساحة كان فيها كثير من الشيوخ ، وهم يثرثرون جماعات صغيرة ، وكانوا صامتين عندما مررنا ، وما لبثت الأحاديث ان استؤنفت خلفنا ، انها ثرثرة ببغاوات تُصمّ . وعند باب مبنى صغير ، تركني المدير وقال لي : « انني أتركك ، يا سيد مارسو ، انني تحت تصرفك في مكتبي ، أما الدفن فقد قُرر مبدئياً عند الساعة العاشرة صباحاً . ولقد فكرنا انك بذلك تستطيع أن تسهر على الفقيدة ، وكلمة أخيرة : يبدو ان امك قد عبرت غالباً لرفيقاتها عن رغبتها في أن تُدفن على الطريقة الدينية . وأخذت على عاتقي أن أقوم بكل بما هو ضروري . ولكنني أردت أن أبلغك ذلك » وشكرته ، ولم تكن أمي قد فكرت ، في حياتها قط بالدين ، بالرغم من انها لم تكن ملحدة .

ودخلت . كانت غرفة مشرقة جداً ، مطلية بالكلس ومسقوفة بالزجاج . وكانت مؤثثة بالكراسي وبمساند بشكل × وكان اثنان منهما ، في الوسط ، يسندان نعشاً مغطى بغطائه وكانت ترى فقط براغي لمّاعة ، تكاد لا تكون مغروزة ، وهي بارزة على ألواح من قشر الجوز ، وبالقرب من النعش ، كانت ثمة ممرضة عربية تقف وهي ترتدي قميصاً أبيض ، وتربط رأسها بمنديل صارخ اللون .

وفي تلك اللحظة ، دخل الحاجب من خلف ظهري . لابد انه قد ركض ، وقد دمدم قليلاً : « لقد غطوها . ولكن علي أن أفك النعش حتى تستطيع أن

تراها » وكان يقترب من النعش عندما أوقفته فقال لي : « ألا تريد؟ » وأجبت « لا » . وتوقف ، وكنت متضايقاً لأنني كنت أحس انه لم يكن علي أن أقول ذلك ؛ وبعد فترة ، نظر الي وسألني : « لماذا ؟ » ولكن من غير عتاب كما لو انه كان يستعلم : قلت : « لا أدري » . عندها ، فرك شاربه الأبيض ، وقال من غير أن ينظر الي : « انني أفهم » . كانت له عينان جميلتان ، زرقاوان ، وبشرة حمراء بعض الشيء . وأعطاني كرسياً وجلس هو نفسه قليلاً خلفي. ونهضت الممرضة وتوجهت نحو المخرج . عندها ، قال لي الحاجب: « انها تشكو القرحة » وبما انني لم أفهم ، نظرت الى الممرضة ورأيت انها تربط تحت عينيها رباطاً يحيط رأسها . وعلى مستوى الانف ، كانت الربطة مسطحة . ولم يكن يُرى في وجهها سوى بياض الربطة .

وعندما ذهبت ، قال الحاجب : « سأتركك وحدك . » ولا أدري أية حركة قمت بها ، ولكنه ظل واقفاً خلفي . وكان هذا الحضور في ظهري يزعجني . كانت الغرفة مليئة بآخر شعاعات المساء الجميلة، وكان زنبوران يطنّان عند الزجاج . وكنت أحس أن النعاس يتملكني . وقلت للحاجب ، من غير أن التفت اليه : « هل مضى عليك وقت طويل وأنت هنا؟ » ورد عليّ في الحال كما لو أنه كان ينتظر سؤالي منذ زمن طويل : « خمس سنوات »

ثم ثرثر كثيراً : وكان سيندهش كثيراً لو قلت انه سوف ينتهي حاجباً في مأوى مارنغو . لقد كان يبلغ الرابعة والستين من عمره وكان باريسياً ؛ في هذه اللحظة قاطعته سائلاً : « آه ، ألست من هنا ؟ » ثم تذكرت انه ، قبل ان يقودني الى المدير ، كان قد حدّثني عن أمي . وقد قال لي انه يجب ان ندفنها بأقصى سرعة ، لأن الحر كان شديداً في السهل ، وخاصة في هذا البلد . وعندها أبلغني انه قد عاش في باريس وانه كان يجد صعوبة في نسيانها . ففي باريس يبقى الناس مع الميت ثلاثة أيام أو أربعة أحياناً ؛ أما هنا ، فليس لديهم الوقت ، فهم لم يخلقوا لفكرة انه يجب ان يركضوا خلف مركبة الموتى . وعندها قالت له زوجته : « اسكت ، انها ليست

أشياء جديرة بأن تُحكى للسيد » . وكان الرجل المسن قد احمرّ واعتذر . وتدخلت لأقول : « ولكن لا ، ولكن لا . » كنت أجد أن ما كان يقوله صحيح ومفيد .

وفي مكان عرض الجثث ، ابلغني انه كان قد دخل المأوى كمعوز . وبما انه كان يحس نفسه مستوفياً الشروط ، فقد عرض نفسه لهذا المنصب كحاجب . ولقد لاحظت له انه في نهاية الأمر كان هو أيضاً نزيلاً . فقال لي ان لا . وكنت قد دهشت للطريقة التي كان يقول فيها « هم الآخرون » ونادراً جداً : « العجز » وهو يتحدث عن النزلاء الذين لم يكن بعضهم أكبر منه سناً . ولكن بالطبع ، لم يكن الأمر واحداً . كان هو حاجباً ، وكان له عليهم حقوق ، على نحو ما .

ودخلت الممرضة في تلك الأثناء . وكان الليل قد هبط فجأة وبسرعة ، كان الليل يتكاثف فوق الزجاج وفتح البواب زر الكهرباء فبُهرت بدفقات النور المفاجئة ، ودعاني الى غرفة الطعام للعشاء . ولكنني لم أكن جائعاً . وعرض علي عندئذ أن يحضر لي فنجاناً من القهوة بالحليب . وبما انني كنت أحب القهوة بالحليب كثيراً ، فقد قبلت . وعاد بعد فترة مع طبق . وشربت . وعندها أخذتني رغبة للتدخين ولكنني ترددت ، لأنني لم أكن أعلم اذا كنت استطيع أن أفعل ذلك أمام أمي . وفكرت ، لم يكن لهذا الأمر أية أهمية ، وقدمت سيجارة للبواب ودخنا .

وذات لحظة ، قال لي : « أنت تعلم ان اصدقاء السيدة أمك سيأتون ليسهروا عليها أيضاً . انها العادة . وينبغي لي أن أذهب لأحضر الكراسي والقهوة السوداء » وسألته اذا كان بالامكان اطفاء أحد القناديل . كان انعكاس النور على الجدران البيض يرهقني ، وقال لي ان ذلك لم يكن ممكناً . فان تركيب الكهرباء كان مصنوعاً هكذا ، فاما كل شيء أو لا شيء . ولم أعره كثيراً من الانتباه بعد ذلك .. وخرج ، وعاد ، وصفّ الكراسي . وعلى أحد الكراسي تراكمت فناجين حول ابريق القهوة . ثم جلس يواجهني ، من الجهة الأخرى

من أمي . وكانت المرضة أيضاً في الداخل ، مديرة ظهرها ، ولم اكن ارى ما كانت تفعله . ولكن من حركات ذراعيها كنت أستطيع أن أتصور انها كانت تشتغل بالصوف . كان الطقس لذيذاً .. وكانت القهوة قد أدفأتني وكانت رائحة الليل والأزهار تتسلل من الباب المفتوح . وأعتقد أنني قد غفوت قليلاً .

وأيقظني بعد ذلك حفيف : وبدت لي الغرفة أشد بياضاً لكوني قد أغلقت عيني . وأمامي ، لم يكن يوجد أي ظل ، وكان كل شيء ، كل زاوية ، كل انحناء ، يرتسم بصفاء جارح للنظر . وفي هذه الأثناء بالذات دخل أصدقاء أمي . كانوا في مجموعهم عشرة ، وكانوا ينسلون بصمت في هذا النور الذي يُعمى . وقد جلسوا من غير أن تصرّ كرسي واحدة ، وكنت أراهم كما لم أر شخصاً من قبل ، ولم يكن يفوتني أي تفصيل من وجوههم أو ملابسهم . ومع ذلك فلم أكن أسمعهم ، وكنت قد وجدت مشقة في تصديق واقعهم . فقد كانت جميع النساء تقريباً يرتدين المرايل وكان الحزام الذي يشدهم يبرز بطونهن المنتفخة . ولم أكن حتى الآن قد لاحظت إلى أي حد يمكن للنساء الهرمات ان يكون لهن بطون . وكان الرجال جميعهم تقريباً نحيلين ويحملون العكازات . والشيء الذي كان أدهشني في وجوههم ، هو انني لم اكن أرى عيونهم ، ولكن فقط بريقاً من دون ألق وسط عش من التجاعيد . وعندما جلسوا ، نظر الي أغلبهم وهزوا رؤوسهم بارتباك ، كانت شفاههم كلها قد أكلتها أفواههم الخالية من الأسنان ، من غير ان أستطيع أن أعرف اذا كانوا يسلمون علي أو أن الأمر لا يتعدى مجرد ارتعاش ، وأعتقد بالغالب انهم كانوا يسلمون علي. وفي هذه اللحظة فقط لاحظت انهم كانوا يجلسون جميعاً بمواجهتي يهدهدون رؤوسهم حول الحاجب . وراودني للحظة شعور مضحك انهم كانوا هنا ليحاكموني .

وبعد فترة قصيرة ، أخذت احدى النساء تبكي . كانت في الصف الثاني ، تخبئها احدى صديقاتها . ولم أكن أراها جيداً . كانت تبكي بصرخات قصيرة ،

منتظمة ، وكان يبدو لي انها لن تتوقف أبداً ،وكان يبدو على الآخرين انهم لم يكونوا يسمعونها . كانوا مسترخين ، حزينين وصامتين . كانوا ينظرون الى النعش أو الى عكازاتهم أو الى أي شيء آخر . ولكنهم لم يكونوا ينظرون غير ذلك . وكانت المرأة ما تزال تبكي ، وكنت شديد الدهشة لأنني لم أكن أعرفها . ووددت لو انني لا أسمعها بعد . ومع ذلك لم اكن اجرؤ على مصارحتها بذلك . وانحنى الحاجب نحوها ، وحدثها ، ولكنها هزت رأسها ، وتمتمت بعض كلمات ، وواصلت بكاءها بالانتظام نفسه . عندها تقدم الحاجب من جهتي ، وجلس بالقرب مني ، وبعد فترة طويلة بعض الشيء ، أبلغني من دون أن ينظر الي : « كانت متعلقة جداً بالسيدة والدتك . انها تقول انها كانت صديقتها الوحيدة هنا وانه لم يبق لها أحد الآن . »

وبقينا فترة طويلة هكذا . وكانت تأوهات المرأة وشهقاتها تخف ، وكانت تنخر كثيراً . ثم سكتت . لم أكن أشعر بالنعاس بعد ؛ كنت متعباً وكانت كليتاي تؤلماني . وكان صمت هؤلاء الناس جميعاً يرهقني في تلك الأثناء . ومن وقت لآخر ، كنت أسمع فقط صوتاً منتظماً ولم أكن أستطيع أن أفهم ما كان في الواقع . وبعد فترة طويلة ، توصلت الى ان احزر ان بعض العجز كانوا يمصون باطن خدودهم ويصعدون هذه الطقطقة الغريبة . ولم يكونوا يتنبهون لذلك لشدة ما كانوا غارقين في أفكارهم . وقد كان عندي حتى هذا الشعور بأن هذه الميتة ، المسجاة وسطهم ، لم تكن تعني شيئاً في نظرهم . ولكني أعتقد الآن ان هذا الشعور لم يكن سوى انطباع خاطيء .

وأخذنا جميعنا القهوة التي حضرها الحاجب . ثم ، لم أعد أعرف شيئاً . لقد مضى الليل . واذكر انني فتحت عيني ذات لحظة ورأيت العُجزّ ينامون مكوّمين بعضهم على بعض ، باستثناء واحد ، كان يسند ذقنه على صفحة يديه المتشبثتين بالعكاز وينظر الي محدقاً كما لو أنه لم يكن ينتظر شيئاً سوى يقظتي . ثم نمت أيضاً : واستيقظت لأنني كنت قد أحسست بألم يزداد شيئاً فشيئاً في كليتي ، وكان النهار يتسلل على الصحون الزجاجية ، وبعد قليل استيقظ

أحد العجزة وسعل كثيراً . كان يبصق في منديل كبير ذي مربعات . وكانت كل بصقة أشبه بالنزع . وأيقظ الآخرين فقال الحاجب ان عليهم لن يذهبوا فو قفوا . كانت هذه السهرة المتعبة قد جعلت لهم وجوهاً من الرماد . وعندما خرجوا ، شدوا جميعاً على يدي ، وسط دهشتي الكبرى ، كما لو أن هذا الليل الذي لم نكن قد تبادلنا فيه أية كلمة ، قد عمّق صداقتنا .

كنت متعباً . وقادني الحاجب الى بيته واستطعت أن أصلح شيئاً من هندامي . وقد أخذت أيضاً قهوة بالحليب . كانت لذيذة جداً ، وعندما خرجت ، كان النهار قد بزغ تماماً . وفوق الروابي التي تفصل مارنغو عن البحر ، كانت السماء مليئة بالبقع الحمراء . وكانت الريح تمر فوقها ، تحمل هنا رائحة ملح . كان نهاراً جميلاً يتهيأ . كان ذلك منذ زمن طويل عندما ذهبت الى القرية وأحسست أية لذة سأشعر بها في التنزّه لو لم تكن هنالك أمي .

ولكنني انتظرت في الساحة ، تحت شجرة دلب . كنت أتنشق رائحة الأرض النضرة ، ولم أكن أشعر بعد بالنعاس . وفكرت بزملاء المكتب. كانوا في هذه الساعة ، يستيقظون ليذهبوا الى العمل : وكانت بالنسبة لي دائماً أشد الساعات مشقة . وفكرت أيضاً بعض الشيء ، ولكنني كنت أتلهى بجرس كان يرن داخل الأبنية . ولقد كانت هناك بلبلة خلف النوافذ ، ثم هدأ كل شيء ، وكانت الشمس قد ارتفعت اكثر من قبل في السماء ، وبدأت تدفيء قدمي . واجتاز الحاجب الساحة وقال لي ان المدير كان يطلبني . وذهبت إلى مكتبه . فجعلني أوقّع عدداً من الأوراق ، ولاحظت انه كان يرتدي السواد مع بنطال مخطط ، وأخذ التلفون بيده واستجوبني : ان عمال مواكب الدفن قد حضروا هنا منذ برهة وسأدعوهم لكي يحضروا فيغلقوا النعش ، هل تريد ان ترى أمك مرة أخيرة ؟ وقلت لا . وأمر بالتلفون وهو يخفض صوتـــه : « فيجاك ، قل للرجال أن بوسعهم أن يذهبوا » .

ثم قال لي انه سيحضر الدفن فشكرته . وجلس وراء مكتبه ، وشبّك ساقيه القصيرتين وأعلمني انني أنا وهو سنكون وحيدين مع ممرضة المأوى :

فالنزلاء يجب أن لا يحضروا الدفن مبدئياً ، انهم يتركونهم فقط يسهرون . « ولاحظ انها مسألة انسانية » ولكنه بصورة خاصة سمح ، لأحد أصدقاء أمي القدماء ، ويدعى توماس بيريز ، بأن يرافق الموكب . وهنا ، ابتسم المدير . وقال لي : « أنت تفهم ، انه شعور صبياني . ولكنه هو وأمك لم يكونا يفترقان أبداً . وفي المأوى ، كانوا يمزحون بشأنهما . كانوا يقولون : « بيريز ... انها خطيبتك » وكان هو يضحك . وكان ذلك يسرهم . والواقع أن موت السيدة مارسو قد أحزنه جداً ، ولم أكن أتصور انني أملك الحق في أن أرفض أمر السماح له . ولكنني منعته ، تلبية لنصيحة الطبيب الذي يزور المأوى ، من أن يسهر البارحة » .

وبقينا صامتين وقتاً لا بأس به . ونهض المدير ونظر من نافذة مكتبه ، وذات لحظة ، لاحظ قائلاً : « ها هو كاهن مارنغو . انه في المقدمة » . وأبلغني انه ينبغي أن نمشي ثلاثة أرباع الساعة فنذهب الى الكنيسة الواسعة في القريـــة ونزلنا — وأمام المبنى ، كان الكاهن مع صبيين من الجوقة — كان أحدهما يحمل مبخرة وكان الكاهن ينحني نحوه لكي يعدل طول السلسلة الفضية . وعندما وصلنا ، قام الكاهن ووقف من جديد . وناداني « يا بنيّ » ، وقال لي بضع كلمات . ودخل ، فتبعته .

ورأيت دفعة واحدة ان براغي النعش كانت قد دُقت ، وانه كان في القاعة أربعة رجال سود . وسمعت في الوقت نفسه المدير يقول لي ان العربة تنتظرني في الشارع ، وان الكاهن سيبدأ صلواته. ومن ذلك الوقت ، تم كل شيء بسرعة فائقة : تقدم الرجال من النعش وهم يحملون غطاء . وخرجنا ، الكاهن وأتباعه ، والمدير وأنا . وأمام الباب ، كانت هناك امرأة لم أكن أعرفها . وقال المدير : « السيد مارسو » . ولم أسمع اسم هذه السيدة وفهمت فقط انها كانت ممرضة منتدبة. وأحنت وجهها المعظم والطويل من غير أن تبتسم. ثم اصطففنا لنفسح للجثمان الطريق . وتبعنا الحمالين وخرجنا من المأوى . وأمام الباب ، كانت هناك العربة . وكانت مدهونة ، مستطيلة ولماعة ، وكانت تذكّر بالمقلمة . وبالقرب

منها ، كان يقف المنظّم ، وهو رجل قصير يرتدي لباساً مضحكاً ، وهو مسن ذو مشية متصنعة . وعرفت انه كان السيد بيريز . كان يرتدي لبّادة رخوة ذات طاقية مستديرة وأجنحة عريضة ، وقد رفعها حين اجتاز النعش الباب وثوباً كان بنطاله يشدّ على الحذاء وعقدة قماش سوداء صغيرة أكثر مما ينبغي بالنسبة لقميصه ذي القبة البيضاء الكبيرة . وكانت شفتاه ترتجفان تحت أنف مزروع بالنقط السوداء . وكان شعره الأبيض الأملس بعض الشيء يظهر أذنين مرتجفتين غير مستديرتين كان لونهما الأحمر القاني في هذا الوجه الشاحب يثيرني . وأعطانا المنظم أمكنتنا . كان الكاهن يتقدم الموكب ، ثم تليه العربة . وحولها ، كان الرجال الأربعة . وخلفها ، المدير وأنا نفسي ، وكانت الممرضة المنتدبة ، والسيد بيريز يختمان الموكب .

كانت السماء قد امتلأت شمساً وقد بدأت تثقل على الأرض والحرارة ترتفع بسرعة . ولم أدر لماذا انتظرنا طويلاً بعض الشيء قبل أن نبدأ بالمسير . كنت قد بدأت أشعر بالحر تحت ثيابي الداكنة اللون . أما الشيخ القصير الذي كان مغطى الرأس ، فقد انتزع من جد قبعته . والتفت قليلاً بجهته ، ونظرت اليه عندما حدّثني المدير عنه ، قال لي ان أمي غالباً ما كانت تخرج مع السيد بيريز ليتنزها مساء حتى القرية ، ترافقهما ممرضة . ونظرت الى الريف حولي ، من خلال صف السرو الذي كان يقود الى الروابي قريباً من السماء ، ومن هذه الأرض البرصاء والخضراء ، وهذه البيوت النادرة ، والواضحة ، كنت أفهم أمي . فالمساء ، في هذا البلد ، لا بد انه كان أشبه بهدنة كئيبة . واليوم هـا هي الشمس الطاغية ، التي تحيل المنظر لاانسانياً ومنحطاً .

وبدأنا المسير . وفي هذه الأثناء فقط لاحظت أن بيريز كان يعرج قليلاً . وأخذت العربة شيئاً فشيئاً تسرع وأخذ الشيخ يقصر . وكان أحد الرجال الذين يحيطون بالعربة قد سمح بأن يتجاوزه أيضاً وكان يمشي الآن بجانبي . وكنت دهشاً من السرعة التي كانت الشمس ترتفع فيها في السماء . ولاحظت أن القرية قد كانت منذ زمن طويل تطن بنشيد الحشرات وبزفير الأعشاب .

وكان العرق يسيل على خدي . وبما أنني لم اكن قد أحضرت قبعة ، فقد كنت أتروح بمنديلي . عندها قال لي عامل الموكب الجنائزي شيئاً لم أسمعه . وفي الوقت نفسه ، كان يمسح رأسه بمنديل كان يمسكه بيده اليسرى ، بينما كانت يده اليمنى ترفع طرف قبعته .. وسألته : « ماذا ؟ » وردد وهو يشير الى السماء : « انها تضرب » وقلت : « نعم » وبعد قليل سألني : « هل هي أملك التي هنا ؟ » ، وقلت أيضاً : « نعم » وسألني : « هل كانت عجوزاً ؟ » . وأجبت « تقريباً » ، لأنني لم أكن أعرف السن بدقة . ثم سكت . والتفت ورأيت بيريز العجوز متخلفاً وراءنا بخمسين متراً . كان يُسرع وهو يؤرجح طاقيته في طرف ذراعه . ونظرتُ أيضاً الى المدير . كان يمشي بكثير من الهيبة ، بلا حركة غير مجدية : وكانت بضع نقاط من العرق تلمع على جبهته ، ولكنه لم يكن يمسحها .

وكان يبدو لي أن الموكب كان ينقدم بسرعة أكثر من قبل .

وكانت تحيط بي دائماً القرية نفسها المضاءة المغمورة بالشمس وكان وهج السماء لا يحتمل . وذات لحظة ، مررنا على قسم من الطريق كان قد أعيد تمهيدها . وكانت الشمس قد فجرت القطران . وكانت الأقدام تنغرس فيها وتترك لبها اللمّاع مفتوحاً ، وفوق العربة ، كانت قبعة السائق ، من الجلد الذي يغلي ، تبدو كما لو انها كانت قد جبلت في هذا الوحل الأسود . وكنت ضائعاً بعض الشيء بين السماء الزرقاء والبيضاء ورتابة هذه الألوان ، الأسود اللزج من الزفت المكشوف ، واسود الملابس الكدر ، وأسود العربة المدهون . وكانت الشمس ، ورائحة الجلد والروث المنبعثة من العربة ، ورائحة الدهان والبخور ، وتعب ليلة من الأرق ، كانت جميعها تعكر نظري وتشوش أفكاري . والتفت مرة أخرى : وبدا لي بيريز بعيداً جداً ، ضائعاً وسط ضباب من الحر ، ثم لم أعد أراه . وفتشت عنه بناظري ورأيت ان الطريق كانت تدور أمامي . وفهمت ان بيريز الذي كان يعرف الطريق كان يقطع أقصر الدروب لكي يدركنا . وعند المنعطف كان قد التقى بنا . ثم اضعناه .

وكان يتخذ طريقه أيضاً خلال الحقول، وهكذا عدة مرات ، وكنت أحس بالدم يضرب صدغي .

ثم تم كل شيء بسرعة ويقين وطبعية الى درجة انني لم أعد أذكر شيئاً من هذا . سوى حادثة فقط : فعند مدخل القرية ، حدثتني الممرضة المنتدبة وكان صوت فريد لا ينسجم مع وجهها ، صوت منغم ومرتعش . قالت لي : «اذا نحن مشينا ببطء ، فاننا نخشى ضربة الشمس ، أما اذا أسرعنا اكثر مما ينبغي، فاننا سنعرق وسنكون عرضة في الكنيسة للحر والبرد . » ولقد كانت على حق . ولم يكن هناك من مخرج ولقد احتفظت أيضاً ببعض الصور من هذا اليوم : منها مثلاً وجه بيريز ، عندما التقانا لأول مرة أمام القرية . كانت دمعات كبيرة من التأثر والتعب تنحدر على خديه . ولكنها لم تكن تسيل ، بسبب التجاعيد . كانت تنتشر وتلتقي ، وتشكل طلاء من الماء على هذا الوجه المتهدم . وكان هناك أيضاً الكنيسة والقرويون على الأرصفة ، والغرنوقيات الحمراء على توابيت المقبرة ، واغماء بيريز (وكان كدمية متحركة قُطع خيطها) والأرض المصطنعة باون الدم التي كانت تتدحرج على نعش أمي ، واللحم الجذ الابيض الذي كان يمتزج بها ، والناس أيضاً ، والأصوات ، والقرية، والانتظار أمام قهوة ، وشخير المحرك الذي لا ينقطع وفرحتي عندما دخل الأوتوبيس عش ضوء مدينة الجزائر وتفكيري بأنني سوف أستلقي وأنام مدة اثنتي عشرة ساعة .

٢

حين استيقظت ، عرفت لماذا كان معلـّمي مستاء عندما طلبت منه يومي عطلة . فاليوم هو السبت . وكنت قد نسيت ذلك ، اذا صح التعبير . ولكن عندما نهضت ، انتني تلك الفكرة : لقد فكر معلمي ، بالطبع ، أنه سيكون لي أربعة أيام من العطلة مع يوم الأحد . وهذا لا يمكن أن يجلب له السرور . ولكن ، من جهة ، لم تكن هي غلطتي إذا كانوا قد دفنوا امي البارحة بدل اليوم . ومن جهة اخرى ، سيكون لي السبت والاحد على كل حال . على أن ذلك لا يمنعني طبعاً من أن افهم معلـّمي .

وأحسست بالتعب وأنا أنهض لأنني كنت تعباً من يوم البارحة . وبينما كنت أحلق ذقني ، تساءلت ماذا ينبغي لي أن أفعل ، وقررت أن أذهب للسباحة . وقد أخذت الترام لأذهب الى موسسة حمامات المرفأ . وهناك غطست في المضيق . ولقد كان ثمة كثير من الشباب . ولقيت في الماء ماري كاردونا ، وهي فتاة كانت تضرب على الآلة الكاتبة قديماً في مكتبي ، وكنت قد رغبت بها في ذلك الوقت .أظن أنها هي ايضاً كانت ترغب بي . ولكنها رحلت بعد فترة قصيرة ،فلم نجد متسعاً من الوقت . وقد ساعدتها لتصعد على عوامة ، وبهذه الحركة ، لامست نهديها . وكنت ما أزال في الماء عندما

كانت هي تستلقي على بطنها على العوامة . والتفتت نحوي : لقد كان شعرها يغطي عينيها. وكانت تضحك . وتسلقت بالقرب منها على العوامة . كان الطقس جميلاً ، وتركت رأسي ينحدر الى الوراء ووضعته ، وكأنني امزح ، على بطنها . فلم تقل شيئاً . وبقيت هكذا . وكانت السماء كلها في عيني ، وكانت زرقاء ومذهبة . وتحت رقبتي ، كنت احس بطن ماري ينبض على مهل . وبقينا طويلاً على العوامة ، ونحن نصف نائمين . وعندما غدت الشمس حامية اكثر مما ينبغي ، غطست في الماء فتبعتها . وقبضت عليها ، وأمررت يدي حول جسمها وسبحنا معاً . وكانت ما تزال تضحك . وعلى الشاطيء ، بينما كنا نتجفف ، قالت لي : إنني أشد سمرة منك . وسألتها إن كانت تريد أن تأتي الى السينما ، عند المساء . فضحكت ايضاً وقالت لي إنها كانت ترغب في مشاهدة فيلم لفيرنانديل . وعندما ارتدينا ملابسنا ، كانت دهشة جداً عندما رأتني أضع ربطة عنق سوداء وسألتني إن كنت في حالة الحداد . فقلت لها إن أمي ماتت . وحين سألتني متى حدث ذلك ، أجبت : « أمس » . وتراجعت قليلاً . ولكنها لم تفه بأية ملاحظة . وكانت بي رغبة إلى أن أقول لها إن ذلك لم يكن نتيجة غلطة مني ، ولكني امتنعت ، لأنني فكرت بأنني كنت قد قلت ذلك لمعلمي . ومهما يكن من أمر فنحن دائماً مخطئون بعض الشيء .

وفي المساء ، كانت ماري قد نسيت كل شيء . كان الفيلم مضحكاً في بعض الأحيان ، ثم إنه كان في الواقع بليداً اكثر مما ينبغي . وكانت ساقها بلصق ساقي . وكنت ألامس نهديها . وقبل نهاية الحفلة ، قبلتها ، ولكن قبلة سيئة . وعندما خرجنا أتت الى شقتي .

وعندما استيقظتُ ، كانت ماري قد ذهبت وكانت قد شرحت لي أنه كان عليها أن تذهب الى خالتها . وفكرت بأن اليوم كان يوم احد ، وكان ذلك يضجرني . فأنا لا أحب يوم الأحد . وإذ ذاك عدت الى سريري ، وفتشت في الوسادة عن رائحة الملح الذي كان شعر ماري قد خلّفه ، ثم نمت

حتّى العاشرة ، وبعد ذلك دخنت سجائر ، وأنا ما أزال مستنقياً حتّى الظهر — ولم اكن أرغب في الغداء عند سليست كالعادة لأنه ، بالتأكيد ، سوف تُطرح علي اسئلة وأنا لا أحب ذلك . وسلقت بيضاً وأكلته دفعة واحدة ، بلا خبز ، لأنني ما كنت املك خبزاً بعد ، ولأنني لم أكن اود أن أنزل لأشتري منه .

وبعد الغداء ، ضجرت قليلاً وتهت في الشقة ، وكانت الشقة مريحة عندما كانت أمي هنا ، أما الآن ، فإنها اكبر مما ينبغي بالنسبة لي . وقد اضطررت أن انقل الى غرفتي طاولة غرفة الطعام . فأنا لا أعيش بعد إلا في هذه الغرفة ، بين كراسي القش المجوّفة قليلاً ، والخزانة ذات المرآة المصفرة ، وطاولة الحلاقة والسرير النحاسي . أما كل ما تبقى ، فكان مهملاً . وبعد مدة ، ولكي أقوم بعمل ما ، أخذت جريدة قديمة وقرأتها . وقطعت منها إعلاناً عن املاح كروشن والصقته في دفتر قديم اضع فيه الاشياء التي تُطرفني في الجرائد . وغسلت ايضاً يدي ، واخيراً وقفت على الشرفة .

إن غرفتي تطل على الشارع الرئيسي من ضاحية المدينة . وكان الطقس ، بعد هذا الظهر ، جميلاً ، ومع ذلك ، فان البلاط كان لزجاً وكان الناس نادرين وما يزالون مستعجلين . كانوا في باديء الأمر اسراً تتنزه ، وصبيين صغيرين يرتديان لباساً بحرياً ، نزل سروالهما تحت الركبتين ، وكانا مرتبكين في ثيابهما الخشنة بعض الشيء ، وفتاة صغيرة عُقد شعرها بشريط خشن ازهر اللون وهي تنتعل حذاء ملتمعاً ، وخلفهم ، كانت تسير أم ضخمة ، ترتدي فستاناً من الحرير كستنائي اللون . والأب ، وهو رجل قصير نحيل بعض الشيء كنت أعرفه بالرؤية ، ولقد كان يرتدي لباس البحرية ، وربطة عنق ويحمل بيده عصاه . وإذ رأيته مع زوجته ، فهمت لماذا كانوا يقولون عنه في الحي إنه كان رجلاً معتبراً ، وبعد فترة مرّ شبان الضاحية ، بشعرهم اللماع وربطة عنقهم الحمراء وسترتهم المحصورة جداً ، والمنديل المطرز والأحذية ذات المقدمة المربعة . وفكرت بأنهم كانوا ذاهبين الى

دور سينما المركز . من أجل ذلك كانوا يبكرون في الذهاب وكانوا يسرعون نحو الترام وهم يضحكون ضحكاً قوياً .

وبعد مرورهم ، غدت الطريق مقفرة شيئاً فشيئاً . وكانت المشاهد ، كما اعتقد ، قد ابتدأت في كل مكان . ولم يكن في الطرق بعد إلا أصحاب الحوانيت والهررة ، وكانت السماء صافية ولكن دون ألق فوق الأشجار التي تزين الطريق . وعلى الرصيف المقابل ، اخرج بائع التبغ كرسياً ، ووضعه أمام بابه واعتلاه وهو يستند بذراعيه الى ظهره . وكانت عربات الترام الغاصة بالركاب منذ فترة ، فارغة الآن تقريباً . وفي القهوة الصغيرة ، شي بيارو ، بالقرب من بائع التبغ ، كان الصبي يكنّس النشارة في القاعة الخالية . كان ذلك يوم الأحد حقاً .

وأدرت كرسيّي ووضعته ككرسي بائع التبغ ، لأنني وجدت ان ذلك كان أنسب . واشعلت سيجارتين ، ودخلت لآخذ قطعة من الشوكولا وعدت لآكلها عند النافذة . وبعد قليل اظلمت السماء ، واعتقدت أننا سوف نشهد عاصفة من عواصف الصيف ، ولكنها مع ذلك ، انقشعت شيئاً فشيئاً . ولكن مرور الضباب كان قد خلّف على الشارع ما يشبه وعداً بالمطر أحاله اشد ظلمة . وبقيت طويلاً انظر إلى السماء .

وعند الساعة الخامسة ، وصلت قافلة الترام في ضجيج ، وكانت تعيد من ملعب الضاحية ، عناقيد من المشاهدين الذين تسلقوا السلالم والنوافذ . أما قافلة الترام التالية فقد أعادت اللاعبين الذين عرفتهم من حقائبهم الصغيرة . وكانوا يزعقون وينشدون بملء الرئة بأن ناديهم لن يهلك . ولقد ارسل لي بعضهم إشارات بل إن احدهم صرخ لي قائلاً : « لقد انتصرنا عليهم . » وهززت رأسي وأنا اقول : « نعم » . وابتداء من تلك اللحظة اخذت السيارات تتوافد .

وتقدّم النهار قليلاً ، وأصبحت السماء ، فوق السطوح ، حمراء ، ومع المساء البازغ ، أخذت الطرقات تعج . وكان المتنزهون يعودون شيئاً فشيئاً . وعرفت من بينهم السيد المعتبر . وكان الأطفال يبكون او

يستسلمون للجرّ. وفي الوقت نفسه تقريباً، أفرغت دور الحي السينمائية في الطريق موجة من المشاهدين. ومن بينهم، شباب كانوا يقومون بحركات اكثر وثوقاً من العادة، وفكرت بأنهم كانوا قد شاهدوا فيلم مغامرات. وكان الذين يعودون من دور سينما المدينة يصلون متأخرين قليلاً. وكانوا يبدون اكثر رزانة. وكانوا ما يزالون يضحكون، ولكنهم كانوا يبدون، من وقت الى آخر، متعبين وحالمين. وقد ظلوا في الشارع، يروحون ويجيئون على الرصيف المقابل. وكانت صبايا الحي، يتماسكن بالاذرع، مرسلات الشعر. وكان الشبان قد اخذوا تدابيرهم لكي يلتقوا بهن، وكانوا يرسلون مزاحاً كانت الفتيات يضحكن له وهن يدرن رؤوسهن. وقد بعث لي بعضهن إشارات، وكنت أعرفهن.

وإذ ذاك، أشعلت مصابيح الشارع فجأة، فجعلت النجوم الاولى التي كانت تصعد في الليل باهتة صفراء. واحسست بأن عيني قد تعبتا من النظر الى الأرصفة بحمولتها من الرجال والأنوار. وكانت المصابيح تلمع البلاط المبلّل، وكانت قافلة الترام، لمسافات محددة، تعكس شعاعاتها على الشعور الملمعة، وعلى بسمة او سوار من الفضة. وبعد قليل، خفت القافلات، وهبط ليل أسود فوق الأشجار والمصابيح، فأخذ الحي يقفر رويداً رويداً، حتى الوقت الذي بدأ فيه اول قط يجتاز ببطء الشارع المقفر من جديد. وفكرت آنذاك انه يجب ان اتناول العشاء. ولقد كنت اشكو الماً خفيفاً في رقبتي من جراء بقائي طويلاً وأنا مستند الى ظهر كرسي. ونزلت لأشتري خبزاً وعجيناً. وصنعت طعامي واكلت واقفاً. وأردت ان ادخن سيجارة على النافذة، ولكن الهواء كان قد ترطب، فأحسست ببعض البرد. وأغلقت نوافذي ورأيت في المرآة، وأنا أعود، طرفاً من الطاولة كان مصباح السبيرتو يجاور عنده قطعاً من الخبز. وفكرت أنه كان يوم احد قد انقضى، وأن أمي كانت الآن مدفونة، وأنني سأستعيد عملي وأنه، بالاجمال، لم يكن اي شيء قد تبدل.

٣

اليوم ، عملت كثيراً في مكتبي . وكان المعلّم لطيفاً . وقد سألني إذا لم اكن قد تعبت اكثر مما ينبغي ، وأراد ايضاً أن يعرف عمر أمي . قلت : « في الستين تقريباً » لكي لا أخطيء . ولا أدري لماذا بدا عليه أنه قد تعزّى ، وأنه يعتبر القضية منتهية .

ولقد كان على طاولتي كومة من الايصالات ، وكان علي أن انظر فيها كلها . وقبل أن أغادر المكتب لتناول الغداء ، غسلت يدي . الظهر : أحب كثيراً هذا الوقت . أما في المساء ، فان سروري أخف لأن المنشفة الملفوفة التي تستعملها تكون مبللة تماماً ؛ بعد أن تكون قد استخدمت طوال اليوم . ولقد أبديت هذه الملاحظة يوماً لمعلمي ، فأجابني أنه يجد ذلك موسفاً ، ولكنه يرى ، مع ذلك ، بأنه كان تفصيلاً لا أهمية له . وخرجت متأخراً قليلاً ، في الساعة الثانية عشرة والنصف مع ايمانويل الذي يعمل في الشحن . كان المكتب يطل على البحر ، ولقد اضعنا وقتاً ونحن ننظر الى سفينة البضائع في المرفأ الذي يحترق من الشمس . في تلك الاثناء ، وصلت شاحنة ، مصحوبة بضجيج من السلاسل والانفجارات . وسألني ايمانويل : « ان كنا نذهب » وأخذت اركض . كانت الشاحنة قد تجاوزتنا ، فاندفعنا في

أثرها . وكنت غارقاً في الضجة والغبار . ولم اكن أرى شيئاً ولا أحس إلاّ باندفاع الركض الأهوج ، وسط آلات رفع الاثقال والماكينات والصواري التي كانت ترقص في الأفق وحطام السفن التي كنا نمر أمامها . وكنت اول من تسلّق ، فقفزت بسرعة . ثم ساعدت ايمانويل على الصعود . ولم نكن نستطيع التنفس ، وكانت الشاحنة تقفز على بلاطات المرفأ غير المتساوية وسط الغبرة والشمس ، وكان ايمانويل يضحك حتى يكاد يختنق .

ووصلنا ، ونحن نسبح في العرق ، عند سيلست . وكان ما يزال هناك ، ببطنه المنتفخ ، ومريوله وشاربه الأبيض . وسألني « إذا كانت الأمور تجري بالرغم من كل شيء » فقلت له أن نعم وأنني كنت جائعاً . واكلت بسرعة وأخذت قهوة ثم عدت الى شقتي ، ونمت قليلاً لأنني كنت قد شربت اكثر مما ينبغي من الخمر ، وعندما استيقظت ، كانت بي رغبة في التدخين . كان الوقت متأخراً، وقد ركضت لألحق الترام . وعملت بعد الظهر كله . وكان الحر شديداً في المكتب ، وفي المساء ، عندما خرجت، كنت سعيداً جداً بأن أعود وأنا أمشي متمهلاً بمحاذاة الضفاف . كانت السماء خضراء ، وكنت أحسني مسروراً . ومع ذلك ، فقد عدت رأساً الى البيت لأنني كنت أود أن أهيء بطاطا مسلوقة .

ولقد اصطدمت وأنا أصعد السلم المظلم ، بالشيخ سالامانو ، جاري . وكان بصحبة كلبه . ومنذ ثماني سنوات يراهما الناس معاً . وكان الكلب مصاباً بمرض جلدي ، الحمرة ، على ما اعتقد ، كان يُذيب وبره كله ويغطيه بطبقات من القشر الأسمر . ولكثرة ما عاش معه ، وحيدين في غرفة صغيرة، انتهى الشيخ سالامانو بأن يشبهه . فعلى وجهه قشر أحمر وله وبر اصفر نادر . أما الكلب ، فقد أخذ عن معلمه نوعاً من المشية المقوّسة يمتد فيها فكه نحو الأمام ويتطاول عنقه . كانا يبدوان وكأنهما من فصيلة واحدة ، ومع ذلك ، فانهما يتباغضان . ويقود الشيخ كلبه ، مرتين في اليوم ، في الساعة الحادية عشرة وفي الساعة السادسة للتنزه . ومنذ ثماني

سنوات ، لم يغيرا طريقهما . فبالامكان رؤيتهما على طول شارع ليون والكلب يسحب الرجل حتى يتعثر الشيخ سالامانو . وعندها يضرب كلبه ويهينه . ويستسلم الكلب من الخوف ويترك معلمه يجره . وفي هذه الاثناء ، يأتي دور الشيخ في سحبه . وعندما ينسى الكلب ، يسحب معلمه من جديد فيضرب من جديد ويهان . وعندها ، يتوقف الاثنان على الرصيف ويتبادلان النظرات : الكلب بخوف ، والرجل بحقد . ويستمر ذلك كل يوم. وعندما يريد الكلب ان يبول ، فإن الشيخ لا يتيح له الوقت ليفعل ويشده . فيزرع وراءه سيلاً من النقط الصغيرة . وإذا اتفق أن وسخ الكلب في الغرفة ، فإنه يُضرب ايضاً . إن ذلك يستمر منذ ثماني سنوات ويقول سيلست دائماً : « إن هذا الأمر مؤسف » ولكن ، لا أحد يستطيع أن يعرف بالضبط . فعندما لاقيت سالامانو عند السلم ، كان يشتم كلبه وكان يقول له : « انك قذر ، جيفة ! » وكان الكلب يئن . وقلت : « مساء الخير » ولكن الشيخ ظل يشتم . وإذ ذاك سألته ماذا كان الكلب قد فعل . فلم يجبني . كان يكتفي بالقول : « قذر ، جيفة ! » وقد كنت أتمثله ، منحنياً على كلبه ، يصلح شيئاً على رقبته . وتكلمت بقوة اكثر من قبل . فأجابني من غير أن يلتفت وبنوع من الغضب المكبوت : « إنه ما يزال هنا » ثم مضى وهو يشد الحيوان الذي استسلم للجر على أرجله الأربع وهو يئن .

وفي هذا الوقت تماماً دخل جاري الثاني . وقد كانوا في الحي يقولون عنه انه يتعهد نساء ، وحين يُسأل عن مهنته ، يجيب مع ذلك ، بأنه : « حانوتي » وبالاجمال فليس هو محبوباً على الاطلاق ، ولكنه يحدثني غالباً ، وأحياناً يمضي عندي بعض الوقت لأنني استمع إليه . وأجد أن ما يقوله مثير . والحق اني لا أملك حجة لكي لا أحدثه . انه يُدعى ريمون سانتيس . وهو قصير بعض الشيء ، عريض الكتفين ، ذو انف ملاكم وهو دائماً أنيق اللباس . وقد قال لي هو ايضاً ، متحدثاً عن سالامانو :

« آليس ذلك محزناً ؟ » وسألني ان لم يكن ذلك يدعوني الى الاشمئزاز فأجبت أن لا .

وصعدنا ، وكنت على وشك ان اتركه حين قال لي : « إن عندي مقانق وخمراً . هل تريد أن تأكل قطعة معي ؟ » وفكرت بأن ذلك يجنّبني إعداد الطبخ فقبلت . ولم يكن هو ايضاً يملك سوى غرفة واحدة ، مع مطبخ بلا نافذة. وفوق سريره ، كان معلقاً ملاك من الرخام الأبيض والوردي، وصور أبطال وصورتان او ثلاث لنساء عاريات . وكانت الغرفة وسخة والسرير مدعوكاً . ولقد اشعل اولاً قنديل الكاز ، ثم اخرج رباطاً يثير الشك من جيبه ولفّ به يده اليمنى . فسألته عمّ كان يشكو ، فقال لي إنه كانت قد حصلت له مشاجرة مع شخص كان ينوي به سوءاً .

وقال لي : « انك تعلم ، يا سيد مارسو ، لا لأنني شرير ولكن لأنني حيوي . وقد قال لي الآخر : « انزل من الترام ان كنت رجلاً » . وأجبته : « كفى ، وكن هادئاً » . فأجابني انني لم اكن رجلاً ، عندها نزلت . وقلت له : « كفى ، هذا أفضل لك وإلا انضجتك » وأجابني : « بأي شيء ؟ » وعندها أعطيته واحدة . فوقع . وتقدمت لارفعه . ولكنه ركلني وهو على الأرض . وإذ ذاك أعطيته ضربة ركبة ، وضربتين بالعصى . وكان وجهه دامياً ، وسألته ان كان قد استوفى حسابه ، فأجابني « نعم » .

وطوال هذا الوقت كله ، كان سانتيس يلف رباطه . وكنت جالساً على السرير . قال لي : « أنت ترى انني لم اكن أنا الذي التمست الشر ، وإنما هو الذي خسرني » . وكان ذلك صحيحاً ، وقد اقررت به ، وعندها قال لي انه يريد ، بالضبط ، أن يسألني نصيحة في موضوع هذه القضية ، لأنني أنا ، كنت رجلاً ، وكنت اعرف الحياة ، فلم أقل شيئاً ، وإنني كنت استطيع أن أساعده فيصبح فيما بعد رفيقاً لي. وسألني ايضاً ان كنت أريد أن أصبح رفيقاً له . فقلت له ان الأمر لديّ سواء . فكان مسروراً . واخرج

بعض المقانق، وطبخه على الموقد ووضع اقداحاً وصحوناً ومناشف وزجاجتين من النبيذ. فعل كل ذلك بصمت. ثم جلسنا. وبينما كنا نأكل، ابتدأ يروي لي قصته وكان يتردد قليلاً في باديء الأمر: « عرفت سيدة.. ويمكن أن أقول إنها كانت عشيقتي ». والرجل الذي كان قد اقتتل معه هو شقيق هذه المرأة. وقال لي انه كان قد أنفق عليها؛ ولم أجب بشيء، ومع ذلك فقد اضاف في الحال بأنه كان يعلم ما يُقال في الحي، ولكنه كان مرتاح الضمير، وكان حانوتياً.

وقال لي: « ولكي نعود الى قصتنا، لاحظت أنه قد كان هنالك خداع ». كان يعطيها ما يكفيها العيش لا اكثر. وكان يدفع هو نفسه اجار الغرفة ويعطيها عشرين فرنكاً في اليوم للطعام. ثلاثمئة فرنك للغرفة، وستمئة فرنك للطعام، وجورب بين وقت وآخر، وكان ذلك يساوي الف فرنك. ولم تكن السيدة تعمل. « ولكنها كانت تقول لي إن ما كنت أعطيه إياها يكاد لا يكفي. غير اني كنت أقول لها: لماذا لا تعملين نصف نهار؟ فإنك تخففين علي كثيراً من هذه الاشياء الطفيفة. لقد اشتريت لك ثوباً هذا الشهر، وأنا ادفع لك عشرين فرنكاً في النهار وأدفع لك بدل الإيجار، وأنت تشربين القهوة بعد الظهر مع صاحباتك، انك تعطيهن القهوة والسكر، وأنا أعطيك المال، لقد احسنت التصرف معك، وأنت تردين لي عملي بصورة رديئة ». ولكنها لم تكن تعمل؛ وكانت تقول دائماً انها لم تكن تتدبّر الامر، وهكذا لاحظت أنه قد كان هناك خداع ».

وعندها روى لي أنه كان قد وجد في حقيبتها ورقة يانصيب وأنها لم تستطع أن تشرح له كيف كانت قد اشترتها. وبعد فترة، كان قد وجد عندها « ورقـــة » من مؤسسة التسليف تثبت انهـــا كانت قد رهنت سوارين. وحتى الآن، كان يجهل وجود هذين السوارين. « ورأيت جيداً أنه كان هناك خداع، وعند ذلك، تركتها ولكن، قبل ذلك، ضربتها. قلت لها حقائقها. قلت لها إن كل ما كانت تريده، هو التلهي بشيئها.

كما انني قلت لها ، وأنت تفهم ، يا سيد مارسو : « أنت لا ترين أن الناس يحسدونك على السعادة التي امنحك إياها . ستعرفين فيما بعد السعادة التي كنت تمتلكينها » .

وكان قد ضربها حتى أدماها . وفي السابق ، لم يكن يضربها « كنت أضربها ، ولكن بلطف، إذا صح التعبير. وكانت تصرخ قليلاً، وكنت أغلق مصاريع النوافذ، وكان ذلك ينتهي ككل مرة . اما الآن ، فالضرب كان جدياً . وأنا أعتقد أني عاقبتها عقاباً كافياً . »

وإذ ذاك شرح لي انه انما كان بحاجة الى نصيحة من أجل هذا . وتوقف ليصلح فتيلة المصباح التي كانت تدخن . وكنت أنا ما أزال أصغي اليه . وكنت قد شربت ما يقرب الليتر من الخمر، وكنت قد شعرت بالحر في صدغي . وكنت أدخن سكاير ريمون لانه لم يبق لدي سجائر . وكانت آخر الحافلات تمر وتحمل معها ضجة الضواحي التي باتت الآن بعيدة . وتابع ريمون حديثه . ان ما كان يزعجه : « أنه كان ما يزال راغباً في المجامعة » . ولكنه كان يريد أن يعاقبها . وكان قد فكر في باديء الأمر بأن يقودها الى فندق وان يستدعي شرطه « الأخلاق » لكي يحدث فضيحة، ولكي توضع على لائحة البغايا . ثم توجه الى اصدقاء كان قد عرفهم في وسطه فلم يجدوا له حلاً . وقد أكد لي ريمون ان من مصلحة المرء ان يكون من ذلك الوسط . كان قد روى لهم فاقترحوا أن « يتعقبوها » . ولكن ، لم يكن ذلك ما كان يرجوه . وراح يفكر . في السابق ، كان يود أن يسألني شيئاً ، ولكن ، قبل أن يسألني إياه، كان يود أن يعرف رأيي بهذه القضية . وأجبته ان لا رأي لي فيها، ولكنها كانت مثيرة ، وسألني إن كنت أعتقد أنه كان هناك خداع ، وأنا ، كان يبدو لي جيداً أنه كان هناك خداع . وسألني ان كنت أوافق على ضرورة معاقبتها ، وما الذي كنت أفعله لو كنت مكانه ، فأجبته ، ان المرء لا يستطيع ابداً ان يعرف ، ولكنني كنت أفهم ان يريد معاقبتها . وشربت مزيداً من

الخمر . واشعل سيجارة وكشف لي فكرته . كان يود ان يكتب لهـا رسالة « مع ضربات أقدام وفي الوقت نفسه مع اشياء تحملها على الندم . » وبعدها ، عندما تعود ، سينام معها « وعندما ينتهي بالضبط » سيبصق في وجهها ويلقيها خارجاً . ووجدت ، بالفعل ، انها بهذه الطريقة ستكون معاقبة . ولكن ريمون قال لي بأنه لا يحس نفسه قادراً على كتابة الرسالة التي يجب إرسالها ، وأنه كان قد فكر بي لأكتبها له . ولما لم أقل شيئاً ، سألني هل كان يضجرني ان اكتبها الآن ، فأجبت ان لا .

ووقف إذ ذاك بعد أن شرب كأساً من الخمر . وأزاح الصحون والقليل من المقانق البارد الذي كنا قد تركناه ، ومسح باعتناء قماش الطاولة المشمّع . واخرج من درج طاولة النوم ورقة موطّرة ، ومغلفاً اصفر ، ومسكة ريشة من الخشب الأحمر ومحبرة مربعة من الحبر البنفسجي . وعندما قال لي اسم المرأة ، رأيت أنها قد كانت مغربية . وحررت الرسالة . وقد كتبتها كيفما اتفق ، ولكني اجتهدت في ارضاء ريمون ، لأنني لم اكن املك أسباباً لكي لا أرضيه . ثم قرأت الرسالة بصوت عال . واستمع الي وهو يدخن ويهزّ رأسه ، ثم طلب مني أن أعيد قراءتها . وكان مسروراً جداً . قال لي : « كنت أعلم جيداً أنك تعرف الحياة » . ولم اكن لاحظت قبلاً أنه كان يرفع الكلفة في مناداتي ، ولاحظت ذلك عندما قال لي : « الآن ، أنت صديق حقيقي » . وردد جملته فقلت : « نعم » وكان لديّ سواء أن اكون صديقه ، وكان هو كما يبدو يتمنى ذلك كثيراً . وأغلق الرسالة وأنهينا الخمر . ثم جلسنا فترة ندخّن من غير أن نتحدث بشيء . وكان كل شيء في الخارج هادئاً . وقد سمعنا صوت سيارة كانت تمر ، وقلت : « الوقت متأخر » . وكان ريمون يفكر بذلك ايضاً . ولاحظ ان الوقت كان يمر بسرعة ، وكان ذلك صحيحاً على نحو ما . وكنت قد نعست ، ولكنني كنت أحس مشقة في النهوض . ولا بدّ ان هيئتي كانت متعبة ، لأن ريمون قال لي بأنه يجب الا أستسلم . ولم افهم ، في باديء الأمر ، وعندها

أوضح لي بأنه كان قد علم بموت أمي، وأن هذا شيء لابد أن يحدث ذات يوم . وكان هذا هو رأيي ايضاً .

ونهضت . وشد ريمون على يدي بقوة كبيرة ، وقال لي ان الرجال يتفاهمون دائماً فيما بينهم، وعندما خرجت من بيته اغلقت الباب ، وبقيت لحظة في الظلمة ، عند سطيحة السلم . كان البيت هادئاً . ومن اعماق قفص السلم كانت تنبعث نفحة غامضة ورطبة . ولم اكن اسمع سوى تدفق دمي الذي كان يطن في اذنيّ . وقد بقيت جامداً . ولكن ، في غرفة الشيخ سالامانو ، أنّ الكلب انيناً أصمّ .

٤

عملت كثيراً طوال الأسبوع ، وأقبل ريمون يقول لي إنه كان قد أرسل الرسالة . وذهبت الى السينما مرتين مع ايمانويل الذي لم يكن يفهم دائماً ما يجري على الشاشة ، وكان عليّ ان اقدم له ايضاحات . وكان امس يوم السبت ، وقد أتت ماري كما كنا قد اتفقنا . ولقد اشتهيتها كثيراً . لأنها كانت قد ارتدت ثوباً جميلاً ذا خطوط حمراء وبيضاء وحذاء من الجلد . وكان المرء يحزر ، وراء الثوب ، نهديها القاسيين ، وكانت سمرة الشمس تضفي على وجهها حمرة الورد . واستقللنا الاوتوبيس وذهبنا ، على بعد بضعة كيلومترات من مدينة الجزائر ، الى شاطيء محفوف بالصخور ، ومغروس بالقصب من ناحية اليابسة. ولم تكن شمس الساعة الرابعة حارة اكثر مما ينبغي، ولكن الماء كان فاتراً ، مع موجات صغيرة طويلة وكسلى . وعلمتني ماري لعبة : يجب ، ونحن نسبح ، ان نشرب عند قمة الموجة ، وأن نجمع في فمنا الزبد كله ثم نستلقي على ظهرنا لنبصقه في وجه السماء ؛ وكان ذلك يشكل نوعاً من الدانتيل ذي الرغوة التي كانت تتبدّد في الهواء او تتساقط رذاذاً فاتراً على وجهينا . ولكن بعد فترة قصيرة ، كنت قد احسست بفمي يلتهب من مرارة الملح . ولحقتني إذ ذاك ماري والتصقت

بي في الماء. ووضعت فمها على فمي ، وكان لسانها يرطّب شفتي ثم تدحرجنا في الأمواج ردحاً من الزمن .

وعندما أرتدينا ملابسنا على الشاطيء ، كانت ماري تنظر الي بعينين برّاقتين . وقد قبّلتها . ومنذ تلك اللحظة كففنا عن الكلام . وألصقتها بي ، وكنا مستعجلين لنجد الاوتوبيس ، ولنعود الى بيتي ونرتمي على سريري . وكنت قد تركت نافذتي مفتوحة ، وكان لذيذاً أن نحس ليل الصيف يسيل على جسدينا الاسمرين .

وهذا الصباح ، بقيت ماري ، وقلت لها اننا سنتناول الغداء معاً . ونزلت لاشتري لحماً . وأنا اصعد ، سمعت صوت امرأة في غرفة ريمون . وبعد قليل ، وبّخ الشيخ سلامانو كلبه ، وسمعنا صوت نعال ومخالب على درجات السلم الخشبية ، ثم ارتفع صوت يقول : « قذر ، جيفة » وخرجا الى الشارع . ورويت لماري قصة الشيخ وضحكت . وكانت ترتدي احدى مناماتي ، وكانت قد شمّرت اكمامها . وعندما ضحكت أشتهيتها ايضاً . وبعد لحظة سألتني ان كنت أحبها . وأجبتها بأن ذلك لا يبدو أنه يعني شيئاً ، وأنه كان يخيل اليّ ان لا . فبدت عليها هيئة حزينة . ولكن ، بينما كانت تحضر الغداء ، ومن غير أن تكون هناك اية مناسبة ، ضحكت ضحكة قبلتها على أثرها . وفي هذه الاثناء ، انفجرت صرخات مشاجرة عند ريمون .

وسمعنا في باديء الأمر صوت امرأة دقيقاً ، ثم صوت ريمون الذي كان يقول : « لقد اشتقت اليك ، لقد اشتقت اليك ، سأعلمك كيف أشتاق اليك » ثم كانت حركات صامتة صرخت المرأة بعدها بعنف الى حد أن امتلأت سطيحة السلم في الحال بالناس . وخرجنا ، أنا وماري ايضاً . كانت المرأة ما تزال تصرخ ، وكان ريمون ما يزال يضرب . وقالت لي ماري ان ذلك كان فظيعاً ، فلم أجبها بشيء ، وسألتني أن اذهب فأحضر شرطياً ، ولكنني قلت لها إنني لم اكن احب الشرطة . ومع ذلك ، فقد

حضر شرطي مع مستأجر الطابق الثاني الذي هو اطفائي . وطرق الباب فلم نعد نسمع شيئاً . وطرق بشدة اقوى ، وبعد لحظة ، بكت المرأة وفتح ريمون . كان في فمه سيجارة وكانت هيئته متكلفة اللطف . واندفعت الفتاة نحو الباب وصرخت للشرطي أن ريمون كان قد ضربها . وقال الشرطي : « ما أسمك؟ » . وأجاب ريمون . وقال الشرطي : « إرم السيجارة من فمك عندما تحدثني » وتردد ريمون ، ونظر إلي وسحب نفساً من سيجارته . وفي هذه اللحظة صفعه الشرطي على مدى يده صفعة مدوية وثقيلة ، على خده ، وسقطت السيجارة على بعد عدة امتار . وتبدّل وجه ريمون ؛ ولكنه لم يقل شيئاً في الحال ، ثم سأل بصوت متواضع ان كان يستطيع أن يلمّ سيجارته . فصرّح الشرطي بإنه يستطيع أن يفعل وأردف : « ولكن في المرة القادمة ، ستعرف أن الشرطي ليس مهرجاً » . وفي اثناء ذلك ، كانت الفتاة تبكي وتردد : « لقد ضربني ، العكروت ! » وعندها سأل ريمون : « إيها السيد الشرطي ، هل من القانون ، ان يُقال للرجل إنه عكروت ؟ » ولكن الشرطي أمره « بأن يسد بوزه » عندها تلفت ريمون نحو الفتاة وقال لها : « انتظري قليلاً ، يا صغيرتي ، وفسوف نلتقي ثانية » . وأمره الشرطي بأن يغلق فمه ، وأن على الفتاة أن تذهب ، وأن يبقى هو في غرفته بإنتظار استدعائه من قبل مفوضية الشرطة . وأضاف بأن ريمون لابدّ أن يكون خجلاً بأن يكون سكران الى حد يجعله يرتجف هكذا . وفي هذه اللحظة شرح له ريمون : « انني لست سكران ، يا سيدي الشرطي . كل ما في الأمر ، انني هنا ، أمامك ، وأنا ارتجف . وهذا بالرغم مني . » وأغلق بابه ، وذهب الجميع . وكنا ، أنا وماري ، قد انتهينا من إعداد الفطور . ولكنها لم تكن جائعة ، فأكلت كل شيء تقريباً . وذهبت في الساعة الواحدة ، فنمت قليلاً .

وعند الساعة الثالثة ، طُرق بابي ودخل ريمون . وظللت ممدداً . وجلس هو على حافة سريري. وقد ظل لحظة صامتاً، وسألته كيف جرت قصته ،

فروى لي بإنه كان قد فعل ما كان يود فعله، ولكنها صفعته ، فضربها حينذاك . أما الباقي ، فكنت قد شاهدته . وقلت له انه يبدولي انها بهذا قد عُوقبت، وأنه يجب ان يكون مسروراً . ولقد كان هذا هو رأيه ايضاً . ولاحظ أن الشرطي عبثاً ما فعل ، فإن ذلك لا يغير شيئاً من الضربات التي كانت قد تلقتها . وأضاف بإنه كان يعرف الشرطة جيداً وأنه يعرف كيف يجب أن يتصرف المرء معهم . وسألني عندها ان كنت قد توقعت أن يردّ على صفعة الشرطي ؛ فأجبت بأنني لم أكن اتوقع شيئاً على الاطلاق وانني لم اكن أحب الشرطة على أي حال . وبدا على ريمون انه مسرور جداً . وسألني أن كنت أريد أن أخرج معه . فنهضت وبدأت بتمشيط شعري، وقال لي بأنه يجب أن اخدمه كشاهد . وكان ذلك لديّ سواء ، ولكنني لا أعلم ماذا يجب أن أقول . ولكن كان حسبي ، في رأي ريمون ، أن اصرح بإنه كان قد اشتاق الى الفتاة . ورضيت بان اكون له شاهداً .

وخرجنا ، وقدم لي ريمون قدح عرق . ثم أراد أن يلعب بالبليار فخسرت في آخر لحظة . وكان يريد بعد ذلك أن يذهب الى الماخور ، ولكنني رفضت لأنني لا أحب هذا . عندها ، عدنا ببطء وقال لي كم كان سعيداً لأنه استطاع أن يعاقب عشيقته . وكنت أجده لطيفاً جداً معي، وفكرت أن تلك كان لحظة جميلة .

ومن بعيد ، لمحت على عتبة الباب الشيخ سلامانو الذي كان ذا هيئة مضطربة . وعندما تقاربنا ، رأيت أن كلبه لم يكن بصحبته . وكان ينظر في جميع الجهات ، ويدور حول نفسه ، ويحاول أن ينفذ من خلال ظلمة الممر ، وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة ويعود ليفتش في الطريق بعينيه الصغيرتين الحمراوين . وعندما سأله ريمون ما الذي كان يشكوه ، لم يجب في الحال . وسمعت بغموض انه كان يتمتم : « القذر ، الجيفة » . واستمر في اهتياجه . وسألته أين كان كلبه ، فأجابني فجأة بإنه كان قد ذهب . ثم ، فجأة تحدث بسرعة : « لقد اصطحبته الى « الشان دو

مانوفر » كالعادة . ولقد كان هناك حشد ، حول اكواخ البائعين المتجولين . وتوقفت لارى « ملك الفرار » . وعندما أردت أن استأنف سيري لم يكن هناك . بالطبع ، منذ زمن طويل ، وأنا أريد أن اشتري له عقداً أصغر . ولكنني لم اكن اعتقد قط أن هذه الجيفة كانت تستطيع أن ترحل هكذا! ».

وشرح له ريمون آنذاك بأن من الممكن أن يكون الكلب قد ضلّ الطريق وبأنه سوف يعود . وسرد عليه امثلة كلاب كانت قد اجتازت عشرات الكيلومترات لتعود فتجد صاحبها . ومع ذلك ، فقد كانت هيئة الشيخ اشد اضطراباً . « ولكنهم سوف يأخذونه لي ، لو تدرك ، هذا إذا التقطه أحد . ولكن ذلك غير ممكن ، إنه سيثير اشمئزاز الجميع بقشره . ان الشرطه ستأخذه : هذا مؤكد . » فقلت له آنذاك ان عليه أن يذهب الى زريبة الحيوانات وسوف يردونه له مقابل بعض المال . وسألني ان كان مبلغ هذا المال مرتفعاً ، ولم اكن اعرف . وإذ ذاك غضب قائلاً : « أعطي مالاً من أجل هذه الجيفة ؟ آه ! انني افضل أن يموت » . وأخذ يشتمه . وضحك ريمون ودلف الى البيت وتبعته فافترقنا أمام سطيحة الشقة . وبعد فترة ، سمعت وقع أقدام الشيخ ، وطرق بابي . وعندما فتحت ، ظل لحظة على العتبة . وقال لي : « اعذرني ، اعذرني » ودعوته أن يدخل ، ولكنه لم يرد ذلك . كان ينظر الى طرف حذائيه وكانت يداه المقشرتان ترتعدان . ومن غير أن يواجهني قال لي : « إنهم لن يأخذوه مني ، اليس كذلك يا سيد مارسو ؟ إنهم سيعيدونه لي وإلاّ ، فما الذي سيجري لي ؟ » وقلت له ان زريبة الحيوانات تحتفظ بالكلاب مدة ثلاثة أيام تحت تصرف أصحابها ، وأخيراً تتصرف بها كما يحلو لها . ونظر الي بصمت ، ثم قال لي : « مساء الخير » وأغلق بابه وسمعته يروح ويجيء . وطقطق سريره . ومن الصوت الخفيف الغريب الذي اجتاز الحاجز ، فهمت أنه كان يبكي . ولا ادري لماذا فكرت بأمي . ولكن كان يجب أن أنهض في الغد باكراً ولم اكن قد جعت ، فنمت من غير أن اتناول العشاء.

٥

تلفن لي ريمون على المكتب . وقال لي إن أحد اصدقائه (وكان قد حدّثه عني) يدعوني الى قضاء نهار الأحد في كوخه الصغير ، بالقرب من مدينة الجزائر . وأجبت بأني ارحب بذلك كثيراً ، ولكنني كنت قد وعدت صديقة بيومي ذاك . وقال لي ريمون في الحال بإنه يدعوها هي ايضاً . فزوجة صديقه ستكون مسرورة جداً بأن لا تكون وحيدة وسط مجموعة من الرجال .

وأردت أن أغلق السمّاعة في الحال، لأنني كنت أعلم أن المدير لا يحب أن تأتينا المخابرات من المدينة ، ولكن ريمون سألني أن انتظر وقال لي انه كان بامكانه ان ينقل الي الدعوة عند المساء ، ولكنه كان يريد ان يبلغني شيئاً آخر . لقد كان ملاحقاً طوال النهار من قبل جماعة من العرب كان بينهم شقيق عشيقته السابقة « فـإذا رأيته أمام البيت هـذا المساء ، فابلغني » فقلت أن ذلك مفهوم .

وبعد قليل ، استدعاني المدير ، فكنت منزعجاً على الفور ، لأنني فكرت بإنه سيطلب مني أن اخفف مخابراتي التليفونية وأن أعمل بصورة أفضل . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فقد صرح لي بانه سيحدثني عن

مشروع ما يزال شديد الابهام ؛ كان يود فقط أن يعرف رأيي في الموضوع . لقد كان بوده ان يفتتح مكتباً في باريس لقضاء اعماله في المكان ذاته ، ومباشرة ، مع الشركات الكبرى ، وكان يود أن يعرف ان كنت مستعداً للذهاب الى هناك . وكان ذلك سيتيح لي أن اعيش في باريس وأن اسافر ايضاً قسماً من السنة . وقال لي : « انك شابٌ ، ويبدو لي أن هذه حياة لابد أن تروقك » . وقلت نعم . ولكن ذلك في الواقع ، سواء لديّ . وعندها سألني ان كان لا يهمني ان يطرأ تغيير على حياتي . فأجبت أن المرء لا يغيّر حياته قط ، وان جميع الحيوات تتساوى على كل حال ، وأن حياتي هنا لم تكن تسوءني قط . وبدا أنه مستاء ، وقال لي انني كنت اجيب دائماً أجوبة جانبية ، وانني لم اكن طموحاً ، وأن ذلك كان فاجعاً في الأعمال . وعندها عدت الى عملي . وقد كنت افضّل الاّ أثير استياءه ، ولكنني لم اكن اجد سبباً لتغيير حياتي . وعند التفكير في حياتي بطريقة جدية ، لم أجدني تعيساً . حين كنت طالباً ، كان لي كثير من المطامح من هذا النوع . ولكن ، عندما اضطررت الى ترك دراستي ، فهمت بسرعة أن هذا كله لم يكن له اهمية حقيقية .

وفي المساء ، أتت ماري تزورني ، وسألتني ان كنت أريد أن أتزوجها . فأجبتها أن ذلك كان سواء لدي ، واننا نستطيع أن نتزوج اذا كانت تريد ذلك . وأرادت عندها أن تعرف ان كنت احبها . فأجبتها كما كنت قد اجبتها مرة ، أن ذلك لا يعني شيئاً وأنني ، بلا شك ، لم اكن أحبها . وسألتني : « ولماذا تتزوجني إذن ؟ » وشرحت لها أن ذلك لم يكن له اية اهمية ، وأنها ، إذا كانت تريد أن تتزوج ، فاننا نستطيع أن نفعل ذلك . والحق أنها كانت هي التي تطلب الزواج ، وأني كنت اكتفي بالموافقة . وقالت ملاحظةً آنذاك ، أن الزواج كان شيئاً هاماً . فأجبت : « لا » فسكتت ونظرت الي بصمت . ثم تكلمت . كانت تريد فقط أن تعلم اذا كنت اقبل العرض نفسه لو صدر عن امرأة اخرى سأكون متعلقاً بها

بالطريقة نفسها قلت : « بالطبع » وعندها تساءلت ان كانت تحبني ، وأنا لم اكن استطيع أن أعرف شيئاً بهذا الخصوص . وبعد فترة اخرى ، تمتمت بأنني كنت غريباً ، وأنها كانت تحبني بلا شك من أجل ذلك ، ولكن ربما أثرت قرفها يوماً لهذه الأسباب نفسها . ولما كنت اصمت ، إذ لم اكن أجد شيئاً لأضيفه ، فقد اخذت ذراعي وهي تبتسم وصرحت انها تريد ان تتزوج . وأجبت اننا سنتزوج في الوقت الذي تريد . وعندها حدثتها عن عرض المدير ، فقالت لي ماري انها تحب ان تتعرف الى باريس . وأعلمتها أنني كنت قد عشت فيها في فترة ما ، فسألتني عن رأيي فيها ، فقلت : « انها وسخة ، ويوجد حمام وساحات سوداء . وللناس بشرة بيضاء » .

ثم مشينا واجتزنا المدينة من شوارعها الكبيرة . وكانت النساء جميلات ، وسألت ماري ان كانت تلاحظ ذلك ، فأجابت ان نعم ، وأنها كانت تفهمني . ولفترة ، إنقطعنا عن الحديث ؛ غير انني أردت أن تبقى معي ، وقلت لها اننا نستطيع أن نتناول الغداء معاً عند سيلست ، وكانت شديدة الرغبة في ذلك ، ولكن كانت لديها اعمال . وكنا بالقرب من بيتي ، فودعتها . ونظرت الي : « ألا تريد أن تعرف ما هي الأعمال التي تشغلني ؟ » وكنت أود كثيراً أن أعرف ذلك ، ولكنني لم اكن قد فكرت به ، وهذا ما كانت تأخذه عليّ ، كما يبدو . وإزاء موقفي المرتبك ، ضحكت ايضاً ، وكان ان قامت بحركة استطالت فيها بجسمها كله لتقدم لي فمها .

وتناولت العشاء عند سيلست . وكنت قد ابتدأت بالطعام عندما دخلت امرأة قصيرة غريبة سألتني أن كانت تستطيع أن تجلس الى طاولتي . وبالطبع كانت تستطيع ذلك . وكانت لها حركات متقطعة وعينان براقتان في وجه تفاحيّ صغير . وخلعت سترتها ، وجلست ثم نظرت بحماس الى قائمة الطعام ، ونادت سيلست وطلبت في الحال جميع اطباقها في صوت واضح ومستعجل في وقت واحد . وبانتظار المشهيات ، فتحت حقيبتها ، واخرجت

ورقة مربعة وقلماً ، وقامت مسبقاً بالجمع ، ثم اخرجت من جيبها المبلغ المطلوب وقد اضافت اليه البخشيش ، ووضعته أمامها . في هذا الوقت ، احضروا لها المشهيّات فالتهمتها بسرعة . وبانتظار الطبق التالي ، اخرجت ايضاً من حقيبتها قلماً ازرق ومجلة كانت تعطي البرامج الإذاعية الأسبوعية ، وقرأت بعناية كبيرة ، جميع مواعيد الاذاعات واحداً واحداً . ولما كانت المجلة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة ، فقد تابعت هذا العمل بدقة اثناء فترة الطعام كلها . وكنت قد انتهيت عندما كانت ما تزال تقرأ بالانكباب نفسه . ثم نهضت ، وارتدت سترتها وهي تقوم بالحركات الدقيقة الآلية نفسها ثم ذهبت . ولما لم يكن لدي شيء أفعله ، فقد خرجت أنا ايضاً وتبعتها فترة . كانت قد توقفت على مسافة الرصيف ، ثم تابعت طريقها بعجلة ووثوق لا يصدقان ، من دون أن تميل أو تتلفّت . وانتهى بي الأمر الى إضاعة اثرها ، فكان ان عدت ادراجي . وفكرت بأنها كانت غريبة ولكنني نسيتها بسرعة كافية .

وعلى عتبة بيتي وجدت الشيخ سالامانو . وأدخلته فأبلغني ان كلبه قد ضاع لأنه لم يجده في الزريبة . وكان العمال قد قالوا له انه ربما كان قد سُحق . وكان قد سأل هل من الممكن ان يعرف ذلك في مفوضيات الشرطة . فأجيب بأنهم لم يكونوا يحتفظون بأثر لهذه الاشياء ، لانها كانت تحدث كل يوم . وقلت للشيخ سالامانو انه كان يستطيع ان يحصل على كلب آخر ، ولكنه كان محقاً بأن يلفت نظري الى أنه كان معتاداً على كلبه ذاك .

كنت مقرفصاً على سريري ، وكان سالامانو جالساً على كرسي أمام الطاولة . كان يجلس لمواجهتي وكان يسند يديه بركبتيه . وكان قد احتفظ بلبادته القديمة . وكان يتمتم أطراف جمل تحت شاربه المصفر . كان يضجرني قليلاً ، ولكن لم يكن لدي ما أفعله . ولم اكن قد احسست بالنعاس ولكي أقول شيئاً ، سألته عن كلبه . فقال لي إنه كان قد حصل عليه بعد موت

زوجته ، كان قد تزوج متأخراً بقدر كاف ، وكانت له في صباه رغبة في أن يعمل في المسرح ، وفي الغرفة كان يلعب في المسرحيات الحربية . ولكنه ، دخل في النهاية ليعمل في السكة الحديدية ولم يكن نادماً على ذلك، لأنه كان يتقاضى الآن تقاعداً صغيراً . ولم يكن سعيداً مع زوجته ولكنه اعتاد عليها بالاجمال . وحين ماتت ، شعر بإنه كان وحيداً جداً . وعندها طلب كلباً من أحد اصدقائه في المصنع ، فكان ان حصل على هذا الكلب . وكان صغيراً جداً ، فوجب عليه ان يغذيه بالرضاعة . ولكن لما كان الكلب يعيش اقل من الانسان ، فقد انتهيا بأن اصبحا هرمين معاً . وقال لي سالامانو : « لقد كانت له طباع شرسة وكان بيننا اقتتال في بعض الاحيان . ولكنه كان كلباً طيباً بالرغم من كل شيء . » وقلت بأنه كان من جنس طيب وبدا سالامانو مسروراً . وأضاف : « ثم إنك لم تكن قد عرفته قبل مرضه ، لقد كان وبره اجمل ما فيه » . وفي كل مساء وصباح منذ ان لحقه هذا المرض ، كان سالامانو يرسله للمعالجة . ولكن مرض الكلب الحقيقي ، كان بالنسبة لسالامانو ، الشيخوخة ، والشيخوخة لا تشفى .

وفي هذه الأثناء تثاءبت ، فقال لي الشيخ انه ذاهب ، فقلت له انه يستطيع أن يبقى ، وانني كنت منزعجاً لما حدث لكلبه . فشكرني . وقال لي أن أمي كانت تحب كثيراً كلبه . وحين كان يتحدث عنها ، كان يدعوها « أمك المسكينة » ولقد عبر عن افتراضه بأنني لابد أن أكون تعيساً جداً منذ ان ماتت أمي ، فلم اجب شيئاً . وعندها قال لي بسرعة وبارتباك ، أنه يعلم ان الحي كان قد اساء حكمه علي لأنني كنت قد وضعت أمي في المأوى ، وأنه كان يعرفني ، وكان يعرف انني كنت احب امي كثيراً . وأجبت ، ولا أدري لماذا ، إنني كنت أجهل حتى ذلك الحين انهم كانوا يحكمون علي حكماً سيئاً في هذا الموضوع ، ولكن المأوى كان قد بدا لي شيئاً طبيعياً لأنني لم اكن املك المال الكافي لاحتفظ بأمي. وأضفت : « ثم انها كان

قد مضى عليها وقت طويل لم يكن لديها ما تقوله لي بعد وأنها كانت تضجر وحدها » وقال لي : « أجل ، وفي المأوى ، على الأقل ، يجد العاجز له أصدقاء » . ثم اعتذر . كان يود أن ينام . كانت حياته قد تغيرت الآن، ولم يكن يدري ما سيفعله . ولأول مرة منذ أن عرفته ، مدّ لي يده ، بحركة عجلى ، فأحسست بالقشر على جلده . وابتسم قليلاً وقبل أن يذهب ، قال لي : «آمل الا تنبح الكلاب هذه الليلة . فأنا اعتقد دائماً ان كلبي هو الذي ينبح . »

٦

عانيت يوم الأحد مشقة لأنهض من نومي . حتى وجب علي ماري أن تدعوني وتهزني . ولم نأكل لأننا كنا نريد ان نسبح باكراً . وكنت أحسني فارغاً تماماً ، وكنت قد شعرت بصداع خفيف . وكان لسيجارتي طعم مرّ . وقد سخرت ماري مني لأنها كانت تقول انه كان لي « رأس دفن » . وكانت قد لبست ثوباً من الكتان الأبيض واسبلت شعرها . وقلت لها إنها كانت جميلة ، فضحكت ابتهاجاً .

وعندما هبطنا ، طرقنا باب ريمون ، فأجابنا بأنه هابط . وفي الشارع ، كان النهار ، المليء بالشمس ، يصفعني لأنني كنت متعباً ولأننا لم نكن قد فتحنا النوافذ . وكانت ماري تقفز من الفرح ولا تكفّ عن القول بأن الطقس جميل . وأحسستني اكثر ارتياحاً من قبل ولاحظت انني قد كنت جائعاً . وقلت ذلك لماري ، فمدت لي كيسها من القماش المشمّع حيث كانت قد وضعت ثوبينا البحريين ومنشفة . ولم يكن لي إلا أن انتظر ، وسمعنا ريمون يغلق بابه . كان يرتدي سروالاً ازرق وقميصاً ابيض قصير الأكمام . ولكنه كان قد ارتدى لباساً بحرياً ، وهذا ما أضحك ماري ، وكان ساعده شديـــد البياض تحت الشعر الأسود . وكنت مشمئزاً بعض الشيء من ذلك .

كان يصفر وهو هابط، وكان يبدو عليه أنه سعيد جداً. وقال لي: «السلام عليك، أيها العزيز» ونادى ماري «آنسة».

وكنا قد ذهبنا مساء الأمس الى المخفر، وكنت قد شهدت بأن ريمون كان مشتاقاً الى الفتاة. وقد تُرك وشأنه بانتظار دعوة اخرى. ولم يراقبوا تأكيدي. وأمام الباب، تحدثنا عن ذلك مع ريمون، ثم قررنا أن نستقل الاوتوبيس. ولم يكن الشاطيء بعيداً جداً، ولكننا هكذا سنمضي بسرعة اكبر. وكان ريمون يفكر بأن صديقه سيسر عندما يرانا وقد وصلنا في وقت مبكر. وكنا على وشك ان نمضي، حين أشار اليّ ريمون فجأة لأنظر قبالتي. فرأيت جماعة من العرب مستندين إلى واجهة مكتب التبغ. كانوا ينظرون الينا بصمت، ولكن على طريقتهم، لا اكثر ولا أقل مما لو كنا احجاراً أو أشجاراً ميتة، وقال لي ريمون أن الثاني من جهة الشمال، كان رَجُلَه، وبدا عليه انه منشغل. وأضاف، إن القضية، مع ذلك، كانت الآن، قصة منتهية. ولم تكن ماري تفهم جيداً فسألتنا ما الذي كان يحدث. وأجبتها انهم كانوا جماعة من العرب يريدون شراً بريمون. وارادت ان نذهب على الفور. واستقام ريمون وضحك وهو يقول ان علينا أن نسرع.

وتوجهنا نحو موقف الاوتوبيس الذي كان على بُعد يسير، وأبلغني ريمون أن العرب لم يكونوا يتبعوننا. وتلفتّ فإذا هم ما يزالون في مكانهم ينظرون باللامبالاة نفسها المكان الذي تركناه. فركبنا الاوتوبيس. وكان ريمون وقد بدا عليه الانفراج، لا ينفك يرسل دعاباته أمام ماري. وأحسست أنها كانت تعجبه ولكنها لم تكن تجيبه تقريباً. وكانت تنظر اليه، بين فترة وأخرى، وهي تضحك.

ونزلنا في ضواحي مدينة الجزائر. ولم يكن الشاطيء بعيداً عن موقف الاوتوبيس. ولكن وجب علينا أن نجتاز نجداً صغيراً يشرف على البحر ثم ينحدر نحو الشاطيء. وكان مغطى بالأحجار الصفراء وبنبات البروق

الشديد البياض تحت زرقة السماء التي قست. وكانت ماري تتسلى بأن تنثر أوراقها وهي تضربها ضربات قوية بكيسها من القماش المشمع. ومشينا بين صفوف من الدارات الصغيرة ذات الحواجز الخضراء أو البيضاء، وقد اختفى بعضها على شرفاته، تحت اشجار الاثل، بينما برز بعضها الآخر عارياً، وسط الأحجار. وقبل ان يصل المرء الى حافة النجد، كان بأمكانه ان يرى البحر الهادىء، وعلى بُعد يسير، الرأس المسترخي والضخم في الماء الصافي. وارتفع الينا هدير محرك خفيف في الهواء الهادىء. ورأينا، في البعيد البعيد، زورق صيد، يتقدم، خفياً، في البحر الساطع. وقطفت ماري بعض ازهار السوسن الصخري، ورأينا من المنحدر الهابط نحو البحر انه قد كان هناك بعض السباحين.

كان صديق ريمون يسكن كوخاً صغيراً من الخشب في طرف الشاطىء. وكان البيت مستلقياً على صخور وكانت الأعمدة التي تسنده من أمام تسبح في الماء. وقدّمنا ريمون. وكان صديقه يُدعى «ماسون». كان رجلاً كبيراً، ضخم القامة والكتفين، وكانت معه امرأة قصيرة لطيفة، ذات لهجة باريسية، وبادرنا بالقول بأن نأخذ راحتنا وبأن لديه سمكاً مقلياً كان قد أصطاده ذلك الصباح بالذات. وقلت له كم كنت أجد بيته جميلاً. وأعلمني أنه يأتي اليه ليمضي فيه أيام السبت والأحد وجميع أيام العطلة. وأضاف «وانا وامرأتي، متفاهمان جداً». وكانت امرأته، في تلك الاثناء، تضحك مع ماري. وربما للمرة الاولى، فكرت فعلاً انني سأتزوج.

وكان ماسون يريد أن يسبح ولكن امرأته وريمون لم يريدا أن يذهبا. وهبطنا ثلاثتنا وارتمت ماري حالاً في الماء. أما ماسون وأنا فقد تريثنا قليلاً. وكان يتحدث ببطء، ولاحظت انه كانت لديه عادة ان يتم كل ما كان يقوله بتعبير: «بل أنا اذهب الى القول ...» حتى حين لم يكن في الواقع يضيف اي شيء الى معنى جملته. وقد قال لي بخصوص ماري: «إنها مدهشة، بل إذهب الى القول انها جذابة». ثم لم أعد انتبه لهذه العادة

لأنني كنت منشغلاً بالاحساس بأن الشمس كانت تلذّني . وبدأ الرمل يحمي تحت الأقدام ، وأخرّت فترة اخرى الاستجابة لرغبتي في الهبوط الى الماء ، ولكنني انتهيت بأن أقول لماسون : « هل نهبط؟ » . ودخل هو في الماء بهدوء وارتمى عندما فقد موطئاً لقدميه . كان يسبح وهو يحرك ذراعيه . وكانت سباحته رديئة بعض الشيء حتى انني تركته لألحق بماري. كان الماء بارداً وكنت سعيداً في أن أسبح. وابتعدنا ، أنا وماري، وكنا نحس اننا متوافقان في حركاتنا وفي انشراحنا .. وكنا نسبح في عرض البحر على ظهرينا ، وكانت الشمس تزيح عن وجهي المتوجه نحو السماء آخر وشاحات الماء التي كانت تسيل في فمي . ورأينا ماسون يعود الى الشاطيء ليستلقي في الشمس . وكان يبدو من البعيد ضخماً . وأرادت ماري أن نسبح معاً . فوقفت خلفها لآخذها من قامتها وكانت تتقدم بقوة ذراعيها بينما كنت أساعدها وأنا اخبط برجلي . وتبعنا صوت الماء الخفيف في الصباح حتى اخذت اشعر انني متعب . وعندها تركت ماري وعدت وأنا أسبح بانتظام واتنفس جيداً . وعلى الشاطيء ، تمددت على بطني قرب ماسون ووضعت وجهي في الرمل . وقلت له ان السباحة كانت « لذيذة » وكان هو من هذا الرأي . وبعد قليل ، أقبلت ماري ، وتلفتّ لأنظر اليها وهي تتقدم . كانت لزجة كلها من الماء المملح وكانت تمسك شعرها الى الخلف . وتمددت جنباً الى جانب مني فكانت الحرارتان المنبعثتان من جسدها ومن الشمس تنيمانني قليلاً .

وهزّتني ماري وقالت لي أن ماسون عاد الى منزله . ويجب أن نتناول الفطور . ونهضت على الفور لأنني كنت جائعاً . ولكن ماري قالت لي بأنني لم اكن قد قبلتها منذ هذا الصباح . وكان هذا صحيحاً بالرغم من أنني كنت اشعر بالرغبة في ذلك . وقالت لي : « تعال الى الماء » . فركضنا في الموجات الاولى الصغيرة . وسبحنا عدة أمتار ثم التصقت بي . وأحسست بساقيها حول ساقي واشتهيتها .

وحين عدنا ، كان ماسون ينادينا . وقلت له انني كنت جائعاً جداً ، فقال لامرأته في الحال انني كنت أروق له . كان الخبز لذيذاً . والتهمت حصتي من السمك . وكان هناك بعد ذلك لحم وبطاطا مقلية . وكنا نأكل جميعنا من غير أن نتحدث . وكان ماسون يشرب غالباً خمراً وكان يصبّ لي بلا إنقطاع . وعند القهوة ، كنت قد أحسست برأسي ثقيلاً ودخنت كثيراً . وواجهنا ماسون وريمون وأنا امر قضاء شهر آب معاً على الشاطيء ، بالاشتراك في النفقات . وقالت لنا ماري فجأة : « هل تعرفون كم الساعة الآن ، إنها الحادية عشرة والنصف » . وكنا جميعاً مدهوشين ، ولكن ماسون قال إننا كنا قد اكلنا باكراً جداً ، وان ذلك كان طبيعياً لأن وقت الفطور ، هو الساعة التي يشعر فيها المرء بالجوع . ولم أدرِ لماذا أضحك هذا الكلام ماري . وأعتقد انها كانت قد شربت اكثر مما ينبغي بقليل . وسألني عندها ماسون ان كنت أرغب في التنزه معه على الشاطيء . وقال : « إن امرأتي تقوم بالقيلولة دائماً بعد الفطور . وأنا لا أحب ذلك . يجب أن أمشي . وأنا أقول لها دائماً ان ذلك أفيد للصحة . ولكن ذلك حقها ، بعد كل شيء » وصرحت ماري أنها ستبقى لتساعد السيدة ماسون في غسل الصحون . وقالت الباريسية القصيرة أن ذلك يقتضي إخراج الرجال ونزلنا ثلاثتنا .

كانت الشمس تهبط عمودياً تقريباً على الرمل وكان وهجها على البحر لا يحتمل . ولم يكن ثمة أحد على الشاطيء بعد . وفي البيوت الصغيرة التي كانت تزين المنحدر والتي كانت تنيف على البحر ، كانت تُسمع أصوات الصحون وأواني الطعام . وكنا لا نكاد نتنفس في حرارة الحجر التي كانت تصعد من الأرض وقد بدأ ريمون وماسون يتحدثان عن اشياء وأشخاص لم اكن أعرفهم . وفهمت أنهما كانا متعارفين منذ زمن طويل ، حتى أنهما كانا قد عاشا معاً في وقت ما . وتوجهنا نحو الماء وحاذينا البحر . وكانت موجة صغيرة ، أطول من سابقتها ، تتقدم أحياناً لتبلل احذيتنا القماشية .

لم اكن افكر في شيء لأنني كنت نصف نائم من جراء هذه الشمس التي كانت تلفح رأسي العاري .

وفي هذه اللحظة ، قال ماسون لريمون شيئاً لم اسمعه جيداً . ولكنني لمحت في الوقت نفسه ، في اقصى طرف الشاطيء عربيين يرتديان الثوب الكحلي السميك ويتقدمان في اتجاهنا . ونظرت الى ريمون فقال لي : « إنه هو » وتابعنا سيرنا . وسأل ماسون كيف كانوا قد استطاعوا أن يتبعونا حتى هنا . وفكرت بأنهم لابد أن يكونوا قد رأونا نركب الاوتوبيس ومعنا حقيبة البحر . ولكنني لم أقل شيئاً .

وكان العربيان يتقدمان ببطء وكانا اقرب من قبل بكثير . فلم نبدل مشيتنا ، ولكن ريمون قال : « إذا حصلت مشاجرة ، فسوف تتكفّل انت ، يا ماسون ، بالثاني ، وأما أنا ، فسأتولى رجلي ، وأما أنت ، يا مارسو إذا وصل ثالث ، فسيكون لك » . وقلت : « نعم » ووضع ماسون يديه في جيبيه . وكان الرمل الملتهب يبدو لي احمر اللحظة . وكنا نتقدم بخطوات متعادلة نحو العربيين . وقد قصرت المسافة بيننا بانتظام . وعندما وصلنا على بعد خطوات بعضنا من بعض ، توقف العربيان . وخففنا مسيرنا ماسون وأنا . وتوجّه ريمون رأساً نحو رجله . ولم أسمع جيداً ما قاله له ، ولكن الآخر تظاهر بأنه يمنحه ضربة رأس . وضرب ريمون إذ ذاك للمرة الاولى ، وفي الحال نادى ماسون . وذهب ماسون الى العربي الذي كان قد عينه له ريمون فضربه ضربتين بكل قواه . وانكبّ العربي في الماء ، ووجهه غاطس ، وظل هكذا عدة لحظات وكانت فقاقيع تنفجر على سطح الماء حول رأسه . وفي هذه الاثناء ، ضرب ريمون ضربة اخرى ، وكان وجه العربي الآخر يسيل منه الدم ، وتلفت ريمون نحوي وقال : « سترى ماذا سيأخذ » وصرخت به « إنتبه ، إنه يحمل سكيناً . » ولكنّ ذراع ريمون كانت قد جُرحت ، وفمه قد شُطب . وقفز ماسون قفزة إلى الأمام . ولكن العربي الآخر كان قد نهض ووقف خلف العربي الذي كان مسلحاً . ولم نجروْ على ان نتحرك .

وتراجعا ببطء ، من غير ان يتوقفا عن النظر الينا وعن ابقائنا بلا حراك أمام السكين . وعندما لاحظا انهما أصبحا يملكان مجالاً واسعاً ، لاذا سريعاً بالفرار ، بينما ظللنا نحن مسمّرين تحت الشمس وكان ريمون يشد اليه ذراعه التي كانت تقطر دماً .

وفي الحال قال ماسون انه كان هناك طبيبٌ يمضي آحاده على الشاطيء . وأراد ريمون أن يذهب اليه على التو . ولكن كلما تكلم كان دم جرحه يحدث فقاقيع في فمه . فأسندناه وعدنا الى الكوخ باسرع وقت ممكن . وهناك قال ريمون ان جروحه كانت سطحية وأن باستطاعته أن يذهب الى الطبيب . وذهبت مع ماسون بينما بقيت مع المرأتين لاشرح لهما ماذا حدث .. كانت السيدة ماسون تبكي وكانت ماري شديدة الشحوب . أما أنا ، فقد كان يزعجني ان اشرح لهما . وانتهيت بأن سكت ودخنت وأنا أنظر الى البحر .

وعاد ريمون مع ماسون حوالي الساعة الواحدة والنصف . كانت ذراعه مضمدة وكانت شرائط ملصقة على زاوية فمه . وكان الطبيب قد قال له أن الأمر بسيط ؛ ولكن ريمون كان يبدو كئيباً جداً . وحاول ماسون أن يجعله يضحك . ولكنه كان يظلّ على صمته . وعندما قال انه هابط الى الشاطيء ، سألته الى اين هو ذاهب . وقلنا ، أنا وماسون إننا سنرافقه . وعندها ، غضب وأخذ يشتمنا . وصرح ماسون بأنه كان ينبغي ان لا نعاكسه . ولكنني تبعته مع ذلك .

ومشينا طويلاً على الشاطيء . وكانت الشمس الآن ساحقة . وكانت تتكسر شظايا على الرمل وعلى البحر . وأخذني الشعور بأن ريمون كان يعرف الى اين هو ذاهب ، ولكن ذلك كان خطأ بلاشك . وعند الطرف الآخر من الشاطيء ، وصلنا اخيراً الى نبع صغير كان يسيل في الرمل ، خلف صخرة ضخمة . وهناك وجدنا العربيين . كانا مضطجعين في ثوبهما الكحلي الملطخ . وكانا يبدوان هادئين تماماً ومسرورين تقريباً . ولم يغيّر

حضورنا اي شيء. كان العربي الذي ضرب ريمون ينظر اليه من غير أن يقول شيئاً. وكان الآخر ينفخ في قصبة صغيرة ويردد بلا انقطاع، وهو ينظر الينا بطرف عينه، النغمات الثلاث التي كانت آلته تبعثها.

وخلال هذا الوقت كله، لم يكن ثمة شيء بعد سوى الشمس وهذا الصمت، مع صوت النبع الخفيف والنغمات الثلاث. ثم مدّ ريمونْ يده الى جيب مسدسه، ولكن الآخر لم يتحرك وظلاّ يتبادلان النظرات. ولاحظت ان الذي كان يلعب بالناي كانت أصابع قدميه متباعدة جداً. ولكن، من غير ان يكف عن النظر الى غريمه، سألني ريمون: «هل أقتله؟» وفكرت أنني لو قلت لا فسوف يتحمس وحده وسيطلق حتماً. واكتفيت بأن قلت له: «انه لم يحدثك بعد، وإن من الحماقة أن تطلق هكذا.» وسمعنا مرة اخرى خرير الينبوع وصوت الناي الخفيف في قلب الصمت والحر. ثم قال ريمون: «إذن، سأشتمه، وحين يجيب، سأقتله». وأجبته: «أجل. ولكن إن لم يخرج سكينه، فإنك لا تستطيع أن تطلق». وأخذ ريمون يهتاج قليلاً. وكان الآخر ما يزال ينفخ في نايه وكانا يتأملان كل حركه تصدر من ريمون، وقلت لريمون: «لا، صارعه مصارعة رجل لرجل وأعطني مسدسك. فاذا تدخل الآخر، وسحب سكينه، فسأقتله.»

وحين أعطاني ريمون مسدسه، انزلقت الشمس فوقه. ومع ذلك، فقد ظللنا جامدين كما لو أن كل شيء كان قد انغلق حولنا. وكنا نتبادل النظرات من دون أن نخفض عيوننا، وكان كل شيء يتوقف هنا بين البحر والرمل والشمس، وصمت الناي والماء. وفكرت في هذه اللحظة أن بوسع المرء أن يطلق أو لا يطلق. ولكن العربيين تقهقرا فجأة واختفيا خلف الصخرة. وعندها عدنا، ريمون وأنا أدراجنا. وكان هو يبدو اكثر ارتياحاً، وتحدث عن اوتوبيس العودة.

ورافقته حتى الكوخ. وبينما كان يتسلق السلم الخشبي بقيت أمام

الدرجة الاولى ، ورأسي يطن من الشمس ، وأنا شبه يائس أمام المجهود الذي كان ينبغي ان أقوم به لاصعد الطابق الخشبي واتحدث ثانية مع المرأتين . ولكن الحر كان شديداً حتى كان يشقّ عليّ كثيراً ان ابقى جامداً تحت المطر المُعمي الذي كان يتساقط من السماء . فان أبقى هنا او أذهب ، سيان . وبعد لحظة ، عدت الى الشاطيء ، وأخذت أمشي .

كان ذلك الوهج الاحمر نفسه . وعلى الرمل ، كان البحر يلهث بكل تنفس أمواجه الصغيرة السريع والمختنق . كنت امشي ببطء نحو الصخور وأحس بجبيني ينتفخ تحت الشمس . وكانت هذه الحرارة كلها تتركز عليّ وتعارض تقدمي . وكلما كنت أحس لفحة الحرارة الكبيرة والملتهبة على وجهي ، كنت اكزّ على أسناني وأشد على قبضتيّ في جيبي بنطالي ، وأتوتّر كلياً لأنتصر على الشمس وعلى هذا السُكر الكثيف الذي كانت تصبّه علي . وعند كل سيف اشعة ينبثق من الرمل ، أو من الصدف المبيض او من شظية زجاج ، كان فكاي يتشنجان . ومشيت طويلاً .

وكنت ارى من بعيد كتلة الصخر الصغيرة الداكنة محاطة بهالة تغشي البصر من الأشعة وغبار البحر . وكنت افكر بالنبع البارد خلف الصخرة . ولقد كانت بي رغبة الى الالتقاء ثانية بخرير مياهه ، والى الهرب من الشمس والجهد وبكاء النسوة ، والى أن أجد اخيراً الظل وراحته . ولكن عندما اقتربت اكثر من قبل ، رأيت أن رجل ريمون كان قد عاد .

كان وحيداً . وكان مستلقياً على ظهره ، ويداه تحت رقبته ، وجبينه في ظلال الصخرة ، وجسمه كله في الشمس . وكان لباسه الأزرق يدخّن في الحرارة . وأخذتني الدهشة قليلاً . فلقد كانت القصة بالنسبة لي منتهية ، وكنت قد أتيت الى هنا من غير أن أفكر بشيء .

وما أن رآني حتى نهض قليلاً ومدّ يده الى جيبه . وشددت أنا بالطبع على مسدس ريمون الذي كنت أحمله في سترتي . واذ ذاك تراجع من جديد الى الوراء . ولكن من غير أن يخرج يده من جيبه ، كنت بعيداً بعض الشيء

عنه ، على عشرة أمتار تقريباً ، وكنت أحزر نظرته من بين أهدابه نصف المغلقة ؛ ولكن صورته كانت في أغلب الأحيان تتراقص أمام عيني ، في الهواء الملتهب . وكان هدير الأمواج ما يزال أشد كسلاً ، وأكثر تطاولاً مما كان عند الظهيرة ، كانت الشمس نفسها والأشعة نفسها على الرمل نفسه ، هي التي تتمدد هنا . وكانت ساعتان قد مضتا ومع ذلك فالنهار لم يكن ليتقدم قط . كان قد ألقى ، منذ ساعتين، المرساة في محيط من المعدن المغلي . وفي الأفق ، مرّ بخارٌ خفيف فاكتشفت منه البقعة السوداء على طرف نظري ، لأنني لم اكفّ عن النظر الى العربي .

وفكرت بأنه لم يكن لي إلا أن أقوم بنصف دورة وينتهي كل شيء . ولكن شاطئاً راعشاً من الشمس كان يزدحم خلفي برمّته . وتقدمت بضع خطوات نحو النبع فلم يتحرك العربي ، بالرغم من كل شيء ، كان ما يزال بعيداً بعض الشيء ، ربما بسبب الظلال على وجهه ، وكان يبدو عليه أنه يضحك . وانتظرت . كانت حرقة الشمس تلهب وجنتي وأحسست بقطرات عرق تتراكم في حاجبي ، لقد كانت شمس النهار نفسها التي كنت قد دفنت فيها أمي ؛ وكذلك اليوم كان جبيني بنوع خاص يؤلمني وكانت جميع شرايينه تخفق معاً تحت الجلد . وبسبب هذا الاحتراق الذي لم أكن أستطيع أن أتحمله ، قمت بحركة الى الأمام . كنت أعلم أن ذلك بليد ، وانني لن أتخلص من الشمس بتقدمي خطوة . ولكنني قمت بخطوة ، خطوة واحدة الى الامام . وهذه المرة ، ومن غير أن ينهض ، سحب العربي سكينه التي عرضها أمامي في الشمس . ولطخ النور القصدير ، فكان كشفرة طويلة لمّاعة تضربني في الجبين . وفي اللحظة ذاتها ، كان العرق المتراكم في حاجبي يسيل دفعة واحدة على الجفنين ويغطيهما بوشاح دافيء وسميك . وكانت عيناي عمياوين خلف هذا الستار من الدموع والملح . ولم أكن أحس بعد إلاّ صنوج الشمس على جبيني ، ومن دون تمييز ، حد السكين اللماع الماثل أبداً أمامي . وكان هذا السيف الملتهب يقرض أهدابي وينقب عيني المتألمتين . اذذاك ترنّح كل شيء . وبعث

البحر بلفحة سميكة ملتهبة . وخيل لي أن السماء كانت تنفتح بكل اتساعها لكي تمطر النار ، وتمدد كياني كله وشنّجت يدي على المسدس . فاستجاب نابض المسدس ، ولمست بطن الخشب المالس ، وهنا وسط الضجة الجافة والتي تصمّ الآذان في وقت معاً ، ابتدأ كل شيء : نفضت العرق والشمس ؛ وأدركت انني كنت قد هدمت توازن النهار ، وصمت شاطيء استثنائي كنت سعيداً فوقه. واذ ذاك ، طلقت أيضاً أربع مرات على جسم لا حراك فيه كانت الرصاصات تنغرز فيه من غير أن يبدو شيء عليه . وكانت أربع ضربات موجزة أطرقها على باب الشقاء .

القسم الثاني

١

بعد توقيفي مباشرة ، استجوبت عدة مرات . ولكن الاستجوابات كانت لمعرفة الهوية ولم تدم طويلاً . ففي المرة الأولى كان يخيّل اليّ في المخفر ، ان قضيتي كانت تهمّني شخصياً . وبعد ثمانية أيام ، نظر اليّ قاضي التحقيق بالعكس ، في فضول ، ولكنه ، في أول الأمر ، سألني فقط عن اسمي وعن عنواني ، وعن مهنتي ، وتاريخ ومكان ولادتي . ثم أراد أن يعرف ان كنت قد اخترت محامياً . فاعترفت ان لا ، وسألته هل من الضروري حتماً اختيار محام . فسألني « لماذا ؟ » . وأجبت انني كنت أرى قضيتي بسيطة جداً . فابتسم وهو يقول : « إن هذا رأي . ومع ذلك ، فالقانون هنا ، فان لم تختر محامياً ، عيّنا لك واحداً من المحكمة . » ووجدت أن من المريح أن تتكفّل العدالة بهذه التفاصيل . وقلت له ذلك . فوافقني وختم بأن القانون كان مصنوعاً صنعاً جيّداً .

وفي بداية الأمر لم آخذه على مأخذ الجدّ . لقد استقبلني في غرفة ذات ستائر ، وكان على مكتبه مصباح واحد كان ينير المقعد الذي أجلسني عليه، بينما ظل هو نفسه في الظل. وكان قد سبق لي أن قرأت وضعاً شبيهاً في الكتب فبدا لي ذلك كله تمثيلاً . أما بعد محادثتنا ، فقد نظرت اليه ورأيت ، على العكس مما تصورت ، رجلاً ذا ملامح دقيقة ، وعينين زرقاوين غارقتين ، وقامة

طويلة ، وشاربين رماديين وشعر غزير يكاد يكون أشيب . وبدا لي منطقياً ، وبالاجمال ، جذاباً بالرغم من بعض التشنّجات العصبية الّتي كانت تشدّ فمه حتّى اني كنت على وشك ان أمدّ له يدي وأنا خارج ، ولكني تذكرت في الوقت المناسب انني كنت قد قتلت رجلاً .

وفي اليوم التالي ، قدم محام ليراني في السجن . كان قصير القامة ممتلئاً ، شاباً تقريباً ، وشعره ممسّك بعناية وبالرغم ، من الحر (وكنت بكمّ قصير) كان يرتدي لباساً غامقاً ، وياقة منشّاة وربطة عنق غريبة ضخمة ، ذات خطوط سوداء وبيضاء، ووضع على سريري المحفظة الّتي كان يحملها تحت ذراعه، وقدّم نفسه وقال لي انه كان قد درس ملفّي . كانت قضيّتي دقيقة ، ولكنه لم يكن يشك في النجاح ، اذا أنا وثقت به . فشكرته وقال لي : « لندخل في صلب الموضوع » .

وجلس على السرير وشرح لي أن معلومات عن حياتي الخاصة كانت قد أُخذت . وعُلم ان أمي كانت قد ماتت حديثاً في المأوى . وعندها جرى تحقيق في مارنغو، وكان المفتشون قد علموا انني « كنت قد برهنت عن عدم الاحساس » يوم دفن أمي . وقال لي المحامي . « أنت تعلم ، ان سؤالي لك في هذا الموضوع يزعجني ، ولكن ذلك هام جداً . وسوف يكون حجة ضخمة للاتّهام ، اذا لم أجد شيئاً أردّ به . » وكان يود أن أساعده . وسألني ان كنت قد أحسست بالحزن في ذلك اليوم . فأدهشني هذا السؤال كثيراً، وكان يخيّل إليّ انني سأكون مرتبكاً جداً لو كان علي ان اطرحه . على اني أجبته بأنني كنت قد فقدت قليلاً عادة التساؤل، وانه يصعب علي افادته ، فمما لا شك فيه، انني كنت أحب كثيراً أمي، ولكن ذلك لم يكن يعني شيئاً . إن جميع الأشخاص الأصحاء كانوا قد تمنّوا تقريباً موت الذين كانوا يحبونهم . وهنا ، قاطعني المحامي، وبدا انه مضطرب. وحملني على أن أعده بألا أقول ذلك أمام الحضور، ولا عند قاضي التحقيق . غير أني شرحت له انه قد كانت لي طبيعة خاصة ، بحيث أن حاجاتي الجسمية كانت تزعج غالباً عواطفي. فيوم دفنت أمي ،

كنت تعباً جداً ، وكنت نعساً ، بحيث لم أستطع أن أعرف ما كان يجري ، وما أستطيع أن أقوله بكل تأكيد ، هو انني كنت أفضل لو ان أمي لم تمت . ولكن لم يبدُ على محاميّ انه كان مسروراً . وقال لي : « ان هذا لا يكفي » .

وفكّر ، وسألني ان كان يستطيع ان يقول انني في ذلك اليوم ، كنت قد سيطرت على عواطفي الطبيعية . فقلت له : « لا ، لأن ذلك غير صحيح » . فنظر اليّ بطريقة غريبة كما لو كنت أوحي له بشيء من الاشمئزاز . وقال لي بشيء من الخبث تقريباً « انه في جميع الأحوال ، سيُسمع مدير المأوى ومعاونوه كشهود، وان ذلك يمكن أن يلعب بالنسبة لي دوراً سيئاً جداً » . وجعلته يلاحظ ان هذه القصة لم يكن لها علاقة بقضيتي ، ولكنه أجابني فقط بأنه كان واضحاً انني لم يسبق لي قط أن كانت لي صلات بالعدالة .

وذهب غاضباً . كنت أود أن أمسكه ، وأن أشرح له انني كنت أرغب في مودته ، لا لكي يُدافع عني بمزيد من القوة ، بل اذا صح التعبير ، بطريقة طبيعية . وكنت أرى انني كنت أضعه موضعاً غير مريح . ولم يكن يفهمني ، وكان يحقد علي بعض الشيء. ولقد كانت بي رغبة الى ان أؤكد له انني كنت كسائر الناس ، تماماً كسائر الناس . ولكن هذا كله ، في الحقيقة ، لم يكن له فائدة كبرى ، فعدلت عنه بدافع الكسل .

وبعد وقت قصير ، اقتادوني من جديد أمام قاضي التحقيق. كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، وهذه المرة ، كان مكتبه مغموراً بأشعة كانت تتسلل من ستار من القماش الشفاف . كان الحر شديداً جداً وأجلسني ، وبكثير من الأدب ، أبلغني ان محاميّ «نتيجة لظرف معاكس» لم يستطع أن يحضر ، ولكن كنت أملك الحق بأن لا أجيب على أسئلته ، وأن أنتظر حتى يستطيع محاميّ أن يحضر . وقلت انني كنت أستطيع أن أجيب وحدي . ولامس باصبعه زراً على الطاولة . فتقدم كاتب عدل شاب ليستقر في ظهري تقريباً .

انا كلانا مسترخيان في مقعدينا . وابتدأ الاستجواب . وقال لي في بادىء الأمر انني اوصف بأني ذو طبع صموت ومغلق على ذاته ، وكان يود أن يعرف رأيي في ذلك ، فأجبت : « هذا لأنه ليس لدي أبداً شيء كثير أقوله .

واذن ، فأنا أسكت » . فابتسم كما ابتسم في المرة السابقة ، واعترف بأن ذلك خير الأسباب وأضاف : « ثم ان ذلك لا أهمية له على الاطلاق » . وصمت ، ونظر الي ، ثم استقام بطريقة فجائية بعض الشيء ليقول لي بسرعة فائقة : « ان ما يهمني ، هو أنت » . فلم أفهم جيداً ما كان يقصده بهذا الكلام ولم أجب بشيء . وأضاف : « هنالك أشياء تفوتني في قضيتك . وأنا متأكد أنك ستساعدني على فهمها . » فقلت ان كل شيء كان في غاية البساطة . واستعجلني بان أعاود وصف نهاري . فأعدت وصف ما سبق لي أن قصصته عليه : ريمون ، والشاطيء ، والحمام ، والخصام ، والشاطيء ايضاً ، والنبع الصغير ، والشمس . وطلقات المسدس الخمس . وعند كل جملة كان يقول : « حسناً » حسناً » وعندما وصلت الى الجسد الممدد ، وافق وهو يقول: « حسناً » أما أنا ، فقد اتعبني أن أعيد القصة نفسها، وكان يخيل لي انه لم يسبق لي قط ان تكلمت الى هذا الحد .

وبعد فترة صمت، نهض وقال لي انه كان يود أن يساعدني، وانني كنت اثير اهتمامه ، وأنه بعون الله ، سيفعل شيئاً من أجلي . ولكنه كان يريد ، قبل ذلك ، أن يطرح علي بعض الاسئلة الاخرى . وبلا مقدمة ، سألني ان كنت احب أبي . فقلت : « نعم كجميع الناس » . ولابد أن كاتب العدل ، الذي كان ، حتى الآن ، يضرب بانتظام على آلته ، قد اخطأ الضرب ، لأنه ارتبك وكان عليه أن يعود الى ما سبق. وسألني القاضي ، بلا منطق ظاهر دائماً ، ان كنت قد اطلقت طلقات المسدس الخمس تباعاً . وفكرت وبينت انني كنت قد اطلقت مرة واحدة في بادىء الأمر ، ثم اطلقت بعد عدة ثوان : الطلقات الأربع الاخرى . وعندها قال : « لماذا انتظرت بين الطلقة الأولى والطلقة الثانية ؟ » ومرة اخرى ، عاودني منظر الشاطيء الأحمر ، وأحسست على جبيني حرقة الشمس . ولكني ، لم أجب بشيء ، هذه المرة . وفي اثناء فترة الصمت كله التي تلت ، كان يبدو على الحاكم أنه مهتاج . لقد جلس فأخذ يلعب بشعره ، ووضع مرفقيه على مكتبه ، وانحنى قليلاً نحوي بهيئة غريبة : « لماذا ، لماذا أطلقت على جسد

متمدّد ارضاً ؟ » وهنا ايضاً ، لم أعرف أن أجيب ، وأمرّ القاضي يديه على جبينه وردّد سؤاله بصوت معتكر بعض الشيء « لماذا ؟ يجب ان تقول لي ، لماذا ؟ » وكنت أظلّ صامتاً .

ونهض فجأة ، ومشى بخطوات كبيرة نحو طرف مكتبه وفتح درجاً في خزانة كتب ، وأخرج منه مسيحاً مصلوباً من الفضة شهره وهو يعود الي . وبصوت متغيّر تماماً يكاد يكون مرتجفاً ، صرخ : « هل أنت تعرفه ، هذا ؟ » قلت : « نعم بالطبع » . وعندها قال لي بسرعة وبلهجة متحمسة انه كان مؤمناً بالله ، وان اعتقاده كان أنه ليس ثمة انسان مذنب الى حد لا يمكن لله أن يغفر له أبداً ، ولكن ذلك يتطلب من الانسان أن يغدو ، بندمه ، كطفل روحه خالية ومستعد لالتقاط كل شيء . ولقد كان جسمه كله منحنيا على الطاولة ، وكان يحرك صليبه فوقي تقريباً . والحق أقول أني لم أتابعه الا متابعة سيئة في حجته ، لأنني كنت أولاً أعاني من الحر ، ولأن ذبابات كبيرة كانت في مكتبه تستقر على وجهي ، ثم لأنه كان أيضاً يخيفني قليلاً . وكنت أعترف في الوقت نفسه أن ذلك كان مضحكاً ، لأنني كنت أنا ، بعد كل شيء ، المجرم ومع ذلك ، فقد تابع . ولقد فهمت تقريباً انه لم يكن يوجد ، في رأيه ،سوى نقطة واحدة غامضة في اعترافي . هو كوني انتظرت لأطلق طلقة المسدس الثانية . أما الباقي ، فقد كان جيداً ، ولكن هذا ، لم يكن يفهمه .

وكنت على وشك أن أقول له انه قد كان مخطئاً في اصراره : فهذه النقطة الأخيرة لم يكن لها هذه الأهمية الكبرى . ولكنه قاطعني واستحثني مرة أخيرة ، وهو منتصب بكل قامته ، يسألني ان كنت أؤمن بالله ، فأجبته أن لا . وجلس ساخطاً . وقال لي ان ذلك مستحيل ، وان جميع الناس كانوا يؤمنون بالله ، حتى الذين يحيدون عن وجهه. كانت تلك عقيدته ، وان كان عليه يوماً أن يشك بها ، فلن يكون لحياته معنى بعد . وصرخ : « هل تريد ألا يكون لحياتي معنى ؟ » وفي رأيي أن ذلك لم يكن يعنيني ولقد قلت له هذا . ولكنه كان ، عبر الطاولة ، يقرّب المسيح أمام عيني ويصرخ بطريقة لا معقولة : « أنــا

مسيحي ، وانني أطلب الغفران عن أخطائك من هذا . كيف تستطيع ألا تؤمن بأنه قد تعذب من أجلك ؟ » ولاحظت جيداً انه كان يرفع الكلفة معي ، ولكنني كنت قد تعبت من ذلك . وكانت الحرارة ترتفع شيئاً فشيئاً . وكالعادة عندما تكون بي رغبة للتخلص من شخص لا أكاد أصغي اليه ، بدا علي أنني أوافقه.ولقد انتصر ، على دهشة مني . وكان يقول : « هل ترى، هل ترى ، الست تؤمن وتريد أن تعترف له ؟ » وبالطبع ، فقد أجبت بالنفي مرة أخرى . فسقط في مقعده من جديد .

كان يبدو عليه انه متعب جداً ، وظل لحظة صامتاً بينما كانت الآلة التي ما كانت قط لتتوقف عن متابعة الحوار ، تتابع أيضاً العبارات الأخيرة . ثم نظر إلي أخيراً بانتباه وبشيء من الحزن وتمتم : « لم أر قط نفساً قاسية كنفسك ، فالمجرمون الذين مروا أمامي كانوا يبكون دائماً أمام صورة الألم هذه » . وكنت على وشك أن أجيب ان ذلك لأنهم كانوا حقاً مجرمين . ولكنني فكرت بأنني أنا أيضاً كنت مثلهم . وكانت هذه فكرة لم أكن أستطيع أن أتقبلها . وعندها نهض القاضي ، كما لو أنه كان يشير إلى ان الاستجواب قد انتهى . وسألني فقط ، بهيئته المتعبة نفسها ،ان كنت نادماً على عملي . وفكرت وقلت ، انني أحس بدل الندم الحقيقي ، نوعاً من الانزعاج . وأحسست أنه لم يكن يفهمني . ولكن في ذلك اليوم ، لم تذهب الأمور الى أبعد من ذلك .

وفيما بعد رأيت قاضي التحقيق مرات كثيرة . ولكني كنت مصحوباً بالمحامي في كل مرة . وكانا يكتفيان بأن أوضّح بعض نقاط من تصريحاتي السابقة . أو ان القاضي كان يناقش أيضاً حججي مع المحامي . ولكنهما لم يكونا في الواقع يهتمان بي أبداً في تلك اللحظات . وعلى كل حال ، فان لهجة الاستجوابات قد تغيرت شيئاً فشيئاً . وكان يبدو أن القاضي كفّ عن أن يهتم بي وانه قد بتّ في قضيتي نوعاً ما . لم يحدثني ثانية عن الله ولم أره في حالة الاهتياج التي رأيته فيها ، ذلك اليوم الاول.وكانت النتيجة ان محادثاتنا أصبحت أكثر وديّة ؛ بضع أسئلة ، وحديث طفيف مع محاميّ ، وكانت الاستجوابات تنتهي .

كانت قضيّتي تتبع مجراها ، على حد تعبير القاضي نفسه . وفي بعض الأحيان أيضاً ، عندما كان الحديث ذا طابع عام ، فقد كانا يشركانني فيه ، وكنت أبتدىء بالتنفس . فلم يكن ثمة ، في هذه الساعات ، من هو خبيث معي . كان كل شيء طبيعياً ، منظماً ، دقيقاً إلى حد اني أحسست بهذا الشعور المضحك بأني « أصبحت فرداً من العائلة » . وخلال الأحد عشر شهراً التي استغرقتها هذه التحقيقات ، أستطيع أن أقول انني كنت اكاد أندهش من انني لم أبتهج قط بشيء ابتهاجي بتلك اللحظات النادرة التي كان القاضي يقودني فيها الى باب مكتبه وهو يربت على كتفي ويقول بلهجة ودية : « يكفي اليوم ، يا سيد « ضد المسيح » . ويسلمونني آنذاك الى أيدي البوليس .

٢

هنالك أشياء لم أحبّ قط ان أتحدث عنها . حين دخلت الى السجن ، عرفت بعد بضعة أيام انني لن أحب أبداً أن أتحدث عن هذا الجزء من حياتي .

وفيما بعد ، لم أعد أجد أهمية لهذا النفور . فالواقع انني لم أوضع في السجن حقاً في الأيام الأولى : كنت أنتظر بغموض حادثاً ما جديداً ، ولكن ، بعد زيارة ماري الأول والوحيدة ، بدأ كل شيء ، فمنذ اليوم الذي تلقيت فيه رسالتها (وكانت تقول انهم لن يسمحوا لها بعد بزيارتي لأنها لم تكن زوجتي) ، منذ هذا اليوم ، شعرت انني كنت في بيتي ، وأنا في زنزانتي ، وان حياتي كانت تتوقف عندها . ويوم توقيفي حُبست باديء الأمر في غرفة كان فيها عدة موقوفين ، معظمهم من العرب . وقد ضحكوا حين رأوني . ثم سألوني ما الذي كنت قد فعلته ، فقلت انني قتلت عربياً ، فالتزموا الصمت . ولكن بعد فترة ، هبط المساء ، فشرحوا لي كيف يجب أن أرتب الحصير الذي سأنام عليه . كان يكفي أن أطوي أحد طرفيه لأجعل منه وسادة ، وطوال الليل ركض على وجهي بق كثير . وبعد أيام ، أُفردت في زنزانة كنت أنام فيها على لوح خشبي . وكان لي وعاء خشبي أستعمله كمرحاض وآنية صغيرة من

الحديد . وكان السجن في مكان مرتفع من المدينة ، ومن نافذة صغيرة ، كنت أستطيع أن أرى البحر . وحدث أن كنت يوماً أتسلق النافذة ، ووجهي ممدود نحو النور ، حين دخل عليّ حارس وقال لي ان هناك من يريد زيارتي . وفكرت انها كانت ماري . وكانت هي بالفعل .

واجتزت الى قاعة الاستقبال ممراً طويلاً ، ثم سلماً ثم ممراً آخر . ودخلت غرفة كبيرة جداً مضاءة بكوة واسعة وكانت القاعة مقسمة الى ثلاثة أقسام بحاجزين كبيرين كانا يقسمانها طولاً . وبين الحاجزين كان ثمة مسافة تتراوح بين الثمانية والعشرة أمتار تفصل بين الزوار والمسجونين . ورأيت ماري تواجهني بثوبها المخطط ووجهها المسمّر. ولقد كان الى جانبي عشرة من الموقوفين ، كان أغلبهم من العرب . وكانت ماري محاطة بالمغاربة ، ووُجدت بين زائرتين : عجوز قصيرة مزمومة الشفتين متشحة بالسواد ،وامرأة ضخمة حسيرة الشعر كانت تتكلم بصوت مرتفع وبكثير من الحركات . وبسبب المسافة بين الحواجز ، كان الزائرون والمسجونون مضطرين للتحدث بصوت عال جداً ، وعندما دخلت ، كان ضجيج الأصوات التي كانت تتصادى على جدران الغرفة العالية العارية ، والأشعة الفجة التي كانت تسيل من السماء على الزجاج وتنفجر في الغرفة ، كانا يحدثان لي نوعاً من الدوار . لقد كانت زنزانتي أوفر هدوءً واكثر عتمة . وكان يلزمني بضع ثوان لاعتاد ذلك . ومع ذلك ، فقد انتهيت بأن رأيت كل وجه بوضوح ، في غمرة النهار . ولاحظت ان حارساً كان يجلس عند طرف الممر بين الحاجزين . وكان معظم المسجونين العرب كعائلاتهم أيضاً يجلسون القرفصاء وجهاً لوجه . ولم يكن هؤلاء يصرخون . وبالرغم من الضجيج ، فقد كانوا يتوصلون الى أن يسمع بعضهم بعضاً وهم يتحدثون بصوت منخفض جداً . وكان همسهم الأصم ، المنطلق من تحت ، يشكل نوعاً من الترجيع المتواصل للاحاديث التي كانت تنعقد فوق رؤوسهم . لقد لاحظت هذا كله بسرعة وأنا أتقدم نحو ماري . كانت ملتصقة بالقضبان ، وكانت تبتسم لي بكل قواها . وقد وجدتها جميلة

جداً ولكنني لم أعرف ان أعبّر لها عن ذلك .
وقالت لي بصوت مرتفع جداً : — واذن ؟
— واذن ، هأنذا .
— هل أنت مرتاح ، هل لديك كل ما تريد ؟
— نعم كل شيء .
وصمتنا ، وكانت ماري ما تزال تبتسم . وكانت المرأة الضخمة تصرخ نحو جاري ، زوجها من غير شك ، وكان رجلاً أشقر صريح النظرات . كانت تلك تتمة حديث سبق ان ابتدأ
كانت تصيح بصوت عال : — ان جان لم تقبل أن تأخذه .
فيجيب الرجل : — نعم ، نعم ..
— وقلت لها انك ستأخذه حين تخرج ، ولكنها لم ترض أن تأخذه .
وصرخت ماري من جهتها ان ريمون يسلم عليّ فقلت : « شكراً » . ولكن صوتي قد غطى عليه صوت جاري الذي سأل : « هل كان في صحة جيدة » . فضحكت امرأته وهي تقول : « انه لم يسبق له قط ان كان بمثل تلك الصحة » . وأما جاري من جهة اليسار ، وهو شاب قصير ناعم اليدين ، فلم يكن يقول شيئاً . ولاحظت أنه كان مقابل العجوز القصيرة ، وان كليهما كان ينظر الى الآخر بحدة . ولكنني لم أجد الوقت لأتأملهما أكثر من ذلك ، لأن ماري صرخت بي بأنه يجب على المرء أن يأمل . وقلت : « نعم » وفي الوقت نفسه كنت أنظر اليها وكانت تأخذني الرغبة في أن أضمّ كتفها من فوق ردائها ، وكنت أشتهي هذا القماش الناعم . ولم أكن أعرف جيداً ماذا ينبغي أن آمل فيما عدا ذلك ، ولكن ذلك كان بلا شك ما كانت ماري تعنيه لأنها كانت ما تزال تبتسم ، ولم أكن أرى بعد سوى تألق أسنانها وثنيات عينيها الصغيرة . وصرخت من جديد : « ستخرج وسوف نتزوج . » فأجبت : « هل تظنين ذلك ؟ » ولكن ذلك كان لمجرد أن أقول شيئاً . وعندها قالت بسرعة فائقة وبصوت مرتفع ان نعم ، وانني سوف أبرّأ وسنستحم أيضاً .

ولكن المرأة الأخرى كانت تصيح من جهتها ، وكانت تقول انها كانت قد تركت سلة في قلم المحكمة . وكانت تعدد كل ما كانت قد وضعت فيها . وكان يجب التحقيق في هذا ، لأن ذلك كله كان يكلف غالياً . وكان جاري الآخر وأمه ما يزالان يتبادلان النظرات . وكان همس العرب يستمر من تحتنا . وفي الخارج بدت الشمس وكأنها تنتفخ عند الكوّة .

وكنت أحسني مريضاً بعض الشيء ، وكنت أود أن أذهب . كان الضجيج يؤلمني . ولكني من جهة أخرى ، كنت أود أن أنعم بعد بحضور ماري . ولا أدري كم من الوقت انقضى. وحدّثتني ماري عن عملها وكانت تبتسم بلا انقطاع . وكان الهمس ، والصرخات ، والمحادثات تتصادم . وكانت جزيرة الصمت الوحيدة تقبع على جانبي في هذا الشاب القصير وهذه العجوز اللذين كانا يتبادلان النظرات . وبعد قليل ، إقتيد العرب . فصمت الجميع تقريباً منذ أن خرج أول واحد منهم . واقتربت العجوز القصيرة من القضبان ، وفي الوقت نفسه ، أشار حارس لابنها . فقال : « الى اللقاء ، يا أمي . » وأمرّت يدها بين قضيبين لتشير اليه بحركة صغيرة بطيئة ومتصلة .

وذهبت بينما دخل رجل ، واتخذ مكانها وهو يحمل قبعته في يده . ودخل مسجون فأخذا يتبادلان الحديث ، بحيوية ، ولكن بصوت منخفض ، لأن القاعة كانت قد استعادت صمتها . وأتى من اقتاد جاري من جهة اليمين فقالت له زوجته من غير أن تخفض صوتها كما لو انها لم تكن قد لاحظت انه لم يعد من داع لصراخ : « أعتن بنفسك . وانتبه » . ثم أتى دوري . وقامت ماري باشارة تعني انها كانت تقبلّني والتفتّ قبل أن أختفي . كانت ما تزال جامدة ، ووجهها منسحق على القضبان وعلى شفتيها الابتسامة الممزقة المتشنجة نفسها .

وبعد فترة قصيرة ، كتبت لي . وابتداء من هذه اللحظة ابتدأت الأشياء التي لم اكن أحب قط التحدث عنها . وعلى كل حال يجب ألا نبالغ بشيء . وقد كان ذلك أسهل بالنسبة لي من الآخرين . على أن أقسى ما في الأمر ، هو

اني ، في بدء توقيفي ، كانت لي أفكار رجل حر . من ذلك مثلاً ان الرغبة كانت تأخذني في أن أكون على شاطيء وفي أن أهبط الى البحر . وكان يكفي أن أتخيل صوت الموجات الأولى تحت باطن قدمي ، وانزلاق الجسد في الماء والخلاص الذي كنت أجده في ذلك ، حتى كنت أشعر دفعة واحدة كم كانت جدران سجني متقاربة . ولكن ذلك استمر بضعة أشهر . وبعد ذلك لم تكن لدي سوى أفكار سجين . كنت أنتظر النزهة اليومية التي كنت أقوم بها في الساحة ، أو زيارة محامي . وكنت أتدبّر أمري جيداً فيما يبقى من وقتي . وفكرت كثيراً آنذاك انهم لو وضعوني أعيش في جذع شجرة يابسة ، من غير أن يكون لديّ ما يشغلني سوى النظر في زهرة السماء فوق رأسي ، لأعتدت ذلك شيئاً فشيئاً . كنت سأنتظر مرور طيور او التقاءات غيوم كما كنت أنتظر هنا ربطات عنق محاميّ التي تثير الفضول ، أو كما كنت أتصبّر ، في عالم آخر ، حتى يوم السبت لأضم جسد ماري . وعند التفكير العميق ، تبين لي انني لم أكن أعيش في جذع شجرة يابسة. كان هناك من هم أشقى مني . وعلى كل حال كانت تلك فكرة أمي ، وكانت ترددها غالباً ان المرء ينتهي بأن يعتاد على كل شيء .

ثم انني لم أكن استرسل في العادة الى هذا الحد.فالأشهر الأولى كانت قاسية، ولكن المجهود الذي كان علي أن أقوم به كان يعين على انقضائها . فقد كان يعذبني مثلاً ، اشتهاء امرأة ، وكان ذلك طبيعياً . فلقد كنت شاباً . ولم أكن أفكر بماري بنوع خاص . ولكنني كنت أفكر بقوة في امرأة ، في نساء ، في جميع النساء اللواتي كنت قد عرفتهن ، وبجميع المناسبات التي كنت قد أحببتهن فيها ، حتى ان زنزانتي كانت تمتليء بجميع الوجوه وتعمر برغباتي . وكان ذلك من جهة يفقدني توازني ، ولكنه من جهة أخرى ، كان يقتل الوقت . ولقد انتهيت أخيراً بأن كسبت ود رئيس الحرس الذي كان يصحب ، في ساعة الطعام ، صبيّ المطبخ . انه هو الذي حدثني ، في باديء الأمر عن النساء . وقال لي انه الشيء الأول الذي كان يشكو منه الآخرون . وقلت له انني

كنت مثلهم واني كنت أجد هذه المعاملة غير عادلة . ولكنه قال لي : « ولكن، انهم من أجل ذلك بالذات يضعونكم في السجن » . — «كيف ، من أجل ذلك ؟ » — « أجل! الحرية هي هذه،انهم يحرمونكم الحرية » . ولم يكن قد سبق لي قط أن فكرت بذلك . فوافقته . وقلت له : « هذا صحيح . والا فأين يكون العقاب ؟ » — « أجل ، انك تفهم الأشياء ، أنت. أما الآخرون فلا . ولكنهم ينتهون بأن يعزّوا أنفسهم » . ثم ذهب الحارس بعد ذلك .

وكانت هنالك أيضاً السجائر . فعندما دخلت السجن ، أخذوا مني حزامي ، سيور حذائي ، وربطة عنقي وكل ما كنت أحمله في جيوبي ، وسجائري بنوع خاص . وحين دخلت زنزانتي ، طلبت أن يردّوها لي . ولكنهم قالوا لي ان ذلك ممنوع . وكانت الأيام الأولى قاسية جداً . ولعل هذا أكثر ما أرهقني . كنت أمصّ قطعاً من الخشب كنت أنتزعها من لوحة سريري . وكنت أحمل طوال النهار غثياناً أبدياً . ولم أكن أفهم لماذا يحرمونني من هذا الذي لا يسبب سوءاً لاحد . وفيما بعد ، فهمت أن ذلك كان يشكل جزءاً من العقاب أيضاً . ولكن في تلك اللحظة ، كنت قد تعودت على أن لا أدخن ، وهذا العقاب لم يكن عقاباً بعد بالنسبة لي .

وفيما عدا هذه الازعاجات ، لم أكن تعيساً أكثر مما ينبغي . فالمشكلة كلها كانت تتخلص ، مرة أخرى ، في قتل الوقت . وانتهيت بالقضاء على الضجر منذ اللحظة التي تعلمت فيها أن أتذكر . وكنت أحياناً آخذ في التفكير بغرفتي ، وفي الخيال ، كنت أذهب من زاوية لأعود اليها وأنا أعدد في ذهني كل ما كان يوجد في طريقي . ولقد تمّ ذلك بسرعة باديء ذي بدء . ولكن ، في كل مرة كنت أعيد فيها التعداد ، كان الوقت يطول أكثر من قبل . ذاك اني كنت أتذكر كل قطعة أثاث،وما كان في كل منها من حاجات ، وفي كل حاجة ما كان هناك من تفاصيل ، وفي التفاصيل نفسها ، ما كان هناك من نقش أو شقّ أو جانب فاسد ، وألوانها أو حبّاتها . وفي الوقت نفسه ، كنت أحاول ألاّ أفقد خيط جردتي ، وأن أقوم بتعداد كامل . بحيث اني

بعد بضعة أسابيع ، كان بامكاني ان أقضي ساعات برمتّها لا أفعل الا أن احصي ماكان موجوداً في غرفتي . وهكذا ، كلما أمعنت في التفكير ، خرجت من ذاكرتي أشياء منسية . وأدركت آنذاك ان بوسع انسان لا يعيش الا يوماً واحداً أن يعيش بلا مشقة مئة عام في سجن . ستكون أمامه ذكريات كافية لتبعد عنه السأم . وكانت هذه مزيّة ، في معنى من المعاني .

وكان هناك النوم كذلك . كنت في أول الأمر أنام نوماً مؤرّقاً في الليل ، ولا أنام في النهار قط . ورويداً رويداً ، تحسّنت لياليّ ، واستطعت أن أنام في النهار ايضاً . وأستطيع القول انني كنت في الأشهر الأخيرة أنام من ست عشرة الى ثماني عشرة ساعة كل يوم . وكان يبقى لي آنذاك ست ساعات أقضيها في تناول الطعام وفي الحاجات الطبيعية ومع ذكرياتي وقصة التشيكوسلوفاكي .

والواقع اني عثرت ، ما بين فراشي من القش وخشب السرير ، على قصاصة جريدة قديمة ملصقة تقريباً بالقماش ، وقد اصفرّ لونها وشفّت . وكانت تسرد حادثاً كانت بداءته ناقصة ، ولكن لا بدّ انه قد جرى في تشيكوسلوفاكيا . انها قصة رجل غادر قرية تشيكية سعياً وراء الثروة . وبعد خمس وعشرين سنة عاد غنياً بصحبة زوجة وابن . وكانت أمه تدير فندقاً مع أختها في مسقط رأسه . ولكي يفاجئهما ، كان قد ترك زوجته وابنه في مؤسسة أخرى ، وقصد الى أمه التي لم تعرفه حين دخل عليها . وعلى سبيل المزاح ، خطر له أن يأخذ غرفة في الفندق ، فأراها ماله . وفي الليل قتلته أمه وأختها بمطرقة حديدية لتسرقاه ، ورمتا بجسمه في النهر . وفي الصباح ، أقبلت الزوجة ، وكشفت ، من غير أن تعرف بالحادث ، عن هوية المسافر . وشنقت الأم نفسها ، وألقت الأخت بنفسها في بئر . وكان لا بدّ لي من ان أقرأ هذه القصة آلاف المرات . لقد كانت من جهة ، غير محتملة الوقوع ، وكانت من جهة أخرى طبيعية . واياً ما كان ، فقد كنت أجد أن المسافر قد استحق ما أصابه بعض الاستحقاق ، وان على المرء ألاّ يمثّل أبداً .

وهكذا انقضى الوقت ، بين ساعات النوم ، والذكريات ، وقراءة

حادثي ، وتناوب النور والظلمة . وكان قد سبق لي ان قرأت إن السجين ينتهي به الأمر الى فقدان فكرة الزمن . ولكن ذلك لم يكن ذا معنى كبير بالنسبة لي . انني لم أكن قد فهمت الى أي حد يمكن للنهارات ان تكون في وقت واحد طويلة وقصيرة . انها بلا شك طويلة على أن تُعاش ، ولكنها من شدة التوتر بحيث تنتهي الى أن يطفو بعضها على البعض الآخر . وهي في ذلك تفقد اسمها . وكانت كلمتا أمس أو غداً الكلمتين الوحيدتين اللتين كانتا تحتفظان في رأيي بمعنى .

وحين قال لي الحارس يوماً انه قد انقضى عليّ خمسة أشهر وأنا هناك ، صدّقته ، ولكنني لم أفهمه . ففي نظري ، كان هو بلا انقطاع اليوم نفسه الذي كان ينتشر في زنزانتي والمهمة نفسها التي كنت أتابعها . وفي ذلك اليوم ، بعد ذهاب الحارس ، نظرت الى نفسي في إنائي الحديديّ . وخيّل إليّ أن صورتي كانت تبقى جادّة ، حتى حين كنت أحاول أن أبسم لها . وقد حركتها أمامي . وابتسمت ، فاحتفظت بهيئتها الصارمة الحزينة . وكان النهار يلفظ أنفاسه ، وكانت تلك الساعة التي لا أريد ان أتحدّث عنها ، الساعة التي لا اسم لها ، حين يرتفع ضجيج المساء من جميع طوابق السجن في موكب من الصمت . واقتربت من الكوة ، وعلى ضوء النهار الأخير ، تأمّلت صورتي مرة أخرى . كانت ما تزال جادّة . وما الذي يُدهش في ذلك ، ما دمت أنا أيضاً جادّاً ، في تلك اللحظة ؟ ولكن في الوقت نفسه ، وللمرة الأولى منذ أشهر ، سمعت بكل وضوح رنّة صوتي . وعرفت فيه ذلك الصوت الذي كان يرنّ منذ أيام طويلة في أذنيّ ، وأدركت انني قد تحدّثت وحدي ، طوال هذا الوقت . وتذكرت اذذاك ما كانت تقوله الممرضة بمناسبة دفن أمّي . لا ، لم يكن ثمة من مخرج ، ولا يستطيع أحد أن يتصوّر ما عساها تكون الأمسيات في السجون .

٣

أستطيع أن أقول ان الصيف قد حلّ سريعاً محل الصيف ، في حقيقة الأمر . وكنت أعلم أن شيئاً ما جديداً بالنسبة لي سيحدث مع انتشار الحرارة الأولى . كانت قضيتي مسجلة في الدورة الأخيرة ، بمحكمة الجنايات ، وستنتهي هذه الدورة في شهر حزيران . وقد إفتُتحت المرافعات والشمس ، في الخارج ، في إبّانها . وكان محاميّ قد أكّد لي انها لن تستمر أكثر من يومين أو ثلاثة . وأضاف : « والواقع أن المحكمة ستكون مستعجلة ، لأن قضيتك ليست هي أهم قضايا الدورة . فان هناك حادثة قتل أبوي سينظر فيها فوراً بعد قضيتك . »

وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً جاؤوا يصحبونني فحملتني ، سيارة السجن الى قصر العدل ، وأدخلني الدركيان في قاعة صغيرة كانت تنبعث منها رائحة الظل . وكنا قد انتظرنا ، جالسين قرب باب كان يُسمع من خلفه أصوات ونداءات وضجيج كراسي وضروب أخرى من الحركة جعلتني أفكر بتلك الحفلات التي تجري في الأحياء والتي تُنظم فيها القاعة ، بعد الحفلة ، ليتمكن الحضور من الرقص . وقال لي الدركيان انه كان ينبغي ان ننتظر هيئة المحكمة وقدّم لي أحدهما سيجارة رفضتها ، وسألني فيما بعد :

« اذا كنت أشعر بالخوف » . فاجبت : « أن لا » بل انه كان يهمني ، على نحو ما ، أن أشاهد محاكمة . فانه لم يُتيح لي قط في حياتي مثل ذلك . وقال الدركي الآخر : « نعم ، ولكن ذلك يُتعب ، في نهاية الأمر » .

وبعد وقت طويل ، دق جرس صغير في القاعة ، فنزعوا مني آنذاك الأغلال وفتحوا الباب وأدخلوني في قفص المتهمين . وكانت القاعة غاصة حتّى لتنفجر . وبالرغم من الستائر ، كانت الشمس تتسلل من بضعة ثقوب ، وكان الهواء قد أصبح خانقاً ، وكانوا قد تركوا الزجاج مقفلاً . وقد جلست فاحتاطني الدركيان ، وفي تلك اللحظة ، لمحت صفاً من الوجوه أمامي . كان الجميع ينظرون الي : فأدركت انهم كانوا القضاة . ولكني لا أستطيع أن أقول ما الذي كان يميّزهم بعضهم عن بعض . لم يأخذني الا انطباع واحد : كنت أمام مقعد ترام ، وكان جميع هؤلاء المسافرين الغفل يراقبون القادم الجديد ليلاحظوا تفاصيله المضحكة . وكنت أعلم جيداً انها كانت فكرة ساذجة لأن ما كانوا يبحثون عنه هنا ، لم يكن الشيء المضحك ، وانما كان الجريمة . على أن الفرق ، مع ذلك ، لم يكن كبيراً . وعلى كل حال ، كانت هذه هي الفكرة التي راودتني .

وكنت شارداً بعض الشيء أيضاً من جراء هذا الجمع الغفير في تلك القاعة المقفلة . وقد نظرت مرة أخرى الى المحكمة فلم أميّز أي وجه ، وأعتقد جيداً انني لم أدرك أولاً أن الجميع كانوا يتزاحمون لرؤيتي . ان الناس ، في العادة ، لم يكونوا يهتمون بشخصي . وقد لزمني بعض الجهد لأفهم انني كنت سبب هذا الاضطراب كله . وقلت للدركي : « ما أكثر الناس ! » . فأجابني ان ذلك كان بسبب الصحف ، وأراني فريقاً كان يقوم بالقرب من طاولة تحت مقعد القضاة وقال لي : « ها هم أولاء » فسألت : « من ؟ » فكرر : « الصحف » . وكان يعرف واحداً من الصحافيين رآه في تلك اللحظة واتجه نحونا . كان رجلاً مسناً ، قريباً الى النفس ، ذا وجه لا يخلو من تكشير . وقد شدّ يد الدركي في كثير من الحرارة . ولاحظت في تلك اللحظة ان الجميع

كانوا يتلاقون ويتادون ويتحدثون كما لو أنهم في نادٍ يحس المرء فيه السعادة أن يجد نفسه بين أناس ينتمون الى وسط واحد . وقد شرحت لنفسي أيضاً الانطباع الغريب الذي أحسسته باني زائد على اللزوم ، دخيل بعض الشيء . ومع ذلك ، فقد توجه الصحفي الي وهو يبتسم . وقال انه كان يأمل أن يجري كل شيء في مجراه الحسن بالنسبة لي . فشكرته ، وأضاف : « لقد شهرنا قضيتك بعض الشيء ، كما تعلم ، ان الصيف ، هو الموسم الأجوف بالنسبة للصحف ،ولم يكن ثمة الا قصتك وقصة القتل الأبوي ،مما كان له بعض قيمة . » وأومأ بعد ذلك الى رجل قصير في الفريق الذي تركه ، كان يشبه ابن عرس مسمّناً يضع نظارتين ضخمتين محاطتين بسواد . وقال لي انه كان مبعوثاً خاصاً لجريدة من باريس : « الواقع انه لم يأت من أجل ذلك،ولكنه كُلّف بأن يقدم تقريراً عن دعوى القتل الأبوي ، فطُلب اليه أن يكتب عن قضيتك في الوقت نفسه » . وهنا أيضاً كدت أن أشكره . ولكني فكرت بأن ذلك سيكون مضحكاً . وقد أومأ لي بيده إيماءة ودية وتركنا ثم انتظرنا بضع دقائق أخرى .

ووصل محاميّ ، في ثوبه ، يحيط به كثير من زملائه ، واتجه نحو الصحافيين وشدّ على بعض الأيدي . وقد تمازحوا وضحكوا وبدا عليهم انهم مسرورون تماماً . حتى اللحظة التي دق فيها الجرس في المحكمة . وعاد الجميع إلى أمكنتهم. وأقبل محاميّ عليّ فشد يدي ونصحني بأن أجيب في اختصار على الأسئلة التي ستطرح علي ، والا آخذ أية مبادرة ، وأن أعتمد عليه فيما عدا ذلك .

وإلى يساري سمعت ضجة كرسي كان أحدهم يُرجعها الى خلف ، ورأيت رجلاً طويلاً هزيلاً يرتدي ثوباً أحمر ويضع نظارة على احدى عينيه ويجلس وهو يثني ثوبه في عناية : لقد كان المدعي للعام . وأعلن حاجب دخول هيئة المحكمة . وفي اللحظة نفسها بدأت مروحتان كبيرتان تضجّان ، ودخل ثلاثة قضاة ،اثنان يرتديان السواد والثالث الأحمر ، يحملون اضبارات ، ومشوا بسرعة نحو المنصة التي كانت تشرف على القاعة . وجلس الرجل ذو

الثوب الأحمر في الأريكة الوسطى واضعاً قلنسوته أمامه ، ماسحاً رأسه الصغير الأصلع بمنديل ، وأعلن أن الجلسة قد افتتحت .

وكان الصحافيون قد أمسكوا بأقلامهم . وكانت تبدو عليهم جميعاً هيئة اللامبالاة التي لا تخلو من مكر ، غير أن أحدهم ، وكان يبدو أصغر سناً منهم ، ويرتدي ثوباً من الفلانيل الرمادي وربطة عنق زرقاء ، كان قد ترك قلمه أمامه وجعل ينظر اليه ،ولم أكن أرى في وجهه اللامتناسق بعض الشيء الا عينين صامتتين جداً كانتا تتفحصانني بدقة من غير أن تعبرا عن شيء قابل للتحديد . وأخذني شعور عجيب باني انما كنت أنظر الى نفسي . ولعلي من أجل ذلك ، ولأني أيضاً لم أكن أعرف عادات المكان ، لم أفهم جيداً كل ما حدث بعد ذلك ، لا اقتراع القضاة ، ولا الاسئلة التي طرحها الرئيس على المحامي والمدعي العام والمحكمة (كانت جميع رؤوس القضاة تلتفت كل مرة ، وفي الوقت نفسه ، نحو المحكمة) والقراءة السريعة لنص الاتهام ، وفيها سمعت أسماء وأمكنة وأشخاصاً كنت أعرفهم وأسئلة جديدة موجهة لمحاميّ .

ولكن الرئيس قال انه كان ينبغي دعوة شهود . فقرأ الحاجب اسماء جذبت انتباهي . وفي قلب الجمهور الذي لم يكن له شكل الى تلك الساعة ، رأيت مدير المأوى وبوابه ، وتوماس بيريز العجوز وريمون وماسون وسالامانو وماري يقفون واحداً بعد الآخر ليختفوا بعد ذلك من باب جانبي . وقد اومأت ماري لي ايماءة قلقة . وكنت ما أزال مندهشاً اني لم ألمحهم قبل ذلك حين نهض آخرهم سلست اذ نودي باسمه . ورأيت الى جانبه امرأة المطعم القصيرة بسترتها وهيئتها الدقيقة العازمة . وكانت تنظر الي نظرة كثيفة . ولكن لم يُتح لي الوقت للتفكير اذ بدأ الرئيس الكلام . وقال ان المناقشات الحقيقية ستبدأ وانه يظن من اللامجدي توصية الجمهور بأن يكون هادئاً . وقد كان قائماً هناك ، على حسب قوله ، ليترأس ، في غير ما تحيّز ، مناقشات قضية كان يريد أن ينظر اليها نظرة موضوعية . وسوف يؤخذ قرار

المحكمة في روح من العدالة . وهو ، في جميع الأحوال سيخلي القاعة لدى أقل حادث .

كانت الحرارة ترتفع . وكنت أرى الحضور في القاعة يتروحون بالصحف . وكان ذلك يحدث ضجة خفيفة متصلة من الورق المدعوك . وأومأ الرئيس إيماءة ، فجاء الحاجب بثلاث مراوح من القش المجدول ، استعملها القضاة الثلاثة على التوالي . وسرعان ما بدأ استجوابي . وقد سألني الرئيس في هدوء ، بل في لهجة من الود ، كما خيّل الي . وطلبوا مني مرة أخرى أن أشرح هويتي ، وبالرغم من انزعاجي فكرت بأن من الطبيعي جداً ، في حقيقة الأمر ، أن يُطلب مني ذلك ، لأنه سيكون خطيراً أكثر مما ينبغي أن يُحكم على رجل بدلاً من آخر ، ثم كرّر الرئيس قصة ما كنت قد قمت به ، وهو يتوجه الي بعد كل ثلاث عبارات ليسألني : « أليس كذلك ؟ » وقد أجبت في كل مرة : « بلى ، يا سيدي الرئيس » حسب تعليمات محامي . وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً لأن الرئيس كان يضمّن سرده كثيراً من الدقة . وفي هذه الأثناء كلها كان الصحافيون يكتبون ، وكنت أحس بنظرات أصغرهم سناً ونظرات التمثال الصغير . وكان مقعد الترام مستديراً كله نحو الرئيس . وقد سعل هذا ، وقلب أوراق أضبارته ، والتفت نحوي وهو يتروح .

وقال لي ان عليه الآن أن يباشر أسئلة ظاهرها انها غريبة عن قضيتي ولكن ربما كانت تمسها عن كثب . وفهمت انه سيتحدث أيضاً عن أمي ، وشعرت في الوقت نفسه كم كان ذلك يضايقني . وقد سألني لماذا كنت قد وضعت أمي في المأوى . فأجبت بأن ذلك قد حدث لأنه كان يعوزني المال لكي أحتفظ وأعنى بها . وسألني اذا كان ذلك قد كلفني شخصياً . فأجبت بأنني أنا وأمي لم يكن أحدنا ينتظر شيئاً من الآخر بعد ، ولا من أي انسان ، واننا كنا ، نحن الاثنين قد ألفنا حياتينا الجديدتين ، فقال الرئيس عند ذلك ، انه لم يكن يريد أن يُلحّ على هذه النقطة ، وسأل المدعي العام عما اذا لم يكن لديه سؤال آخر

يطرحه علي .

وكان هذا الأخير يوليني نصف ظهره ، وقد صرّح ، من غير أن ينظر اليّ ، بأنه يود ، مع إذن الرئيس ، لو يعلم اذا كنت قد عدت نحو النبع وحدي وفي نيّتي أن أقتل العربي . فقلت : « لا » .

-- اذاً لماذا كان قد تسلح ، وما سبب العودة نحو هذا المكان بالذات ؟

وقلت انها مجرد مصادفة . فقال المدعي في لهجة استياء : « هذا كل ما نحتاجه الآن » . وبعد ذلك اختلط كل شيء ، بالنسبة لي على الأقل . ولكن بعد بضع مشاورات أعلن الرئيس رفع الجلسة وارجاءها الى ما بعد الظهر للاستماع الى الشهود .

لم يُتح لي الوقت للتفكير . لقد اقتادوني ، وأصعدوني سيارة السجن ، وأخذوني الى السجن حيث أكلت . وبعد وقت قصير جداً ، لم أحس فيه بأكثر من أنني كنت متعباً ، عادوا بأخذوني ؛ وعاد كل شيء من جديد ، ووجدتني في القاعة نفسها أمام الوجوه نفسها . غير أن الحرارة كانت أشد كثيراً . وكان كل من القضاة والمدعي ومحاميّ وبعض الصحفيين مزوداً بمراوح من قش، كما لو أن ذلك حدث بمعجزة . وكان الصحفي الشاب والمرأة القصيرة حاضرين أيضاً . ولكنهما لم يكونا يتروحان، وكانا ما يزالان ينظران الي من غير أن ينبسا بكلمة .

ومسحت العرق الذي كان يغطّي وجهي . ولم أستعد وعي بالمكان وبنفسي الا حين سمعت صوتاً ينادي مدير المأوى . وقد سئل هل كانت أمي تشكو مني ، فقال أن نعم ، ولكن الشكوى من الأقارب كانت عادة نزلائه . وسأله الرئيس أن يوضح هل كانت تشكواني وضعتها في المأوى، فأجاب المدير أيضاً بالايجاب . ولكنه لم يُضف هذه المرة شيئاً آخر . وعلى سؤال آخر ، أجاب بأنه أصيب بالدهشة من هدوئي في يوم الدفن . فسئل عما كان يعنيه بهدوء، واذاك نظر المدير الى طرف حذائه وقال اني لم ارد أن ارى أمي ولم أبك مرة واحدة، واني ذهبت بعد الدفن فوراً من غير ان أركع أمام قبرها . وكان شيء

آخر قد أدهشه ايضاً : وهو أن عاملاً من عمال موكب الدفن كان قد قال له إني لم أكن أعرف عمر أمي. وقد رانت لحظة صمت وسأله الرئيس عما اذا كان قد تحدث عني أنا بالذات . واذ لم يفهم المدير السؤال قال له : « انه القانون » . ثم سأل الرئيس المدعي العام عما اذا لم يكن لديه سؤال يطرحه على الشاهد ، فصاح المدعي : « اوه ، لا ، ان هذا يكفي » ، بلهجة وبنظرة منتصرة وجهها الي بحيث اني أخذتني رغبة بليدة ، للمرة الأولى منذ سنوات عديدة ، بأن أبكي ، لأني شعرت كم كنت محتقراً من قبل هؤلاء الناس جميعاً .

وبعد أن سأل الرئيس القضاة ومحامي اذا كانت لديهم أسئلة يطرحونها، استمع الى الحاجب . وقد تكررت بالنسبة له الشكليات نفسها التي تكررت بالنسبة للآخرين . وقد نظر الي الحاجب لدى وصوله وأشاح بعينيه . وأجاب على الأسئلة التي كانت تُطرح عليه . وقال اني لم أرد أن أرى أمي ، واني دخنت ، واني نمت ، واني تناولت قهوة بالحليب . وشعرت آنذاك بشيء يثير القاعة كلها،وفهمت للمرة الأولى اني كنت مذنباً . وطُلب من الحاجب أن يُعيد قصة القهوة بالحليب وقصة السيجارة . ونظر الي المدعي العام وفي عينيه شعاع سخرية . وفي تلك اللحظة سأل محامي الحاجب عما اذا لم يدخن معي . ولكن المدعي عارض معارضة عنيفة طرح هذا السؤال : « من هو المجرم هنا ، وما هذه الطرق التي تتلخص بتلطيخ شهود الاتهام للتقليل من قيمة الشهادات التي تبقى مع ذلك دامغة ساحقة » ! وبالرغم من كل شيء طلب الرئيس من الحاجب أن يجيب على السؤال ، فقال العجوز بلهجة ارتباك : « أنا أعلم جيداً اني أخطأت . ولكني لم أجرؤ على رفض السيجارة التي قدمها لي السيد » . وسئلت أخيراً عما اذا لم يكن لدي شيء أضيفه ، فأجبت : « لا شيء ، سوى ان الشاهد على حق . صحيح اني قدمت له سيجارة » . واذ ذاك نظر الي الحاجب في شيء من الدهشة وفي شيء من العرفان وتردد، ثم قال انه هو الذي قدم لي القهوة بالحليب . فانتصر محامي بصخب وصرح بأن القضاة سيقيمون هذا التفصيل . ولكن المدعي العام زعق فوق رؤوسنا وقال :

« نعم . ان السادة القضاة سيقيّمون وسينتهون الى أن غريباً ما يستطيع أن يعرض قهوة ولكن كان ينبغي على ابن ان يرفض ذلك وهو أمام جسم التي أعطته الحياة » . وعاد الحاجب الى مقعده .

وحين اتى دور توماس بيريز كان لابد لحاجب من أن يسنده حتى الحاجز . وقال بيريز انه قد سبق له خاصة أن عرف أمي ولم يرني إلا مرة واحدة ، يوم الدفن . وسئل عما فعلته ذلك اليوم فأجاب : « لقد كنت اشعر بمشقة اعمق مما ينبغي فلم ارَ شيئاً . وكانت المشقة هي التي تمنعني من أن أرى . والحق أنها كانت بالنسبة لي مشقة كبيرة حتى انني قد أُغمي عليّ ، فلم أستطع أن أرى السيد » . وسأله المدعي العام عما إذا كان رآني ابكي على الأقل . فأجاب بيريز ان لا . وقال المدعي إذ ذاك بدوره : « ان السادة القضاة سيقدرون ذلك » . ولكن محاميّ غضب ، فسأل بيريز بلهجة بدت لي مبالغاً فيها : « هل رأى انني لم اكن ابكي ؟ » فقال بيريز « لا » وضحك الجمهور . وقال محامي بلهجة جازمة ، وهو يشمّر احد كميّه : « تلك هي صورة تلك الدعوى ، كل شيء صحيح ، وليس ثمة ما هو صحيح ! » وكان وجه المدعي العام مغلقاً ، وكان يشك قلماً في عناوين اضباراته .

وبعد خمس دقائق من الاستراحة قال لي فيها محامي : ان كل شيء يسير على ما يرام ، سُمع سيلست الذي ذكره الدفاع . والدفاع ، كان انا . وكان سيلست يُلقي من وقت لآخر نظرات باتجاهيّ ويقلب قبعة طرية بين يديه . وكان يرتدي الثوب الجديد الذي كان يرتديه ليذهب معي ، في بعض أيام الأحد ، الى سباق الخيل . ولكني اعتقد أنه لم يستطيع أن يضع ياقته لأنه كان يكتفي بزر نحاسي واحد يمسك قميصه المغلق . وسئل عما إذا كنت زبونه فقال : « نعم ، ولكنه كان ايضاً صديقاً لي » . وأضاف ما كان يعتقده فيّ ، وأجاب بأني كنت رجلاً . وأوضح ما كان يعنيه بذلك ، وصرّح بأن الجميع كانوا يعرفون ما كان يعنيه ذلك . وقال انه لاحظ أني كنت منغلقاً على ذاتي واعترف فقط بأني لم اكن اتكلم لكي لا أقول

شيئاً. وسأله المدعي العام هل كنت ادفع اجرتي بانتظام. فضحك سيلست وصرّح: «كانت هذه تفاصيل فيما بيننا» وسئل ايضاً عن رأيه في جريمتي، واذ ذاك وضع يديه على الحاجز، وكان واضحاً أنه قد اعدّ شيئاً ما. وقال: «ان هذه مصيبة في رأيي. وجميع الناس يعرفون ما هي المصيبة. انها تتركك بلا دفاع. أجل. انها مصيبة في رأيي». وكان يوشك ان يُتابع، ولكن الرئيس قال له ان ذلك حسن وأنه يُشكر. فبقي سيلست مشدوهاً بعض الشيء، ولكنه صرّح بأنه كان يريد ان يتكلم بعد. فطُلب اليه أن يكون موجزاً. وردّد مرة اخرى انها كانت مصيبة. فقال له الرئيس: «نعم. هذا مفهوم. والحق أننا هنا لنحكم على مصائب من هذا النوع. إننا نشكرك.» وكما لو أن سيلست قد وصل الى ذروة علمه وإرادته الطيبة، التفت آنذاك الي. وخيّل الي أن عينيه كانتا تلتمعان وأن شفتيه ترتجفان. كان يبدو وكأنه يسألني ما عساه كان يستطيع ان يفعل ايضاً. أما أنا فلم اقل شيئاً. ولم أقم باية حركة، ولكنها كانت المرة الاولى في حياتي التي اخذتني فيها الرغبة بأن اعانق انساناً. وطلب اليه الرئيس ثانية أن يغادر الحاجز. فذهب سيلست يجلس في القاعة. وقد ظل هناك، في اثناء الجلسة كلها، مائلاً بعض الشيء الى أمام، ومرفقاه على ركبتيه، والقبعة بين يديه، يصغي الى كل ما كان يُقال.

ودخلت ماري. وكانت ترتدي قبعة؛ وكانت ما تزال جميلة. ولكني كنت اكثر حباً لها وهي مرسلة الشعر. ومن المكان الذي كنت فيه، كنت احزر وزن نهديها الخفيف واتعرف ثانية شفتها السُفلى التي كانت ما تزال ريانة بعض الشيء. وكانت تبدو ثائرة الأعصاب جداً. وقد سئلت على الفور منذ متى كانت تعرفني. فحدّدت التاريخ الذي كانت تشتغل عندنا فيه. وأراد الرئيس أن يعرف ما كانت علاقاتها بي. فقالت انها كانت صديقتي. وأجابت على سؤال آخر انه كان صحيحاً انه كان وارداً ان تتزوجني. وفجأة سألها المدعي العام الذي كان يقلب احدى الاضبارات

عن تاريخ بدء علاقتنا . فحدّدت التاريخ . ولاحظ المدعي العام ، بلهجة عدم اكتراث انه يخيل اليه ان ذلك كان غداة موت أمي . ثم قال في شيء من السخرية انه لم يكن يريد ان يُلحّ على وضع دقيق ، وأنه كان يدرك جيداً وساوس ماري،ولكن واجبه (وهنا قست لهجته) كان يقتضيه أن يرتفع فوق المواضعات . وهكذا طلب الى ماري ان تُلخص ذلك اليوم الذي عرفتها فيه . ولم تكن تريد ماري ان تتكلم . ولكن امام الحاح المدعي العام روت قصة حمّامنا وخروجنا الى السينما وعودتنا الى منزلي . وقال المدعي العام : « انه بعد افادة ماري امام التحقيق ، قد راجع برامج ذلك التاريخ . » وأضاف : « ان ماري نفسها ستقول اسم الفيلم الذي كان يُعرض آنذاك . »وبالفعل اشارت بصوت يكاد يكون ابيض الى أنه كان فيلماً لفرننديل . وكان الصمت كاملاً في القاعة حين انتهت من حديثها . فنهض المدعي العام آنذاك ، وعلى وجهه علامات الجد ، وقال ببطء ، وبصوت وجدته منفعلاً حقاً ، واصبعه ممدود نحوي : « إيها السادة القضاة ، كان هذا الرجل ، في اليوم التالي لموت أمه ، يأخذ الحمامات ، ويبدأ علاقة غير مشروعة ، ويذهب ليضحك أمام فيلم هزلي ، ليس لدي ما أقوله لكم اكثر من ذلك » . وجلس في الصمت الذي كان ما يزال سائداً ، ولكن فجأة انفجرت ماري باكية ، وقالت ان الأمر لم يكن كذلك ، وأن هناك شيئاً آخر ، وأنها كانت مقسورة على أن تقول عكس ما كانت تفكر به ، وأنها كانت تعرفني جيداً ، وانني لم اقم بأي اذى . غير ان الحاجب ، باشارة من الرئيس اسرع يقتادها وتوبعت الجلسة .

وصرّح ماسون بعد ذلك اني كنت رجلاً شريفاً « بل هو يقول اكثر ، أني كنت رجلاً شجاعاً . » ولكنهم لم يكادوا يصغون اليه . وكذلك لم يكادوا يصغون الى سلامانو حين ذكر اني كنت أعامل كلبه معاملة طيبة، وحين أجاب على سؤال حول أمي وحولي بقوله : أنه لم يكن لدي بعد ما أقوله لأمي ، وأني لهذا السبب وضعتها في المأوى ، كان سلامانو يقول :

« يجب أن تفهموا ، يجب ان تفهموا ». ولكن لم يكن يبدو على أحد أنه يفهم . وأُخْرِج .

ثم جاء دور ريمون الذي كان الشاهد الأخير . وقد اومأ لي ريمون ايماءة صغيرة وقال على الفور اني كنت بريئاً . ولكن الرئيس صرّح بأن المطلوب منه لم يكن تقديرات ، بل كان وقائع . ودعاه أن ينتظر اسئلة لكي يُجيب . وسُئِل ان يوضح علاقاته مع الضحية . فانتهز ريمون الفرصة ليقول ان الضحية إنما كان يكرهه هو منذ أن صفع أخته . غير أن الرئيس سأله عما إذا لم يكن لدى الضحية ما يدعوها الى كرهه . فقال ريمون ان وجودي على الشاطىء إنما كان نتيجة مصادفة . فسأله المدعي العام آنذاك كيف اتفق أن تكون الرسالة التي كانت اصل المأساة مكتوبة بقلمي . فأجاب ريمون : أنها كانت مصادفة . ورد المدعي العام أن المصادفة قد سبق لها أن خلّفت كثيراً من الآثار السيئة على الضمير في هذه القصة . وأراد ان يعرف إذا كان من المصادفة اني لم اتدخل حين صفع ريمون عشيقته ، واذا كان من من المصادفة اني إستخدمت شاهداً في مفوضية الشرطة ، وإذا كان من المصادفة ايضاً ان تصريحاتي اثناء تلك الشهادة قد تبدت من قبيل المجاملة المحض . واخيراً سأل ريمون عن وسائل عيشه وحين أجابه بقوله : « حانوتي » صرّح المدعي العام للقضاة بأن من المعروف أن الشاهد كان يمارس مهنة قوّاد . وقد كنت شريكه وصديقه . وقد كانت القضية قضية مأساة خلاعية من أحط الأنواع ، ويزيدها خطورة أننا أمام شيطان اخلاقي . وأراد ريمون ان يُدافع عن نفسه ، واحتج محاميّ ، وقيل لهما ان يدعا المدعي العام يتمّ كلامه . فقال هذا الأخير : « ان ما أريد أن أضيفه قليل . » وسأل ريمون : « اكان صديقك ؟ » . فأجاب : « نعم كان رفيقي . » وعند ذاك طرح علي المدعي العام السؤال نفسه فنظرت الى ريمون الذي لم يدر عينيه واجبت : « نعم . » والتفت المدعي العام آنئذ الى هيئة المحكمة وقال « ان الرجل نفسه الذي انصرف في اليوم التالي لموت أمه الى احط

ألوان الدعارة قد ارتكب جريمة القتل لاسباب تافهة ولكي يُصفّي قضية اخلاقية غير قابلة للوصف ». وجلس بعد ذلك. ولكن محاميّ صاح نافد الصبر، رافعاً ذراعيه بحيث ان كمية قد كشفا، وهما يسقطان، ثنايا قميص منشّى: « ولكن أهو متهم بأنه قد دفن أمه ام بأنه قد قتل رجلاً؟ » وضحك الجمهور. ولكن المدعي العام نهض مرة أخرى وتسربل بثوبـــه وصرّح بأنه لا بد للمرء من أن يوتى بساطة المحامي المحترم حتى لا يشعر أن بين هذين الأمرين علاقة عميقة وموثّرة وجوهرية. وصاح بقوة: « نعم. انني أتهم هذا الرجل بأنه قد دفن أمه بقلب مجرم ». وبدا أن هذا التصريح قد خلّف أثراً كبيراً على الجمهور. وهزّ محاميّ كتفيه ومسح العرق الذي كان يغطي جبينه. ولكنه هو نفسه كان يبدو متزعزعاً. وقد فهمت أن الأمور لم تكن تسير جيداً بالنسبة لي.

ورُفِعت الجلسة. وحين خرجت من قصر العدل لأصعد الى السيارة أحسست للحظة قصيرة برائحة أمسية صيفية وبلونها. وفي عتمة سجني المترجرج استعدت واحدة فواحدة، جميع الضجّات المألوفة لمدينة كنت أحبها ولساعة كان يتفق لي فيها ان احسّني مسروراً. استعدتها كما لو انها صادرة من أعماق تعبي. صراخ باعة الصحف في الهواء الذي بدأ يسترخي، والعصافير الأخيرة في الساحة، ونداء باعة السندويش، وشكوى الترامات في منعطفات المدينة العليا، وضجة السماء تلك قبل أن يتأرجح الليل على المرفأ، كل ذلك كان يولّف لي مرة أخرى مخطط درب لاعمى، كنت أعرفه جيداً قبل أن أدخل السجن. أجل، كانت تلك الساعة التي كنت منذ وقت طويل أحسني فيها مسروراً. وكان ما ينتظرني آنذاك انما هو دائماً نوم خفيف لا أحلام فيه، ومع ذلك فان شيئاً ما قد تغير لأن ما لقيته، مع انتظار الغد، انما هو زنزانتي. لكأن الدروب المألوفة المرسومة في سماوات الصيف كان يمكن ان تفضي الى السجن كما تفضي الى النوم البريء.

٤

يظل مثيراً للاهتمام أن يسمع المرء من يتحدث عنه ، حتى ولو كان على مقعد متهم . وأستطيع القول انهم قد تحدثوا كثيراً عني ،وربما عني أكثر مما تحدثوا عن جريمتي ، في أثناء مرافعات المدعي العام ومحاميّ . وهل كانت هذه المرافعات ، في الحق ، مختلفة جداً ، لقد كان المحامي يرفع ذراعيه ويرافع على أني مذنب ، ولكن مع تقديم الاعتذارات . وكان المدعي العام يمد يديه ويفضح الذنب ، ولكن بلا اعتذارات . غير أن هناك شيئاً كان يُزعجني بغموض، فبالرغم مما كان يشغلني ، كنت مغرماً أحياناً بأن أتدخل . وكان محامي يقول لي آنذاك : « أسكت ، فهذا خير لقضيتك » . وكان يبدو ان هذه القضية كانت تُعالج ، على نحو ما ، خارجاً عني . كان كل شيء يجري بلا تدخلي . وكان مصيري يُقرر من غير أن يؤخذ رأيي . وبين الفينة والفينة كانت تأخذني الرغبة بأن أقاطع جميع الناس وأقول : « ولكن قولوا لي ، من هو المتهم ؟ إنه لمهم جداً أن يكون المرء هو المتهم . وان لديّ ما أقوله » . ولكن ، بعد إعمال التفكير ،لم يكن لدي ما أقوله . ثم ان عليّ ان أعترف بأن الذي يجده المرء في أن يشغل الناس لا يدوم طويلاً . ان مرافعة المدعي العام مثلاً ، قد أتعبتني سريعاً ، وكل ما أثارني او أيقظ اهتمامي انما هي مقاطع

أو حركات أو جمل برمتها ، ولكنها مفصولة عن المجموع .

واذا فهمت جيداً ، فان ملخص فكرته هو اني قد ارتكبت جريمتي عن سابق تصور وتصميم . لقد حاول على الأقل أن يثبت ذلك . كما كان يقوله هو نفسه : « سأقدّم البرهان على ذلك ، أيها السادة ، وسأقدّمه مضاعفاً . اولاً ، تحت ضوء الوقائع الباهر وثانياً في الشعاع المعتّم الذي ستمنحني اياه بسيكولوجية هذه الروح المجرمة » . وقد لخص الوقائع ابتداء من موت أمي . وتحدث عن لا احساسي ، وعن جهلي بسن أمي ، وعن حمام اليوم التالي مع امرأة والسينما وفرنانديل وأخيراً العودة مع ماري . وقد جهدت لأفهمه في تلك اللحظة ، لأنه كان يقول « عشيقته » . وقد كانت بالنسبة لي ماري . ثم وصل الى قصة ريمون . وقد وجدت ان طريقته في النظر الى الأحداث لم يكن يعوزها الوضوح . ان ما كان يقوله كان معقولاً . وقد كتبت الرسالة بالاتفاق مع ريمون لأجذب عشيقته وأسلمها الى المعاملات السيئة لرجل « ذي أخلاقية مشكوك فيها » . وكنت قد استثرت على الشاطيء خصوم ريمون . ولقد جُرح هذا ، فطلبت منه مسدسه وعدت وحدي لاستعمله ، وقد قتلت العربي كما كنت قد صممت . ولقد انتظرت . (ولكي أتأكد من أن المهمة قد أنجزت بشكل جيد) أطلقت أربع رصاصات أخرى بتمهل وتأكد ، وبشكل واعٍ على نحو ما .

وقد قال المدعي العام : « وهكذا أيها السادة . لقد رسمت أمامكم خط الأحداث الذي قاد هذا الرجل الى القتل بكل تبصر ومعرفة . وأنا ألحّ على هذا ؛ لأن القضية ليست قضية قتل عادي ، فعلٍ غير واعٍ تستطيعون أن تعتبروه مخففاً بسبب الظروف . ان هذا الرجل ، أيها السادة ، ان هذا الرجل ذكي . ولقد سمعتموه ، أليس كذلك ؟ انه يُحسن الاجابة . وهو يعرف قيمة الكلام ، وليس بالامكان القول انه فعل ما فعل من غير أن يكون مدركاً لما فعل » . أما انا فكنت أصغي واسمع انهم كان يحكمون بأني ذكي . ولكني لم اكن أفهم جيداً كيف يمكن لمزايا رجل عادي أن تصبح أعباء ساحقة ضد

مذنب . وهذا على الأقل ما كان يثير دهشتي . فكففت عن الاصغاء الى ان سمعت المدعي العام يقول : « أتراه قد عبّر عن بعض الأسف والندم على الأقل؟ أبداً أيها السادة . ان هذا الرجل لم يبدُ مرة واحدة خلال التحقيق منفعلاً بجريمته الفاحشة ! » . وفي تلك اللحظة التفت الي ودلّ عليّ باصبعه مستمراً في ارهاقي من غير أن أفهم في الواقع سبب ذلك جيداً . لا شك اني لم اكن أستطيع الامتناع عن الاعتراف بأنه كان على حق . انني لم أكن آسفاً كثيراً على عملي ، ولكن هذا القدر من الضراوة كان يدهشني . كان بودي لو أحاول أن أشرح له بود ، بل بما يشبه المحبة ، انني لم يسبق لي قط ان استطعت ان آسف حقاً على شيء ما . كنت دائماً مأخوذاً بما سوف يحدث ، باليوم أو بالغد ، ولكن طبعاً لم أكن أستطيع ، في الوضع الذي وضعوني فيه ، أن أتحدث الى أي انسان بهذه اللهجة . لم يكن لي الحق بأن أبدو محباً ، ولا أن تكون لي ارادة طيبة . وقد حاولت ان أصغي بعد ، لأن المدعي العام بدأ يتحدث عن نفسي .

كان يقول انه قد انحنى فوقها فلم يجد شيئاً ، أيها السادة القضاة . وكان يقول انه لم تكن لي في الحقيقة روح ، ولم يكن لدي ما هو انساني وان أي مبدأ خلقي من المبادىء التي تحرس قلب البشر كان ممتنعاً علي . وكان يضيف : « لا شك في اننا لن نستطيع ان نأخذ عليه ذلك . فان ما لا يستطيع ان يحوزه لا يسعنا أن نشتكي من افتقاره اليه . ولكن القضية بالنسبة لهذا المكان هي أن الفضيلة السلبية للتسامح يجب أن تتحول الى فضيلة أصعب ، ولكنها أسمى ، للعدالة ، لا سيما حين يصبح فراغ القلب ، كما نكتشفه لدى هذا الرجل هوة يمكن للمجتمع أن يسقط فيها . » وعند ذاك تحدث عن موقفي تجاه أمي . وكرر ما سبق أن قاله في أثناء المرافعات ، ولكنه كان أكثر اسهاباً منه حين كان يتحدث عن جريمتي ، حتى اني في نهاية الأمر لم أعد أشعر الا بحرارة تلك الصبيحة . الى ان توقف المدعي العام ، وبعد لحظة صمت ، استأنف بصوت منخفض جداً ومغلّف بالأسرار : « إن هذه المحكمة نفسها ستصدر

غداً أيها السادة حكمها بجريمة من أفظع الجرائم : جريمة قتل أبوي . » إن التصور ، على حد قوله ، كان يقصّر عن ادراك هذا القتل الفظيع . وكان يجروُ على أن يؤمل من عدالة البشر أن تعاقِب في غير هوادة . ولكنه لم يكن يخشى أن يقول إن الفظاعة التي كانت تلك الجريمة توحيها اليه تكاد تنهزم أمام الفظاعة التي يشعرها بازاء انعدام إحساسي . إن الرجل الذي كان يقتل أمه معنوياً ، كان على حد قوله أيضاً يعزل نفسه عن المجتمع البشري بشكل لا يختلف عن الرجل الذي يرفع يداً قاتلة على من وهبه الحياة . إن الأول ، في جميع الحالات ، كان يهيء لأعمال الثاني ، كان يرهص بها على نحو ما ويجعلها مشروعة . وأضاف وهو يرفع صوته : « انني مقتنع أيها السادة انكم لن تجدوا فكرتي جريئة أكثر مما ينبغي اذا قلت إن الرجل الجالس على هذا المقعد هو مذنب أيضاً بجريمة القتل التي ستحكم فيها المحكمة غداً . ويجب أن يعاقب وفقاً لذلك . » وهنا مسح المدّعي العام وجهه الملتمع بالعرق . وقال أخيراً إن واجبه كان مؤلماً ولكنه سيقوم به في حزم . وصرّح بأنه لا شأن لي بمجتمع أحتقر قواعده الجوهرية ولا أستطيع ان ألجأ فيه الى هذا القلب البشري الذي أجهل ردود فعله البدائية . وقال : « انني أطالبكم برأس هذا الرجل ، وأنا أطالبكم بذلك وقلبي مطمئن . لأنه اذا اتفق لي خلال مهنتي التي أمارسها منذ زمن بعيد ان طالبت بالعقوبات القصوى ، فاني لم أشعر قط كما أشعر اليوم بأن هذا الوجب الشاق مكافأ ومتوازن ومضاء بوعي أمرٍ قوي مقدس وبالفظاعة التي أحسّها ازاء وجه انسان لا أقرأ فيه الا ما هو شيطاني شرّير . »

وحين عاد المدعي العام إلى جلوسه ، سادت فترة صمت طويلة بعض الشيء . وكنت أنا دائخاً بالحرارة والدهشة . وقد سعل الرئيس قليلاً وسألني بصوت منخفض جداً عما اذا لم يكن لديّ بعدُ ما أضيفه . ونهضت ، ولما كانت بي رغبة للكلام ، قلت ، بطريق المصادفة في حقيقة الأمر ، اني لم أنو قتل العربي . فأجاب الرئيس إن ذلك كان تأكيداً ، وانه حتى تلك اللحظة لم يكن يفهم تماماً نظام دفاعي ، وانه سيكون سعيداً ، قبل أن يستمع الي

محاميّ ، بأن يحملني على توضيح الدوافع التي أوحت اليّ بعملي . فقلت بسرعة ، وأنا أمزج الكلام قليلاً وأشعر بما لديّ من وضع مضحك ، بأن ذلك كان من جرّاء الشمس . وقد انطلقت في القاعة ضحكات ، وهزّ محاميّ كتفيه ، وبعد ذلك أعطي الكلام في التوّ . ولكنه صرّح بأن الوقت قد تأخّر ، وانه بحاجة الى بضع ساعات للكلام ، وانه يطلب التأجيل الى ما بعد الظهر . فوافقت المحكمة على طلبه .

وبعد الظهر ، كانت المروحتان الكبيرتان ما تزالان تحرّكان هواء القاعة الكثيف ، وكانت مراوح القضاة الصغيرة المتعدّدة الألوان تتحرك كلها في اتجاه واحد . وخيّل اليّ أن مرافعة محاميّ لن تنتهي أبداً . على انني أصغيت إليه ، ذات لحظة ، لأنه كان يقول : « صحيح اني قتلت . » ثم تابع في هذه اللهجة قائلاً « أنا » كلما تحدث عني . وكنت شديد الدهشة . وقد ملت على أحد الدركيين وسألته لماذا . فقال لي أن أصمت ، وأضاف بعد لحظة : « جميع المحامين يفعلون هذا » . أما أنا ، فقد فكرّت أنّ في ذلك ايضاً ابعاداً لي عن القضية ، وإحالتي الى صفر ، والحلول مكاني على نحوٍ ما . ولكني أظنّ اني كنت قد ابتعدت جداً عن قاعة الجلسة هذه . والحق ان محاميّ بدا لي مضحكاً . فقد رافع في قضية الاثارة والتحدّي مرافعة سريعة جداً ، ثم أخذ هو أيضاً يتحدث عن روحي . ولكن بدا لي أقل موهبة ، بما لا يقاس ، من المدّعي العام . وقد قال : « لقد انحنيت انا أيضاً فوق تلك الروح ، ولكني ، بعكس ممثل العدالة العامة المحترم ، وجدت شيئاً ما ، وبوسعي القول إني قرأت فيها كما أقرأ في كتاب مفتوح . » وقد قرأ فيها اني كنت رجلاً شريفاً ، وعاملاً منتظماً ، لا يكل ولا يتعب ، أميناً على البيت الذي كان يستخدمه ، محبوباً من الجميع ، ومشاركاً الآخرين في بؤسهم . ولقد كنت في نظره إبناً نموذجياً ساعد أمه أطول مدة أطاقها . وكنت قد أمّلت أخيراً ان يمنح مأوى هادىء المرأة العجوز الرفاهية التي لم تكن وسائلي تسمح لي بأن أؤمنها لها . وأضاف : « يدهشني ، أيها السادة ، ان تكون قد أثيرت مثل

تلك الضجة الكبيرة حول ذلك المأوى . فلئن وجب اعطاء برهان على نفع هذه المؤسسات وعظمتها ، فيجب التذكير ، في آخر المطاف ، بأن « الدولة » نفسها هي التي تمدّها بالمال . » غير أنه لم يتكلم عن الدفن ، وأحسست أن هذا كان ناقصاً في مرافعته . ولكن بسبب جميع هذه العبارات الطويلة ، وتلك النهارات جميعها وتلك الساعات التي لا تنتهي والتي جرى فيها الحديث عن روحي ، أحسست بأن كل شيء كان يصبح أشبه بماء لا لون له كنت أشعر فيه بالدوار .

وفي النهاية ، أذكر فقط أن بوق بائع مثلجات قد بلغ سمعي ، من الشارع وعبر كل مسافة القاعات والمحاكم ، فيما كان محاميّ مستمراً في حديثه . كانت تلاحقني بارهاق ، ذكريات حياة لا تخصّني بعد ، ولكني كنت قد وجدت فيها أتفه فرحاتي وأصلبها : روائح صيف ، والحيّ الذي كنت أحبّه ، وسماءً ما تتجلى في المساء ، وضحكة ماري واثوابها . إن كل ما كنت أفعله في ذلك المكان قد أخذ بخناقي ، ورأيتني أستعجل امراً واحداً ، هو أن تنتهي المرافعات وأن أعود الى زنزانتي مع النوم . من أجل هذا كدت لا أسمع محاميّ يصيح ، منهياً مرافعته ، بأن القضاة لن يرسلوا الى الموت عاملاً شريفاً ضاع في لحظة شرود ، وطالب بالظروف المخفّفة لجريمة بدأت منذ الآن اجرّ منها ندماً أبدياً هو أعنف العقاب لي . وعلّقت المحكمة الجلسة وجلس المحامي بهيئة منهكة . ولكن زملاءه أقبلوا عليه يشدّون يده ، وسمعت عبارة « رائع ، يا عزيزي. » بل إن أحدهم طلب رأيي قائلاً : « أليس كذلك ؟ » فأومأت ايجاباً ، ولكن تهنئتي لم تكن صادقة لأني كنت متعباً أكثر مما ينبغي .

ومع ذلك ، فقد كان المغيب يقترب في الخارج ، وكانت الحرارة تضعف . ولقد استشعرت عذوبة المساء من ضجيج الشارع الذي كنت أسمعه . كنا جميعاً هناك ننتظر . وما كنا ننتظره معاً لم يكن يعني سواي . وقد نظرت في القاعة مرة أخرى . كان كل شيء في الوضع نفسه الذي كان فيه ، في اليوم الأول . والتقيت نظر الصحفي ذي السترة الرمادية والمرأة الصنم . وأتاح لي ذلك

ان افكر بأني لم أبحث بنظري عن ماري في أثناء المحاكمة كلها . ليس ذلك لأنني نسيتها ، وانما كان لديّ من العمل أكثر مما ينبغي . وقد رأيتها بين سيلست وريمون . فأومأت لي ايماءة صغيرة كما لو أنها كانت تقول : « وأخيراً » ورأيت وجهها القلق بعض القلق يبتسم . ولكني كنت أحسّ قلبي مغلقاً ولم أستطع حتى أن أجيبها على بسمتها .

وعادت هيئة المحكمة . وقرئت على القضاة ، في سرعة كبيرة ، سلسلة من الاسئلة . وسمعت عبارة « مذنب بجريمة قتل » ... « وسابق تصوّر وتصميم » ... و « ظروف مخفّفة ». وخرج القضاة ، وأُخذت الى القاعة الصغيرة التي سبق ان انتظرت فيها . وجاء محاميّ يلحق بي : وكان يتكلم بسرعة ، وقد حدثني بلهجة ثقة وودّ لم أعهدها فيه من قبل . وكان يعتقد ان كل شيء سيسير على ما يرام وانني سأخرج من القضية ببضع سنوات من السجن أو الأشغال الشاقة . وسألته عما اذا كان هناك مجال للتمييز في حال صدور حكم ليس في صالحنا . فأجابني بالنفي . وكانت خطته ألاّ يستخرج نتائج ختامية حتى لا يزعج المحكمة . وشرح لي أن ليس هناك مجال لتمييز حكم ما ، هكذا ، بلا مبرر . وبدا لي ذلك بدهياً واقتنعت بوجهة نظره . إن من ينظر إلى القضية ببرود ، يجد كل شيء طبيعياً . وفي الحالة المعاكسة ، سيكون هناك أوراق كثيرة لا فائدة منها . وقال لي محاميّ : « مهما يكن من أمر ، فهناك الاستئناف . ولكني واثق من أن النتيجة ستكون لصالحنا . »

وقد انتظرنا طويلاً جداً ، ثلاثة أرباع الساعة تقريباً ، كما أظن . وفي نهاية الوقت ، دقّ جرس ، فتركني محاميّ وهو يقول : « إن رئيس المحكمة سيقرأ الأجوبة . ولن يدخلوك الا عند قراءة نص الحكم . » واصطفقت أبواب . وكان ثمة أشخاص يركضون على سلالم لا أدري اذا كانت قريبة أم بعيدة . ثم سمعت صوتاً بهيماً يقرأ شيئاً في القاعة . وحين دق الجرس مرة أخرى ، وفتح باب الغرفة الصغيرة ، صعد اليّ صمت القاعة ، ذلك الصمت ، وذلك الشعور الفريد الذي داخلني حين لاحظت أن الصحفي كان قد أشاح

بعينيه . ولم أنظر في اتجاه ماري . لم يتح لي الوقت لذلك ، لأن الرئيس قال إن رأسي سيقطع في ساحة عامة باسم الشعب الفرنسي . وخيّل إليّ آنذاك اني أتعرّف الى الشعور الذي كنت أقرأه على جميع الوجوه . وأعتقد جيداً ان ذلك كان من قبيل الاعتبار والتقدير . كان رجال الدرك لطيفين جداً معي . ووضع المحامي يده على معصمي . ولم أكن أفكر بعدُ بشيء . ولكن الرئيس سألني عما اذا لم يكن لديّ ما أضيفه . وفكرت . ثم قلت : « لا » . واذ ذاك أخذوني .

٥

رفضت للمرة الثالثة أن أستقبل الكاهن . فليس لديّ ما أقوله له ، وليست بي رغبةٌ في الكلام ، وسوف أراه جيداً في وقت مبكر بعض الشيء . إن ما يهمني الآن هو أن أُفلت مما هو ميكانيكي ، أن أعرف هل يمكن أن يكون ثمة مخرج لما لا مفرّ منه . لقد غيّروا لي زنزانتي . وانا ارى من هذه الزنزانة السماء ، حين أكون متمدّداً ، ولا أرى سواها . وجميع نهاراتي تنقضي وأنا أنظر في وجهها كيف تحول الألوان التي تقود النهار الى الليل . وأنا أمرّ يديّ تحت رأسي وانتظر ، مضطجعاً . ولا أدري كم مرة تساءلت هل هناك أمثلة للمحكومين بالاعدام الذين أفلتوا من الآلية التي لا تخطىء ، فاختفوا قبل التنفيذ ، وحطّموا صفوف الشرطة . وكنت آخذ على نفسي آنذاك أني لم أعر قصص الإعدام الاهتمام الكافي . إن على المرء دائماً أن يهتم بهذه المسائل . فهو لا يدري ما يمكن أن يحدث . صحيح اني كنت قد قرأت كسائر الناس تقارير في الصحف . ولكن لا شك أن هناك مؤلفات خاصة لم يأخذني الفضول يوماً لمراجعتها . ولعلني . لو فعلت ، لوجدت هناك قصص فرار . لعلمت أن العجلة ، في حالة واحدة على الأقل ، قد توقّفت ، وأنّ المصادفة والحظ ، في سبق التصوّر والتصميم هذا ، قد غيّرا مرة واحدة شيئاً ما . مرة واحدة !

وأحسب أن هذا كان يكفيني ، على نحوٍ ما . وكان قلبي يقوم بالباقي . لقد كانت الصحف تتحدث غالباً عن دينٍ مستحق للمجتمع . وكان لا بد ، في نظرها ، من دفعه . ولكن ذلك لا ينسجم والتصور . ان ما كان يُعوَّل عليه ، انما هو امكانية فرار ، قفزة خارج الطقس الصارم ، ركض مجنون يمنح جميع حظوظ الأمل . بالطبع ، كان الأمل هو أن يُقتل الهارب في زاوية شارع ، وهو في إبّان ركضه . برصاصة طائرة . ولكن اذا اعتبرنا كل شيء جيداً ، فانه لم يكن ثمة شيء يتيح لي هذا البذخ ، بل كان كل شيء يمنعه عنّي ، وكانت الميكانيكية تأخذني من جديد .

لم أكن أستطيع ، بالرغم من ارادتي الصادقة أن أقبل هذا اليقين الوقح . ذلك انه كان ثمة ، في نهاية المطاف ، تنافرٌ مضحك بين الحكم الذي كان قد بُني عليه ، وبين تكوّنه الماديء إبتداء من اللحظة التي كان هذا الحكم قد لُفظ فيها . فان كون الحكم قد تُلي في الساعة العشرين بدلاً من السابعة عشرة ، وكون انه كان ممكناً أن يكون حكماً آخر تماماً ، وكونه قد أتُخذ من قبل رجال يغيّرون ملابسهم ، وكونه قد عزُي الى فكرة غير دقيقة كفكرة الشعب الفرنسي (أو الالماني أو الصيني) — كان يخيّل إليّ جيداً ان هذا كله ينزع من هذا القرار كثيراً من الجديّة . مع ذلك فقد كنت مضطراً الى ان أعترف بأن نتائجه ، منذ اللحظة التي أتخذ فيها ، كانت تصبح يقينية وجديّة كوجود هذا الجدار الذي كنت أسحق جسمي عند قدمه .

وتذكرت في تلك اللحظات قصة كانت أمي ترويها لي حول أبي . ولم أكن قد عرفته . وكل ما عرفته واضحاً عن هذا الرجل ، ربما كان ما قالته لي أمي عنه آنذاك : لقد ذهب يوماً يرى تنفيذ الاعدام بأحد القتلة . وكان كلما جاءته فكرة الذهاب لمشاهدة ذلك يُحس أنه مريض . ومع ذلك فقد ذهب ، وحين عاد ظلّ يقيء فترة من فترات الصبيحة . كان أبي يثير اشمئزازي قليلاً آنذاك . أما الآن ، فاني أدرك ذلك : كان الأمر طبيعياً جداً . كيف لم يسبق لي ان رأيت ان ليس ثمة ما هو أهم من حكم بالاعدام ،

وانه بالاجمال الشيء الوحيد الذي يهم رجلاً ما حقاً ! لئن قدّر لي أن أخرج من هذا السجن ، فسأذهب لمشاهدة جميع احكام الاعدام . وأحسب اني كنت مخطئاً في التفكير بهذه الامكانية . فاني اذ افكر بأن أراني حراً ذات صباح ، خلف صف رجال الشرطة ، في الجانب الآخر على نحو ما ، واذ أفكر بأن أكون المشاهد الذي يأتي ليرى والذي يمكن ان يقيء بعد ذلك ، فان موجة من الفرح المسمّم كانت تستخفّني . ولكن ذلك لم يكن قائماً على العقل . كنت على خطأ بأن استسلم لهذه الافتراضات لأني كنت أحسّ في الفترة التالية ، بأني مقرور جداً حتى اني كنت أتجمّع تحت لحافي. كنت اصطكّ أسناناً من غير أن أستطيع التماسك .

ولكن المرء لا يستطيع طبعاً أن يكون دائماً معقولاً . كنت في الماضي مثلاً أضع مشاريع قوانين . كنت أصلح العقوبات . وكنت قد لاحظت ان الجوهري هو منح المحكوم عليه حظاً . حظاً على ألف ، وكان ذلك كافياً لتسوية كثير من الأشياء . من ذلك انه كان يخيّل إليّ أن بالامكان ايجاد مركّب كيماوي يقتل ابتلاعه المريض (وكنت أفكر : المريض) تسع مرات على عشر . وكان هو سيعرف ذلك ، وذلك كان هو الشرط . ذلك اني كنت ألاحظ ، وأنا أفكر جيداً وأتأمل الأشياء في هدوء ، أن ما كان معيباً في شأن المقصلة انه لم يكن ثمة أي حظ ، أي حظ على الاطلاق . إن موت المريض يكون بالاجمال مقرراً مرة وإلى الأبد . إنها لقضية مبتوت فيها ، تدبير مقرّر جيداً ، عقدٌ متفق عليه ليس من الوارد العدول عنه . واذا أخطأ الفعل ، لظرف استثنائي شاذ ، أُعيدت التجربة . وينتج عن ذلك ان على المحكوم عليه ، وهذا هو المزعج في الأمر ، أن يتمنى أن تسير الآلة سيراً جيّداً . اقول ان هذا هو الجانب المعيب . وهذا صحيح ، على نحو ما . ولكني كنت ، على نحو آخر ، مضطراً الى الاعتراف بأن سرّ التنظيم الجيّد انما يكمن هنا . وبالاجمال فان المحكوم عليه كان مضطراً لأن يتعاون معنوياً . لقد كان من صالحه أن يجري كل شيء بلا عوائق .

وكنت مجبراً على أن الاحظ كذلك أن أفكاري في هذه المسائل لم تكن حتى ذلك الحين أفكاراً صائبة . لقد ظننت مدة طويلة ان الوصول الى المقصلة يتمّ بعد إرتقاء صقالة وصعود درجات . وأحسب ان هذا بسبب ثورة ١٧٨٩ ، أعني بسبب كل ما لقّنوني أو أروني أيّاه حول هذه المسائل . ولكني تذكّرت ذات صباح صورة منشورة في الصحف تمثّل عملية إعدام كان لها صدى كبير . والواقع أن المقصلة كانت موضوعة على الأرض ، بأبسط شكل ممكن . وكانت أضيق جداً مما كنت أظنّ . وكان غريباً اني لم ألاحظ ذلك في وقت أسبق . وكانت تلك الآلة في الصورة ، قد لفتت انتباهي بدقتها ورهافتها والتماعها . إن المرء يتصور دائماً أفكاراً مبالغاً فيها عمّا لا يعرف . وكان لا بدّ لي من أن ألاحظ ، على العكس ، بأن كل شيء كان بسيطاً : إن الآلة هي على نفس مستوى الرجل الذي يسير اليها . فهو ينضمّ اليها كما يسير المرء للقاء شخص . وذلك أيضاً كان مزعجاً . لقد كان بوسع المخيّلة ان تتعلّق بصورة الارتقاء نحو الصقالة والصعود الى السماء . أما هنا ، فقد كانت الآلية تسحق كل شيء : إن المرء يُقتل خفيةً ، في شيء من الخجل وكثير من الدقة .

ولقد كان ثمة أيضاً أمران كنت أفكر فيهما طوال الوقت : الفجر وطلب العفو. غير اني كنت أحاكم فكري وأحاول ألاّ أفكر فيهما . كنت أتمدّد ، وكنت أنظر السماء وأجهد بأن أهتمّ بها . وكان الجو يخضرّ ، ويهبط المساء . وكنت أبذل جهداً اضافياً لأحرف مجرى أفكاري . كنت أستمع الى خفقات قلبي . ولم اكن أستطيع أن أتصور ان بامكان هذه الضجة التي كانت ترافقني منذ وقت طويل ان تكفّ . انني لم أوتَ يوماً مخيّلة بعيدة المدى ، ومع ذلك ، فقد كنت أحاول أن أتصوّر لحظة ما يكفّ فيها خفق هذا القلب عن الانتقال الى رأسي . ولكن عبثاً . كان الفجر او الاستئناف هناك . وانتهى بي الأمر الى أن أقول لنفسي ان أحكم الأمور هي ألاّ أضغط على نفسي .

كنت أعرف أنهم آتون عند الفجر . وبالاجمال شغلتُ لياليّ في انتظار ذلك الفجر . انني لم احبّ قط ان أفاجأ . فحين يحدث لي شيء ما ، أوثر

أن اكون حاضراً . من أجل هذا انتهى بي الأمر الى الا ّ أنام الا وقتاً قصير في النهار، وطوال الليل ، انتظر في صبر ان يولد النور على زجاج السماء . وكان أشق ّ شيء علي ّ ، تلك الساعة المريبة التي كنت أعلم انهم اعتادوا على أن ينجزوا فيها عمليتهم . كان اذا انقضى منتصف الليل ، انتظر وأترقب . ولم يسبق لأذني قط ّ ان التقطت هذا القدر الكبير من الضجيج ، أو ميّزت أصواتاً دقيقة تلك الدقة . والحق اني استطيع ان اقول اني ، على نحو ما ، كنت محظوظاً ، خلال هذه الفترة كلها ، اذ اني لم أسمع قط وقع أقدام . كانت أمي تقول غالباً إن المرء لا يكون شقياً مئة بالمئة . وكنت أقرّها على رأيها ، وأنا في سجني ، حين كانت السماء تتلوّن، وحين كان نهارٌ جديد ينسل ّ الى زنزانتي . ذلك انه كان بوسعي ايضاً ان اسمع خطى ، وكان يمكن لقلبي أن ينفجر . فحتى لو كان أيّ حفيف يدفعني للسقوط أمام الباب ، وحتى لـــو كنت ألصق أذني على الخشب وانتظر ملهوفاً الى أن أستمع تنفّسي ذاته ، فيأخذني الذعر ان أجده خشناً شبيهاً بحشرجة كلب ، لم يكن قلبي ، بعد كل حساب ، لينفجر ، وكنت أربح آنذاك أربعاً وعشرين ساعة أخرى .

أما في النهار ، فقد كانت هناك فكرة طلب العفو . وأحسب اني أفدت أفضل الافادة من هذه الفكرة . كنت أحسب حساباتي وأحصل من أفكاري على أفضل مردود ، وكنت آخذ دائماً اسوأ الفروض : ان يرفض طلبي للعفو . « واني اذن، سأموت » . وكان هذا بديهياً ، أكثر من أي حل آخر . ولكن الجميع يعرفون ان الحياة ليست جديرة بأن تُعاش . ولم أكن أجهل ، في الحقيقة ، ان الموت في الثلاثين أو في السبعين سيّان ، اذ ان رجالاً ً آخرين ونساء آخريات سيعيشون طبعاً ، في كلتا الحالتين ، وذلك آلافاً من السنين . وبالاجمال ، لم يكن ثمة ما هو أشد ّ وضوحاً من ذلك . فقد كنت دائماً أنـــا الذي سيموت ، سواء كان ذلك الآن أم بعد عشرين عاماً . غير أن ما كان يزعجني قليلاً ً في تفكيري ، في تلك اللحظة ، تلك القفزة المريعة التي كنت أحسّها فيّ حين أتصوّر العشرين عاماً من الحياة القادمة . ولكن لم يكن لديّ

إلا ان أخنقها بأن أتخيّل ما عساها تكون أفكاري بعد عشرين عاماً حين ينبغي لي أن أصل الى هذا الأمر . كيف يموت المرء ومتى ، هذا لا أهمية له ما دام سيموت ، وذلك بديهي. وإذن (والعسير هو ألاّ نسقط من الاعتبار ما كانت هذه « الاذن » تمثّله من محاكمات وحجج فكرية) وإذن ، فقد كان لا بدّ لي من أن أقرّ رفض طلبي للعفو .

في تلك اللحظة ، في تلك اللحظة فقط ، كان لي الحق اذا صحّ التعبير ، كنت أمنح نفسي الإذن بأن أباشر الافتراض الثاني : وهو أن أنال العفو . لقد كان المزعج الشاق هو انه كان ينبغي تخفيف عنف ذلك الانطلاق في الدم والجسم الذي كان يخزُ عينيّ بفرحة مجنونة . كان ينبغي أن أجهد في تخفيف تلك الصرخة ، وفي عقلنتها . كان ينبغي أن أكون طبيعياً حتّى في هذا الغرض ، لأجعل خضوعي في الفرض الأول اكثر احتمالاً وقرباً الى المعقول . حتّى اذا ما نجحت في ذلك ، أكون قد ربحت ساعة هدوء . غير أن ذلك أيضاً ، قابل للنظر والتأمل .

في لحظة شبيهة بهذه رفضت مرة أخرى أن استقبل الكاهن . كنت مستلقياً وكنت أحدس باقتراب مساء الصيف عند أفق سماوي أشقر . وكنت قد رددتُ طلبي للعفو ، فكان بوسعي ان أحسّ موجات دمي تسري منتظمة فيّ . لم تكن بي حاجة الى رؤية الكاهن . وللمرة الأولى منذ وقت طويل ، فكرت بماري . وكانت قد انقضت أيام طويلة من غير أن تكتب لي . وفي ذلك المساء ، وفكرت وقلت لنفسي انها ربما تكون قد تعبت من أن تكون عشيقة محكوم عليه بالاعدام . وخطرت لي أيضاً فكرة أن تكون مريضة أو تكون قد ماتت . وكان هذا في طبيعة الأشياء . فكيف لي أن أعرف ذلك ما دام ليس ثمة ما كان يربطنا أو يذكّر أحدنا بالآخر ، ما عدا جسمينا المنفصلين الآن . والحق ان ذكرى ماري ، إبتداء من تلك اللحظة ، كانت لا تصيب عندي الا اللامبالاة . فلئن كانت ميتة ، فانها ستكون قد كفّت عن اثارة اهتمامي . وكنت أجد ذلك طبيعياً ، كما كنت أفهم جيداً أن ينساني الناس

بعد موتي . ولم أكن أستطيع حتّى القول إن ذلك كان شاقاً على التفكير .

في تلك اللحظة بالذات ، دخل الكاهن . وحين رأيته ، أخذتني ارتجافة يسيرة . وقد لاحظ ذلك فقال لي ألاّ أخاف . وقلت له ان من عادته ان يأتي في لحظة أخرى . فأجابني إنها كانت زيارة ودّية تماماً لا علاقة لها بطلبي العفو الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً . وقد جلس على فراشي ودعاني الى الجلوس بقربه . فرفضت . وكنت مع ذلك أجد له هيئة رقيقة جداً .

وظلّ لحظة جالساً ، وساعداه على ركبتيه ، محنيّ الرأس ، ينظر الى يديه . وكانتا دقيقتين عاضلتين ، وكانتا تذكرانني بحيوانين نشيطين . وقد فرك احداهما بالأخرى فركاً بطيئاً ، ثم بقي كذلك ، خافض الرأس ، وقتاً طويلاً جداً ، حتّى داخلني الشعور ، ذات لحظة ، اني كنت قد نسيته .

ولكنه رفع رأسه فجأة ونظر إليّ مواجهة وقال : « لماذا ترفض زيارتي ؟ » فأجبت اني لم اكن اومن بالله . وأراد أن يعرف اذا كنت على يقين من ذلك ، فقلت إنه لم يكن لي أن أتساءل عن هذا : فقد كانت تلك مسألة تبدو لي بلا أهمية . فارتدّ آنذاك الى خلف واستند الى الجدار ، ويداه مبسوطتان على فخذيه . ومن غير أن يبدو عليه انه يكلمني ، قال ملاحظاً ان المرء يحسب نفسه متأكداً ، بعض الأحيان ، ولا يكون كذلك في الواقع . ولم أكن أقول شيئاً . وقد نظر إليّ وسألني : « ما رأيك ؟ » فقلت إن هذا ممكن . وايا ما كان ، فربما لم أكن متأكداً مما كان يهمّني حقاً ، ولكني كنت متأكداً تماماً مما لم يكن يهمّني . وهذا الذي كان يحدثني عنه ، كان هو بالذات لا يهمّني .

وأشاح بعينيه ، وسألني وهو لا يزال في وضعه ، ألم أكن أتكلم على هذا النحو بدافع من فرط اليأس . فشرحت له انني لم أكن يائساً . كل ما هنالك اني كنت خائفاً ، وكان ذلك طبيعياً جداً . قال ملاحظاً : « إن الرب سيساعدك إذن . وإن جميع الذين عرفتهم في مثل حالك ، كانوا يعودون اليه . » فاعترفت بأن ذلك كان من حقهم ؛ وقد كان ذلك يدلّ أيضاً على أنهم كانوا يملكون الوقت لذلك . أما أنا ، فلم أكن أريد أن أساعَد ، وكنت أفتقر الى الوقت

لأهتمّ بما لم يكن يهمّني .

وفي تلك اللحظة ، حرّك يديه حركة انزعاج ، ولكنه استقام وسوّى ثنايا ثوبه . واذ فرغ ، توجّه إليّ وهو يدعوني « يا صديقي » . ولئن كان يحدثني بهذه اللهجة ، فليس ذلك لأني كنت محكوماً بالاعدام ؛ فقد كنا جميعاً ، في رأيه ، محكومين بالاعدام . ولكني قاطعته قائلاً بأن الأمرين ليسا متشابهين ، وان ذلك ، في أية حال ، لا يمكن أن يكون تعزية . وقال موافقاً : « بالتأكيد ، ولكنك ستموت فيما بعد ، إن لم تمت اليوم . واذ ذاك ستُطرح القضية نفسها . فكيف تراك ستواجه تلك التجربة المريعة ؟ » فأجبته بأني سأواجهها كما أواجهها في هذه اللحظة تماماً .

ونهض عند هذه العبارة فنظر في عينيّ باستقامة . وتلك لعبة كنت أعرفها جيداً . وكنت أتسلّى بها غالباًمع امانويل أو سيلست ، وكانا بالاجمال يصرفان عينيهما . وقد كان الكاهن يعرف هذه اللعبة أيضاً ، وقد أدركت ذلك على الفور : لم يكن نظره ليرتجف . وكذلك صوته ، فانه لم يرتجف حين قال لي ؛ « أليس لديك إذن أي أمل ، وأنت تعيش مفكراً بأنك ستموت كلّياً ؟ » فأجبت : « نعم . » .

فخفض رأسه اذذاك وعاد الى الجلوس . وقال لي انه كان يرثي لي . وكان يحكم بأن ذلك يستحيل تحمّله بالنسبة للانسان . أما أنا ، فقد أحسست فقط انه بدأ يضجرني . وقد انفتلت بدوري وتوجهت تحت الكوّة . وكنت أستند بكتفي على الجدار . وسمعت من غير أن أتابعه ، انه عاد يطرح عليّ الأسئلة . وكان يتكلم بصوت قلق ضاغط ففهمت انه كان منفعلاً ، فأوليته مزيداً من الإصغاء .

وكان يحدثني عن يقينه بأن طلبي العفو سيُقبل ، ولكني كنت أحمل عبء إثم كان يجب أن أتحرّر منه . لم تكن عدالة البشر ، في رأيه ، شيئاً ، وكانت عدالة الله كل شيء . فقلت ملاحظاً إن الأولى هي التي حكمت عليّ ، فأجابني أنها ، مع ذلك ، لم تغسل إثمي . فقلت له اني لم أكن أعرف ما هو الاثم ،

وكل ما أعلموني إياه اني كنت مذنباً . كنت مذنباً ، وكنت أدفع ثمن ذنبي ، ولم يكن بالمستطاع أن يُطلب مني أكثر من ذلك . وفي تلك اللحظة نهض من جديد ، ففكرت بأنه اذا كان يريد أن يتحرك في هذه الزنزانة الضيقة الى ذلك الحدّ ، فلم يكن له الخيار . كان ينبغي ان يجلس أو أن ينهض .

كانت عيناي مسمّرتين في الأرض . وقد قام بخطوة نحوي ثم توقّف ، كما لو انه لم يكن يجروْ على التقدّم . كان ينظر الى السماء عبر القضبان الحديدية ، وقال لي : « أنت على ضلال يا بنيّ . إن بالامكان ان يُطلب منك أكثر من ذلك . وربما سيُطلب منك . » — « ماذا ؟ » — « من الممكن ان يُطلب منك أن ترى . » — « أرى مـــاذا ؟ »

ونظر الكاهن فيما حوله وأجاب بصوت وجدته فجأة متعَباً : « إن جميع هـــذه الحجارة ترشح الألم ، أعرف ذلك . وأنـــا لم أنظر اليها قط من غير أن أحسّ الضيق . ولكنني أعلم من صميم القلب أن أكثركم بؤساً قد رأوا وجهاً إلهياً يخرج من ظلمتها . إن هذا الوجه هو ما يطلب منك أن تراه . »

وانتعش قليلاً . وقلت إنه انقضت أشهرٌ عليّ وأنا أنظر هذه الجدران . فليس ثمة شيء أو شخص في العالم عرفته خيراً مما عرفتها . ربما كنت ، منذ وقت طويل ، قد بحثت فيها عن وجه . ولكن هذا الوجه كان له لون الشمس ولهب الشهوة : كان وجه ماري . لقد بحثت عنه عبثاً . أما الآن ، فقد انتهى ذلك . وفي جميع الأحوال ، لم أر شيئاً ينبثق من عرق الحجارة هذا .

ونظر إليّ الكاهن في شيء من الحزن . وكنت قد استندت استناداً كاملاً الى الجدار وكان النهار يسيل على وجهي . وقال بضع كلمات لم أسمعها ، وسألني بسرعة هل أسمح له بمعانقتي ، فأجبته : « لا » . فالتفت ومشى الى الجدار فأمرّ عليه يده مرّاً رقيقاً وتمتم : « أإلى هذا الحدّ ، تُراك تحبّ هذه الأرض ؟ » فلم أجب بشيء .

وظلّ وقتاً طويلاً منصرفاً عني . وكان حضوره يثقل عليّ ويزعجني . وكنت أوشك أن أقول له أن يذهب ، وأن يتركني ، حين صاح فجأة بلهجة

حادة وهو يلتفت إليّ : « لا ، لا أستطيع أن أصدّقك . انني متأكد من انه قد اتفق لك ان تمنّيت حياة أخرى . » فأجبته أنْ طبعاً ، ولكن هذا لم يكن اكثر أهمية من أن يتمنى المرء أن يكون غنياً أو ان يسبح بسرعة او أن يكون له فمٌ أجمل مما هو . كان هذا من القبيل نفسه . ولكنه أوقفني وكان يريد أن يعرف كيف كنت أتصوّر تلك الحياة الأخرى . فصحت به آنذاك : « حياة أستطيع فيها أن أتذكّر هذه الحياة » وسرعان ما أضفت بأن ذلك كان حسْبي . وكان يريد أن يحدثني مزيداً من الحديث عن الله ، ولكني تقدّمت نحوه وحاولت أن أشرح له مرة أخيرة أن الوقت الذي كان باقياً لي قصير جداً . وحاول أن يغيّر الموضوع فسألني لماذا كنت أدعوه « سيدي » وليس « يا أبتي » . وقد أثار ذلك أعصابي وأجبته بأنه لم يكن أبتي . لقد كان مع الآخرين .

فقال لي وهو يضع يده على كتفي : « لا يا بنيّ . إنني معك . ولكنك لا تستطيع ان تعرف ذلك ، لأن لك قلباً أعمى . سأصليّ من أجلك . »

واذ ذاك ، انفجر شيء ما فيّ ، لا أدري لماذا . فأخذت أصرخ ملء حنجرتي وشتمته وقلت له ألاّ يصليّ من أجلي . وكنت قد أخذته من تلابيب جبته . وصببت عليه كل ما كان في قلبي بقفزات ممزوجة بالفرح والغضب . لقد كانَ يبدو عليه انه موقن الى أبعد حدود اليقين ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك ، فان أيّ يقين لديه لم يكن يساوي شعرة امرأة . بل هو لم يكن متأكّداً من انه في الحياة ، ما دام يعيش كالميت . أما أنا ، فقد كنت أبدو ويداي فارغتان . ولكني كنت متأكداً من نفسي ، متأكداً من كل شيء ، اكثر تأكداً منه ، متأكداً من حياتي ومن ذلك الموت الذي سيجيء . نعم ، لم يكن لي الا هذا . ولكني على الأقل كنت أمسك بهذه الحقيقة على قدر ما كانت تمسك بي . لقد كنت على حق ، وما زلت على حق ، كنت دائماً على حق . لقد عشت على ذلك النحو ، وكان بوسعي أن أعيش على نحو آخر . ولقد فعلت هذا ، ولم أفعل ذاك . ولم أفعل هذا الشيء ، بينما فعلت سواه . وبعدُ ؟ لكأني انتظرت طوال الوقت هذه الدقيقة وهذا الفجر الصغير الذي سأكون مبرّراً فيه . لم يكن لشيء ،

لم يكن لشيء على الاطلاق أهمية ، وكنت أعرف جيداً لماذا . وكان هو أيضاً يعرف لماذا . فمن أعماق مستقبلي ، طوال هذه الحياة اللامعقولة التي كنت قد سُقتها ، كانت نفحة مظلمة تصعد نحوي عبر أعوام لم تكن قد جاءت بعد ، وكانت هذه النفحة تسوّي لدى مرورها كلّ ما كان يُقدَّم لي آنذاك في أعوام ليست أكثر واقعية من التي كنت أعيشها . بمَ كان يهمني موت الآخرين ، أو حبّ أمّ ، وبمَ كان يهمّني إله ، والحيوات التي تُختار ، والمصائر التي تُختار ، ما دام مصير واحد كان ينبغي أن يختارني أنا نفسي ومعي مئات الملايين من المحظوظين ذوي الامتياز الذين كانوا يقولون ، مثله ، إنهم اخوتي ؟ أتراه كان يفهم ، أتراه كان يفهم ؟ كان الجميع محظوظين . ولم يكن ثمة الا محظوظون . سوف يحكم أيضاً على الآخرين ، ذات يوم . وهو كذلك ، سيحكم عليه . فماذا كان يهمّ ، لو اتهم بالقتل وأعدم ، انه لم يبك في دفن أمه ؟ كان كلب سالامانو في قيمة زوجته . ولقد كانت المرأة الآلية القصيرة مذنبة على قدم المساواة مع « الباريسية » التي كان ماسون قد تزوجها أو مع ماري التي كانت ترغب في أن أتزوجها . وماذا كان يهمّ ان ريمون كان صديقي مثل سيلست الذي كان خيراً منه ؟ وماذا كان يهمّ أن تمنح ماري اليوم فمها لمارسو جديد ؟ أتراه كان يفهم إذن ، ذلك المحكوم ، واني من أعماق مستقبلي ...

كنت أختنق وأنا أنطق بهذا كله . ولكنهم كانوا قد جاءوا ينتزعون الكاهن من يديّ ، وكان الحرس يتهدّدونني . غير انه ، هو ، قد هدّأهم ونظر إليّ لحظة وهو صامت . كانت عيناه مليئتين بالدموع . وانفتل عني ، ثم اختفى .

وبعد ذهابه ، عاودني الهدوء . كنت منهكاً ، فارتميت على فراشي . وأظن اني قد نمت ، لأني أفقت وعلى وجهي نجوم . وكان ضجيج ريف يصعد إليّ . وكانت روائح ليل وأرض وملح ترطّب صدغيّ . وكان سلام هذا الصيف النائم يدخل فيّ رائعاً كأنه المدّ . وفي تلك اللحظة ، على حدود الليل ، زعقت صفارات . كانت تعلن بدء رحلات نحو عالم أصبحتُ الى الأبد

لا مبالياً به . وللمرة الأولى منذ وقت طويل . فكرت في أمي . وخيّل إليّ اني كنت أفهم لماذا اتخذت لها، في نهاية حياتها ، «خطيباً» ، ولماذا مثلت دور البدء من جديد . هناك ، هناك أيضاً ، حول هذا المأوى الذي كانت فيه حيواتٌ تنطفيء ، كان المساء شبيهاً بهدنة كئيبة . لا بدّ أن أمي ، وقد اقتربت هذا القرب من الموت ، كانت تُحسّ نفسها محرّرة ومستعدّة لأن تعيش كل شيء من جديد . لم يكن لأحد ، لأحد على الاطلاق ، الحق في أن يبكي عليها . وأنا أيضاً ، أحسستني مستعدّاً لأعيش كل شيء من جديد . لكأنّ هذا الغضب العظيم قد طهّرني من الشرّ ، وأفرغني من الأمل ، وأمام هذا الليل المحمّل بالعلامات وبالنجوم ، كنت انفتح للمرة الاولى على لامبالاة العالم . وإذ شعرت بالعالم شبيهاً بي الى هذا الحدّ ، أخوياً في آخر الأمر ، أحسست اني سبق ان كنت سعيداً ، وأني كنت ما أزال سعيداً . ولكي يكتمل كل شيء ، ولكي أحسّني أقلّ توحّداً ، كان يبقى لي أن أتمنى أن يكون هناك كثير من المشاهدين يوم تنفيذ الإعدام بي ، وأن يستقبلوني بصرخات مليئة بالحقد والكراهية .

الزوجة الخائنة

منذ لحظة وذبابة نحيلة تحوم في الناقلة ، بالرغم من ان زجاج النافذة كان مفتوحاً . وكانت وقحة تروح وتجيء بلاضجة، منهوكة الطيران . وأضاعتها جانين بنظرها ثم رأتها تحط على يد زوجها الجامدة . كان الطقس بارداً ، وكانت الذبابة ترتجف عند كل هبة ريح رملية تئن حين تصفع الزجاج . وعلى الضوء الخفيف في صباح شتوي كانت الناقلة تتدحرج وتهتز تكاد لا تتقدم ، محدثة ضجة صفائح ومحاور كبيرة . ونظرت جانين الى زوجها . كان مارسيل يشبه حيواناً حرناً بخصل شعره المبيض المزروع منخفضاً عند الجبين المقطب، وأنفه العريض ، وفمه الشاذ . وكانت تشعر به وهو يقفز عليها عند كل حفرة من الأرض المنخفضة ، ثم يدع صدره الثقيل يسقط على ساقيها المنفرجتين، ثابت النظرات ، وقد عاد الى جموده وغيبته . وكانت يداه الضخمتان الخاليتان من الشعر واللتان جعلتهما قطعة الفنيلا التي تتجاوز أكمام القميص وتغطي القبضتين أشد قصراً ، كانتا تبدوان وحدهما تتحركان . وكانتا تشدان بقوة حقيبة من قماش كانت موضوعة بين ركبتيه حتى انهما كانتا تبدوان وكأنهما لا تشعران بطيران الذبابة المتردد .

وفجأة سُمعت الريح تصفر بوضوح والضباب المعدني الذي كان يحيط الاوتوكار يزداد كثافة . وكان الرمل الآن يتساقط على الزجاج حفنات كما

لو كانت أياد غير مرئية تقذفه . وحرّكت الذبابة جناحاً مرتجفاً . وانثنت على قدميها وطارت . وتباطأت الناقلة وبدت وكأنها تتوقف . ثم بدت الريح تهدأ ، والضباب ينقشع قليلاً . واستأنفت الناقلة سرعتها . وانكشفت ثقوب ضوء في المنظر الغارق بالغبار . وانبثقت في الزجاج شجرتا نخيل او ثلاث ، نحيلة ، مبيضة ، كانت تبدو وكأنما قد قدّت من معدن ، لتختفي اللحظة التالية .

وقال مارسيل : — « أي بلد هذا ! » .

وكانت الناقلة مليئة بعرب كانوا يتظاهرون بالنوم ، وهم غارقون في برانسهم . وكان بعضهم قد ردوا أقدامهم على المقعد فاهتزوا اكثر من الآخرين تبعاً لحركة الناقلة . وقد انتهى صمتهم وجمودهم بأن ثقلا على جانين . وكان يبدو لها وكأنها تسافر منذ أيام ، برفقة هذا الموكب الأخرس . ومع ذلك ، فان الناقلة قد تحركت عند الفجر من محطة السكة الحديدية ، وهي تتقدم ، منذ ساعتين ، في الصباح البارد على نجد حجري ، شديد الكآبة ، يبسط خطوطه المستقيمة — في المنطلق على الأقل — حتى آفاق محمرة ، ولكن الريح كانت قد هبت ثم اجتاحت المسافة الشاسعة . ومنذ تلك اللحظة كان المسافرون قد كفّوا عن رؤية أي شيء . ثم كان كل واحد تلو الآخر يلزم السكون ، ويبحر في صمت ليلة بيضاء ، وهم يمسحون احياناً شفاههم وعيونهم المهتاجة من الرمل الذي كان يتسرب الى العربة .

« جانين ! » وارتعدت لنداء زوجها . وفكرت مرة أخرى كم كان هذا الاسم مضحكاً ، بالنسبة لطولها وامتلائها . كان مارسيل يود ان يعرف اين يوجد صندوق النماذج . وفتشت بقدمها المسافة الفارغة تحت المقعد فوجدت شيئاً قرّرت انه كان الصندوق . لم تكن تستطيع أن تنحني بالفعل من غير أن تختنق قليلاً . ومع ذلك فقد كانت في الكلية الأولى في الرياضة وكان نفَسها لا ينضب . أتراه قد مضى وقت طويل جداً على ذلك ؟ خمسة وعشرون عاماً . خمسة وعشرون عاماً لم تكن شيئاً ما دام يخيل اليها أنها إنما كانت أمس وحسب

تردد بين الحياة الحرّة والزواج ، أمس فقط كانت تفكر بقلق هذا اليوم الذي ربما كانت ستشيخ فيه وحدها . ولم تكن وحدها ، وطالب الحقوق هذا الذي لم يكن يريد قط أن يتركها هو الآن بالقرب منها . كانت قد انتهت بأن قبلته بالرغم من انه كان قصيراً بعض الشيء ، ومن أنها لم تكن تحب كثيراً ضحكته النهمة والمقتضبة ، ولا عينيه البارزتين اكثر مما ينبغي . ولكنها كانت تحب شجاعته في أن يعيش ، هذه الشجاعة التي كان يتقاسمها مع فرنسيّ هذا البلد . وكانت تحب أيضاً هيئته الخائبة عندما كانت الحوادث أو الناس يخيبون أمله . وكانت تحب خاصة ان تُحَب . وكان قد أغرقها بالعنايات . ولشدة ما كان يشعرها غالباً بأنها كانت موجودة من أجله ، كان يجعلها توجد حقاً . لا ، لم تكن وحدها ..

وكانت الناقلة تشق لنفسها بأصوات كبيرة من بوقها ، ممراً خلال الحواجز التي الا تُرى ، ومع ذلك ، لم يكن أحد في العربة يتحرك . وشعرت جانين فجأة بأنه كان يُنظر اليها . واستدارت نحو المقعد الذي يكمل مقعدها ، من الناحية الأخرى من الممر . ولم يكن هذا الذي ينظر اليها عربياً . واستغربت انها لم تكن قد لاحظته منذ الرحيل . كان يرتدي لباس وحدات الصحراء الفرنسية وقبعة من القماش الأسمر المتدلية على سحنته المدبوغة الشبيهة بابن آوى والطويلة المدببة . وكان يتفحصها ملياً بعينيه الفاتحتين في شيء من العبوس . واحمرت فجأة ثم التفتت نحو زوجها الذي كان لا يزال ينظر أمامه في الضباب والريح . والتفّت بمعطفها . ولكنها كانت ما تزال ترى الجندي الفرنسي ، الطويل النحيل جداً ، بصدارته المحكمة حتى انه كان يبدو كأنما قد صُب من مادة جافة قابلة للتفتت ، مزيج من رمل وعظام . في هذه اللحظة فقط رأت أيدي العرب النحيلة ووجوههم المحروقة التي كانت أمامها ، ولاحظت المساحة الواسعة التي يحتلونها ، بالرغم من ثيابهم الفضفاضة ، على المقاعد التي كانت هي وزوجها تحتل جزءاً صغيراً منها . وردت عليها أذيال معطفها . ومع ذلك فانها لم تكن ضخمة جداً ، بل كانت بالاحرى طويلة وممتلئة ، شهوانية

وشهية ، وكانت تشعر بذلك من أنظار الرجال ، بوجهها الطفولي بعض الشيء ، وعينيها النضرتين البراقتين ، المتناقض مع هذا الجسم الضخم الذي كانت تعلم انه كان دافئاً ومستريحاً .

لا . لم يكن يحدث شيء كما سبق ان ظنت ، حين كان مارسيل يريد أن يصحبها في رحلته . كانت قد مانعت ، كان يفكر منذ زمن طويل بهذه الرحلة ، منذ نهاية الحرب بالضبط ، أي في الوقت الذي عادت فيه الأعمال إلى مجراها الطبيعي. فقبل الحرب ، كانت تجارة الأقمشة الصغيرة التي ورثها عن أهله ، عندما ترك دروسه في الحقوق ، تؤمن لهما عيشة تميل إلى أن تكون حسنة. وعلى الشاطىء يمكن لسني الشباب أن تكون سعيدة ولكنه لم يكن يحب كثيراً المجهود الجسدي ، ولهذا سرعان ما كفّ عن اصطحابها الى الشواطىء . ولم تكن السيارة الصغيرة تخرجهما من المدينة الا للنزهة يوم الأحد . أما بقيـــة الأيام فكان يفضل مخزنه المليء بالأقمشة المتعددة الالوان ، القائم في ظل قناطر هذا الحي الذي يتقاسم السكنى فيه الأهلون والأوروبيون. وكانا يعيشان فوق المخزن في ثلاث غرف مزينة بطنافس عربية وأثاث من «بربيس»، ولم يكونا قد أنجبا أطفالاً . وكانت السنوات قد انقضت في الظل الذي كانا يتعهدانه ، ونوافذهما نصف مغلقة . وفي الصيف ، كان كل شيء بعيداً : الشواطىء ، والنزهات وحتّى السماء . لم يكن يبدو ان شيئاً يهم مارسيل سوى عمله . وكانت قد اعتقدت انها اكتشفت هوسه الحقيقي ، الذي كان المال ، ولم تكن تحب ذلك ولا تدري لماذا . ومهما يكن من أمر فقد كانت تفيد من المال . انه لم يكن بخيلاً ، بل كان كريماً على العكس من ذلك ، وخاصة معها . وكان يقول لها : « اذا حدث لي شيء فستكونين بمأمن » . وبالفعل ، يجب ان يأمن المرء الحاجة . ولكن أين تراه يلتجيء ، مما ليس هو بأبسط الحاجة ؟ هذا ما كانت تتساءل عنه ، بغموض ، بين الفينة والفينة . وبالانتظار ، كانت تساعد مارسيل في تدبير دخله وتحلّ محله في المخزن أحياناً . وكان الصيف أقسى الأيام اذ كانت الحرارة فيه تقتل حتّى شعور الضجر العذب .

وفجأة ، في أبان الصيف بالذات ، وقعت الحرب. فكان استدعاء مارسيل الى الخدمة العسكرية ثم سرّح . وكان النقص في الأقمشة وكان تجميد الأعمال . وكانت الطرقات المقفرة الحارة. لئن حدث شيء ما بعد الآن ، فلن يكونا أبداً بمأمن . من أجل ذلك فكر مارسيل بمجرد عودة الأقمشة الى الأسواق ان يجتاز الجنوب والمدن ذات الانجاد المرتفعة لكي يستغني عن الوسطاء ويبيع التجـــار العرب رأساً . وكان قد اراد ان يصطحبها . وكانت تعلم ان المواصلات كانت صعبة ، كانت تتنفس بصعوبة ، وكانت تفضل لو تنتظره . ولكنه كان عنيداً ، وكانت قد قبلت لأنها كانت بحاجة الى طاقة كبيرة لكي ترفض. وها هما الآن في السفر ، ولا شيء في الحقيقة ، يشبه ما كانت قد تصورته . كانت قد خافت من الحر ، وأسراب الذباب ، والفنادق الوسخة ، الملأى بروائح الانيسون . ولم تكن قد فكرت بالبرد ، وبالهواء القاطع ، وبهذه الأنجاد شبه القطبية المزدحمة بالصخور الجليدية . وكانت قد حلمت ايضاً بالنخيل وبالرمل الناعم . ولكنها ترى الآن أن الصحراء لم تكن ذلك ، ولكنها كانت فقط الحجارة ، الحجارة في كل مكان ، في السماء حيث كانت غبرة الحجارة وحدها ما تزال سائدة باردة وهادرة ، كما تسود في الأرض الحشائش اليابسة وحدها التي تنبت بين الأحجار .

وتوقف الاوتوكار فجأة . وردد السائق بضع كلمات بهذه اللغة التي كانت قد سمعتها في حياتها كلها من غير أن تفهمها ابداً . وسأل مارسيل : « ماذا هناك ؟ » فأجاب السائق ، بالفرنسية هذه المرة ، ان الرمل لا بد أن يكون قد سد جهاز إشباع الهواء ، فلعن مارسيل مرة أخرى هذا البلد . وضحك السائق بملء فمه وأكد أن ما حدث في غاية البساطة . وانه سيفتح الجهاز ثم ينطلقون بعد ذلك . وفتح الباب ، فاقتحمت الريح الباردة العربة ، وأخذت تمطر وجوههم بوابل من حبات الرمل ، وغطى العرب جميعهم أنوفهم في برانسهم وانكمشوا على أنفسهم . وصاح مارسيل : « أقفل الباب » وكان السائق يضحك وهو عائد الى الباب ، وأخذ على مهل بضع أوائل من تحت

اللوحة ، ثم اختفى من جديد نحو الامام ، صغيراً في الضباب ، من غير أن يغلق الباب. وكان مارسيل يتنهد وقال « يمكنك ان تتأكدي بأنه لم يسبق له أن رأى محركاً في حياته » وأجابته جانين : « اتركه ! » . وفجأة ، ارتعدت . فقد كانت هناك أشكال ملتحفة جامدة تنتصب على الأرض المسطحة ، قريباً جداً من العربة . ولم تكن تُرى ، تحت طاقيات البرانس ، وخلف حاجز من الغطاء ، سوى عيونهم. كانوا صامتين ، قادمين من حيث لا يدري أحد ، وكانوا ينظرون الى المسافرين ، وقال مارسيل : « انهم رعاة » .

وفي داخل العربة ، كان الصمت مطلقاً . وكان جميع المسافرين يبدون ، ورؤوسهم منحنية ، وكأنهم يستمعون الى صوت الريح المتروكة حرة في هذه الانجاد التي لا حدود لها . وفجأة استرعى انتباه جانين خلو العربة من الأمتعة خلواً شبه تام . ففي محطة السكة الحديدية ، كان السائق قد وضع حقائبهم وبعض أمتعة على ظهر العربة . وفي داخل العربة لم يكن يُرى على الشبكات سوى عصي كثيرة العقد وحقائب مسطحة ، يبدو أن مسافري الجنوب جميعهم يسافرون وأيديهم فارغة .

ولكن السائق كان يعود وهو نشيط دائماً ، وكانت عيناه فقط تضحكان فوق الغلالة التي قنّع هو أيضاً وجهه بها ، وأعلن المسير . وأغلق الباب ، فصمتت الريح ، وأصبح صوت مطر الرمال اكثر وضوحاً من ذي قبل . وسعل المحرك ثم زفر . وبعد أن جذب طويلاً بجهاز الاقلاع ، دار أخيراً فجعله السائق يهدر بضربات جهاز السرعة . وعاود الاوتوكار سيره وهو يشهق شهقة كبيرة . وارتفعت يد من بين جماعة الرعاة الخلقي الثياب ، الجامدين أبداً ، ثم تلاشت في الضباب خلفهم . وفي الحال تقريباً ، أخذت العربة تقفز على الطريق التي غدت أردأ مما كانت. وكان العرب ، في اهتزازهم ، يتأرجحون بلا انقطاع . غير ان جانين كانت تشعر بالنوم يستولي عليها عندما بزغت أمامها علبة صغيرة صفراء ، ملأى بالكاد الهندي. وكان الجندي الابن آوى يبتسم لها . فترددت ، ثم تناولت شيئاً من العلبة شاكرة . ووضع ابن آوى

العلبة في جيبه وبلع ضحكته دفعة واحدة . ثم جعل يحدق في الطريق أمامه . والتفتت جانين الى مارسيل فلم تر سوى رقبته القاسية . كان ينظر من خلال الزجاج إلى الضباب وقد ازداد كثافة وهو يتصاعد من الردم القابلة للتفتت .

وكانت قد انقضت ساعات وهم يسيرون ، وكان التعب قد أطفأ كل حياة في المركبة ، حين انبعثت صرخات من الخارج . كان أطفال يرتدون البرانس يركضون حول الاوتوكار ، وهم يدورون حول أنفسهم كأنهم البلابل ، وهم يقفزون ويصفقون . وكان الاوتوكار يسير الآن في طريق طويلة تكتنفها بيوت واطئة ، وهو يدخل الواحة . وكان الهواء ما يزال يصفر ، ولكن الجدران كانت توقف حبات الرمل التي كفّت عن ان تُبهت الضوء . على أن السماء ظلت مغطاة . وتوقف الاوتوكار أمام قناطر من تراب فندق وسخ الزجاج ، وسط الصرخات ، محدثاً ضجة فرامل كبيرة . ونزلت جانين . وشعرت وهي في الطريق انها تترنح . كانت تلمح ، فوق البيوت مئذنة صفراء ودقيقة . وعلى شمالها كانت تبرز شجرات النخيل الأولى في الواحة ، فكانت تود لو تتوجه نحوها . وبالرغم من أن الوقت كان حوالي الظهيرة ، فان البرد كان قارساً . وقد جعلها البرد ترتعد . وتحولت إلى مارسيل ، فرأت أولاً الجندي الذي كان يتوجه نحوها . كانت تنتظر بسمته او تحيته ؛ وتجاوزها من غير ان ينظر اليها واختفى . أما مارسيل فكان منهمكاً بانزال حقيبة الأقمشة ، صندوق صغير كان معلقاً في سقف الأوتوكار. ولم يكن ذلك سهلاً . فقد كان السائق وحده يهتم بالأمتعة وكان الآن يتوقف ، وهو منتصب على ظهر الأوتوكار ، ليثرثر أمام دائرة البرانس المجتمعة حول العربة . وكانت جانين تشعر فجأة بتعبها ، وهي محاطة بوجوه كانت تبدو منحوتة من العظم والجلد ، ومحاصرة بصرخات حلقية . وقالت لمارسيل : « اني صاعدة » وكان ينادي السائق بنفاد صبر .

ودخلت الفندق . فأقبل المدير اليها وهو فرنسي نحيل شديد الصمت ، وقادها الى الطابق الأول ، فوق رواق يطل على الشارع ، نحو غرفة كان يبدو

انها لم تكن تحوي سوى سرير واحد من حديد ، وكرسي مدهونة بالدهان الأبيض وزاوية لتعليق الثياب لا ستائر لها ، وخلف ستار من خشب الورد كان ثمة غرفة تواليت غطت مغسلتها غبرة خفيفة من الرمل . وعندما أغلق المدير الباب ، شعرت جانين بالبرد ينبعث من الجدران العارية والمطلية بالكلس . ولم تكن تعرف أين تضع حقيبتها ، وأين تسترخي هي نفسها . يجب أن تنام أو أن تبقى واقفة ، وفي كلتا الحالتين ان ترتجف . وظلت واقفة وحقيبتها في يدها ، وهي تحدق في كوة مفتوحة نحو السماء بالقرب من السقف . كانت تنتظر ، ولكن لم تكن تدري ماذا : كانت تشعر فقط بوحدتها ، وبالبرد الذي كان يتسرب اليها وبعبء أشد ثقلاً في موضع القلب . كانت في الحقيقة تحلم ، وهي شبه صماء بالنسبة للأصوات التي كانت تتصاعد من الطريق مع نبرات صوت مارسيل ، وهي على العكس من ذلك ، أشد إحساساً بضجيج النهر الذي كان يأتي من الكوة والذي كانت الريح تولده بين النخيل ، القريبة الآن جداً ، كما كان يبدو لها : ثم أخذت الريح تضاعف صفيرها ، وغدا صوت المياه العذب أنين أمواج . كانت تتصور ، خلف الجدران ، بحراً من النخيل المستقيم الرخص يتذبذب في العاصفة . لا شيء يشبه ما كانت قد انتظرته . ولكن هذه الأمواج غير المرئية كانت تنعش عينيها المتعبتين . كانت تشعر أنها واقفة ، ثقيلة متدلية اليدين ، مقوسة بعض الشيء ، وكان البرد يصعد على طول ساقيها الثقيلتين ، كانت تحلم بالنخيل المستقيم الرخص ، وبالصبية التي كانتها .

بعد أن أنهيا زينتهما ، هبطا الى غرفة الطعام . وكان مرسوماً على جدرانها العارية جِمال ونخيل غارقة في مزيج من الوردي والبنفسجي . كانت تتسرب من النوافذ ذات القناطر أشعة شحيحة ، وكان مارسيل يستعلم عن الباعة من مدير الفندق . ثم خدمهم عربي شيخ ، كان يحمل مدالية حربية على صدرته . كان مارسيل منهمكاً ، وكان يمزق خبزه ، ومنع زوجته من أن تشرب ماء .

وقال لها : «انها غير مغلية، خذي نبيذاً .» ولم تكن تحب النبيذ ؛ فقد كان يثقلها . ثم كان في الوجبة لحم خنزير . وقال لها : « ان القرآن يحرمه . ولكن القرآن لم يكن يعرف ان الخنزير المطبوخ جيداً لا يسبب أمراضاً . فنحن ، نعرف أن نطبخ . بمَ تفكرين ؟ » ولم تكن جانين تفكر بشيء، او ربما كانت تفكر بانتصار الطباخين على الأنبياء. ولكن كان عليها أن تستعجل. فهما سيرجعان بعد غد صباحاً ، متوغلين نحو الجنوب ، وكان لا بد من رؤية جميع التجار ، الهامين بعد الظهر . واستعجل مارسيل العربي الشيخ ليحضر له القهوة . فوافق برأسه ، من غير أن يبتسم، وخرج بخطوات صغيرة . وقال مارسيل وهو يضحك: «ببطء عند الصباح ، وبلا عجلة بالغة،عند المساء». ومع ذلك ، فقد وصلت القهوة أخيراً. فلم يستغرقا من الوقت الا ما يكفي لابتلاعها. ثم خرجا في الطريق المغبرة الباردة . ونادى مارسيل عربياً شاباًليساعده على حمل الحقيبة ، ولكنه ناقش مبدئياً التعويض ، وكان رأيه ، الذي أبلغه لجانين مرة أخرى يقوم في الواقع على هذا المبدأ الغامض بأن الحمّالين يطلبون دائماً الضعف ليحصلوا على الربع . وكانت جانين تتبع الحمالين وهي متضايقة . كانت قد لبست ثوباً من الصوف تحت معطفها الضخم ، وكانت تود لو تحتل مكاناً أضيق . وكان لحم الخنزير بالرغم من أنه قد طُبخ جيداً والقليل من الخمر الذي كانت قد شربته ، يعودان عليها بالارتباك أيضاً .

وحاذيا حديقة صغيرة عامة مزروعة بأشجار مغبرة . وكان العرب الذين يلتقون بهما وهم مصطفون من غير أن يبدو عليهم انهم يرونهما ، يردون أمامهم أذيال برانسهم . وكانت تؤانس لديهم هيئة من الاعتزاز لم يكن يملكها عرب مدينتها ، حتى ولو كانوا يرتدون ثياباً ممزقة . وكانت جانين تتبع الحقيبة ، التي كانت تفتح لها طريقاً بين الجمع . واجتازوا باب حاجز من طين أحمر ، ووصلوا الى ساحة صغيرةمزروعة بالأشجار المعدنية نفسها ومزدانة في الداخل ، على عرضها كله ،بالقناطر والحوانيت . ولكنهم توقفوا في الساحة نفسها ، أمام بناء صغير يشكل قنبلة صغيرة مطلية بالكلس . وفي الداخل، في الغرفة الوحيدة المضاءة فقط بباب الدخول ، كان ينتصب

خلف لوحة من الخشب اللمّاع ، شيخ عربي ذو شارب أبيض كان يقدم شاياً وهو يرفع ويخفض ابريق الشاي فوق ثلاثة أقداح من الزجاج الملون . وقبل ان يتمكنا من تمييز أي شيء آخر في ظل المخزن ، استقبلت رائحة الشاي بالنعنع الطازج مارسيل وجانين. وألفى مارسيل نفسه أمام المشرب ، بعد ان اجتاز قليلاً المدخل واكاليله المربكة بأباريق الشاي من القصدير وبالفناجين والصواني المختلطة بآلات تدور عليها البطاقات البريدية . وظلت جانين على المدخل ، وابتعدت قليلاً لكي لا تسد النور . وفي هذه اللحظة ، رأت خلف التاجر الشيخ ، في الظل ، عربيين كانا ينظران اليها وهما يبتسمان . وكانا جالسين على الأكياس الملأى التي كان جوف الحانوت مزدحماً كله بها .وكانت تتدلى على طول الجدران بسط حمر وسود ووشاحات مطرزة ، وكانت الأرض مزدحمة بالأكياس والصناديق الصغيرة المليئة بالحبوب المعطرة . وعلى المشرب ، حول ميزان كفّاه من النحاس اللماع ومقياس للأمتار قديم امّحت صوره ، كانت تنبسط أرغفة من الخبز بالسكر. كان احدها مجرداً من لفائفه من الورق السميك الأزرق ومأكولاً من طرفه . وكانت رائحة الصوف والبهارات تنتشر في الغرفة وتظهر خلف رائحة الشاي المعطرة حين وضع البائع الشيخ ابريق الشاي على المشرب وسلّم .

وكان مارسيل يتدفق بحديثه بهذا الصوت الخافض الذي كان يتخذه ليتكلم بالأعمال . ثم فتح الحقيبة ، وعرض الأقمشة والوشاحات ودفع الميزان والمتر لكي يبسط بضاعته أمام البائع الشيخ . وكان يثير أعصابه ويرفع صوته ، ويضحك بطريقة غير متزنة ، فكانت له هيئة امرأة تريد ان تعجب من غير ان تكون واثقة من نفسها . وكان يمثل الآن ، بيديه المفتوحتين على سعتهما البيع والشراء . وهزّ الشيخ رأسه ، وناول صينية الشاي للعربيين الواقفين خلفه وقال فقط بضع كلمات بدت انها خيبت مارسيل . فسحب مارسيل أقمشته ، وكدّسها في الحقيبة ، ثم مسح عن جبينه عرقاً مشكوكاً بامره . ونادى الحمّال الصغير ورجعوا نحو القناطر .

وفي المخزن الأول ، بالرغم من أن البائع كان يتكلف الهيئة المتغطرسة نفسها ، فقد كانوا أشد انبساطاً . وقال مارسيل : « انهم يعتقدون أنفسهم آلهة ولكنهم يبيعون أيضاً . ان الحياة قاسية للجميع . »

وكانت جانين تتبعه من غير ان تجيب . وكانت الريح قد هدأت تقريباً . انقطعت السماء من بعض جهات .. وكانت أشعة باردة لمّامة تتساقط من الآبار التي كانت تُحفر في سماكة الغيوم . وكانوا قد غادروا الساحة . فأخذوا يمشون في الشوارع الصغيرة ، ويحاذون جُدراً من الطين كانت تتدلى من فوقها ازهار كانون الأول الفاسدة او شجرة رمان نادرة يابسة ومدودة . وكانت رائحة الغبرة والقهوة ، ودخان نار قشور ، ورائحة الحجر والخرفان تنتشر في هذا الحي. وكانت الحوانيت المحفورة عند أذيال الجدران متباعدة فيما بينها . وشعرت جانين بساقيها تتثاقلان . ولكن زوجها كان يستعيد بشاشته قليلاً قليلاً . لقد ابتدأ يبيع ، وأصبح أكثر تسامحاً أيضاً ، وأخذ ينادي جانين : « يا صغيرة لن يكون السفر عديم الفائدة » وكانت جانين تقول : « طبعاً ، من الأفضل أن يتفاهم المرء مباشرة معهم » .

ورجعا من طريق أخرى نحو وسط البلد . وكان العصر قد تقدم ، وكانت السماء الآن منقشعة تقريباً . وتوقفا في الساحة ، وأخذ مارسيل يفرك يديه ، ويتأمل بحنو الحقيبة أمامهما. وقالت جانين : « أنظر » كان عربي طويل يتقدم من الطرف الآخر من الساحة ، وكان نحيفاً قوياً ، ملتفاً ببرنس سماوي الزرقة ، ومنتعلاً حذاء خفيفاً أصفر ، وكان يلبس قفازات ويرفع عالياً وجهاً برونزياً أقنى .

وكان القماش الشفاف الذي يلف رأسه يتيح وحده تمييزه من هؤلاء الضباط الفرنسيين المكلفين بشؤون الأهلين الذين كانت جانين قد أعجبت بهم أحياناً . كان يتقدم بانتظام من ناحيتهما ، ولكن كان يبدو انه ينظر إلى أبعد من جمعهما ، وهو يخلع بمهل أحد قفازيه . وقال مارسيل ، وهو يرفع كتفيه : « ها هو آخر يعتقد نفسه جنرالاً » . أجل لقد كانوا كلهم هنا يتسمون بهذا

المظهر من الاعتزاز. ولكن هذا الرجل كان يبالغ حقاً. وبالرغم من أن الساحة الخالية كانت تحيط بهم، فقد كان يتقدم رأساً نحو الحقيبة من غير أن يراها ومن غير ان يراهما، ثم أخذت المسافة التي تفصله عنهما تضيق بسرعة. كان العربي مقبلاً عليهما عندما أمسك مارسيل فجأة بقبضة الصندوق وجذبها نحو الخلف. ومرَّ العربي، من غير ان يبدو عليه انه لاحظ شيئاً، وتوجه بالخطى نفسها نحو الحواجز. ونظرت جانين الى زوجها. كان يبدو عليه مظهر الاستياء. وقال: «انهم يعتقدون الآن ان كل شيء مسموح به». ولم تجب جانين بشيء بل كانت تحتقر غطرسة هذا العربي البلهاء وتشعر بأنها تعيسة. كانت تود أن ترجع، وفكرت ببيتها الصغير. وكانت فكرة العودة الى تلك الغرفة المثلوجة في الفندق تثبط عزمها. وفكرت فجأة بأن مدير الفندق كان قد نصحها بأن تصعد الى شرفة القلعة حيث يرى المرء الصحراء. قالت ذلك لمارسيل وأبلغته أنّ باستطاعته أن يترك الحقيبة في الفندق. ولكنه كان متعباً. كان يود أن ينام قليلاً قبل العشاء. وقالت جانين «أرجوك» ونظر اليها فجأة بانتباه، وقال لها «بكل تأكيد يا عزيزتي».

وكانت تنتظره أمام الفندق، في الشارع. وأخذ الجمع المكتسي باللباس الأبيض يتكاثر، ولم تكن تُرى بينهم امرأة واحدة، فخيل لجانين انها لم تكن قد رأت رجالاً بهذه الكثرة. ومع ذلك فلم يكن أحد ينظر اليها. وكان بعضهم يديرون نحوها، من غير أن يبدو عليهم أنهم يرونها، هذا الوجه النحيل المدبوغ، الذي كان يجعلهم جميعاً في نظرها متشابهين، وجه الجندي الفرنسي في العربة، ووجه العربي ذي القفازات، هذا الوجه المحتال والمتكبر معاً. كانوا يديرون هذا الوجه نحو الغريبة. ولم يكونوا يرونها، ثم كانوا يمرون حولها أخفاء صامتين وأكعابهم منتفخة. وكان ضيقها وحاجتها إلى السفر يزدادان، وفكرت: «لماذا أتيت؟» ولكن مارسيل كان يهبط اليها ثانية.

عندما تسلقا درج القلعة، كانت الساعة الخامسة بعد الظهر. كانت الريح

قد سكنت تماماً . وكانت السماء المنقشعة كلها تبدو الآن بزرقة عِنّاقية . وكان البرد الذي زاد جفافاً يلذع خدودهما . وفي وسط السلم ، سألهما عربي متمدد كان ملتصقاً بالحائط ، ولكن من غير أن يتحرك كما لوكان متيقناً من انهما كانا يرفضان طلبه ، سألهما أن يكون دليلهما . وكان السلم طويلاً وصلباً بالرغم من وفرة درجاته الممهدة. وكانا كلما صعدا ، إتسعت المساحة ، وارتفعا في ضوء يزداد رحابة وبرداً وجفافاً حيث كان كل صوت في الواحة يصل اليهما بوضوح مميّز. وكان الهواء المشع يبدو مهتزاً حولهما ، اهتزازاً كان يزداد إمتداداً كلما كانا يتقدمان ، كما لو أن مرورهما كان يولد على صفحة زجاج الضوء موجة مصدية تمتد رويداً رويداً . وفي اللحظة التي وصلا فيها الى الشرفة ، ضاع نظرهما فجأة في ما وراء منبت النخل ، في الأفق الشاسع ، فخيل للجانبين ان السماء كلها كانت تصدي بنغمة واحدة رنانة وموجزة كانت أصداؤها تملأ شيئاً فشيئاً الأفق فوقها ، ثم تصمت فجأة لتتركها صامتة أمام هذا الامتداد اللامحدود .

وكان نظرها يتنقل بالفعل من الشرق إلى الغرب ، على مهل ، من غير ان تجد حاجزاً واحداً على طول الخط المنحني . وكانت شرفات المدينة الغربية الزرقاء والبيضاء تلتصق تحتها مدمّاة ببقع الفلفل الحمراء الغامقة التي كانت تجف في الشمس . ولم يكن يرى أحد . ولكن كانت ترتفع من الساحات الداخلية مع دخان قهوة كانت تغلي ، أصوات ضاحكة او تنقلات غير مفهومة . وعلى بعد مسافة قصيرة ، كانت بقعة النخيل المنقسمة إلى مربعات غير متساوية بجدران من الخزف ، تضجّ عند قمتها تحت تأثير ريح لم تكن تُحَسّ على الشرفة . وأبعد من ذلك ، وحتى الأفق ، كانت تبتديء مملكة الأحجار الحمراء الرمادية التي لا يبدو ان فيها حياة ما . وعلى بعد مسافة من الواحة فقط بالقرب من ساقية تحاذي النخيل عند الغرب ، تبدو خيام عريضة وسوداء ، يحيط بها قطيع من الجمال الجامدة الصغيرة في هذه المسافة. وكانت تتشكل على الأرض الرمادية علامات معتمة لكتابة غريبة ينبغي ان يُكتشف

معناها . وفوق الصحراء ، كان الصمت واسعاً كالفضاء .

وكانت جانين تسند جسمها كله على الدرابزين صامتة ، عاجزة عن ان تنزع نفسها من هذا الفراغ الذي كان ينفتح أمامها . وبالقرب منها ، كان مارسيل يتحرك ، كان قد برد . وكان يود ان يهبط . ما الذي يمكن ان يُرى هنا ؟ ولكنها لم تكن تستطيع ان تنزع انظارها عن الأفق . فهناك ، في اقصى الجنوب ايضاً ، في هذا المكان الذي تلتقي فيه السماء والارض في خط صاف ، هناك ، كان يبدو لها فجأة ، ان شيئاً ما ينتظرها ، شيئاً كانت قد جهلته حتى هذا اليوم، ولكنه لم يكن ليكفّ عن ان ينقصها . وفي بعد الظهر الذي كان يتقدم ، كانت الأشعة تتمدد ببطء . فبعد ان كانت جامدة ، اصبحت سائلة . وفي الوقت نفسه ، كانت هناك عقدة كونتها السنون والعادة والضجر ، تنحلّ ببطء في قلب امرأة شاء القدر وحده ان يقودها الى هنا . وأخذت تنظر الى مخيمات البدو . لم تكن قد رأت الرجال الذين كانوا يعيشون هنا ، ولم يكن شيء يتحرك بين الخيام السوداء . ومع ذلك لم تكن تستطيع ان تفكر الا بهم ، اولئك الذين لم تكد تعرف وجودهم حتى هذا اليوم . كانوا قبضة بلا منازل ، منقطعين عن العالم يتيهون على الحدود الشاسعة التي كانت تكتشفها بنظرها ، حدود لم تكن مع ذلك الا قسماً مضحكاً من فضاء اكبر بكثير ، كان امتدادها المدوّخ لا يتوقف إلا على بعد آلاف الكيلومترات نحو الجنوب . هناك ، حيث كان اول نهر يروي اخيراً الغابة وعلى هذه الأرض اليابسة ، المجردة حتى العظام ، في هذا البلد اللامتساوي، كان هناك بعض رجال يترجلون بلا هدنة، لا يملكون شيئاً، ولكنهم لا يخدمون أحداً ، اسياد بؤساء وأحرار لمملكة غريبة . ولم تكن جانين تعرف لماذا كانت هذه الفكرة تملأها بحزن كان من النعومة والرحابة الى حد جعلها تغمض عينيها . كانت تعرف فقط ان هذا الملك ، كان منذ الأزل ، مرصوداً لها، وأنها لن تستطيع مع ذلك قط ان تملكه ، ربما فقط في هذه اللحظة الهاربة ، التي فتحت فيها عينيها من جديد على السماء الجامدة فجأة وعلى أمواج اشعتها

المسمّرة ، بينما كانت الأصوات التي ترتفع من المدينة العربية تصمت بغتة . وكان يخيل اليها آنذاك أن مجرى العالم يتوقف وان احداً لن يشيخ أو يموت ابتداء من تلك اللحظة ، وكانت الحياة معلقة بعد الآن في جميع الامكنة ، إلا في قلبها حيث كان هناك ، في الوقت نفسه ، من يبكي من الضيق والاندهاش.

ولكن الأشعة اخذت تتحرك ، ومالت الشمس ، واضحة ومن غير حرارة ، نحو الغرب الذي تورّد قليلاً ، بينما ظهرت في الشرق موجة رمادية على اهبة ان تنتشر ببطء على المساحة الشاسعة . ونبح اول كلب ، وصعد صراخه البعيد في الهواء ، الذي اصبح أشد برداً . وانتبهت جانين الى أن أسنانها كانت تصطك . وقال مارسيل : « إننا نموت ، انك بلهاء ، فلنعد » . ولكنه امسك يدها بارتباك . وابتعدت عن الدرابزين وتبعته هذه المرة وهي مطيعة . وكان عربي السلم الشيخ ينظر اليهما ينزلان نحو المدينة وهو جامد . كانت تمشي من دون ان ترى احداً ، منحنية تحت وطأة تعب كبير مفاجيء تجر جسدها ، فبدا لها أن ثقله الآن أصبح غير محتمل . كان اندفاعها قد فارقها . وهي تحس نفسها في تلك اللحظة انها اكبر مما ينبغي ، واسمن مما ينبغي واشد بياضاً مما ينبغي بالنسبة لهذا العالم الذي دخلته منذ حين . كان الطفل والصبية والرجل الجاف وابن آوى الهارب ، هم المخلوقات الوحيدة التي كان باستطاعتها ان تدوس هذه الأرض بصمت . وما عساها فاعلة بعد الآن ، سوى أن تجر نفسها الى النوم والى الموت ؟

وجرّت نفسها بالفعل حتّى المطعم ، بالقرب من زوج صامت فجأة او أنه يشكو تعبه ، بينما كانت هي نفسها تقاوم بضعف زكاماً كانت تشعر منه بارتفاع الحرارة . وجرّت نفسها ايضاً حتّى السرير ، حيث وافاها مارسيل ، وانطفأ النور من غير ان يسألها شيئاً . كانت الغرفة مثلجة وكانت جانين تشعر بالبرد يجتاحها في الوقت نفسه الذي كانت فيه حرارتها ترتفع . كانت تتنفس بصعوبة وكان دمها يضرب من دون ان يدفئها ، وكان نوع من الخوف يتضخم في نفسها . وتحركت ، فطقطق سرير الحديد القديم تحت ثقلها . لا . إنها

لا تريد أن تكون مريضة . ان زوجها قد نام ، وينبغي لها هي ايضاً أن تنام . وكانت الأصوات المخنوقة المنبثقة من المدينة تنساب اليها من الكوة . وكانت الفونوغرافات القديمة المنبعثة من قهاوي المغاربة تغني الحاناً تعرفها بابهام، كانت تصلها محمولة بضجة جمع بطيئة . يجب ان تنام ولكنها كانت تعد خياماً سوداء . ووراء جفونها كانت تمر جمال جامدة وكانت تدور في نفسها وحشة هائلة . أجل ، لماذا اتت ؟ وأغفت على هذا السؤال .

واستيقظت بعد قليل . كان الصمت حولها تاماً . ولكن الكلاب المبحوحة كانت تنبح في الليل الصامت عند حدود المدينة . وارتعدت جانين وتقلبت على نفسها ، واحست بكتف زوجها القاسية تلاصق كتفها ، وفجأة ، وهي نصف نائمة ، التصقت به . كانت تنحرف نحو النوم من غير ان تنغمس فيه ، كانت تتعلق بهذه الكتف بنهم لاواع تعلقها باكثر مرافئها اماناً . كانت تتكلم ، ولكن فمها لم يكن يرسل اي صوت . كانت تتكلم ، ولكنها كانت لا تكاد تسمع حتى نفسها . ولم تكن تحس إلا حرارة مارسيل . منذ اكثر من عشرين عاماً ، وهما دائماً هكذا معاً في هذا الدفء ، كل ليلة ، حتى ولو كانا مريضين ، حتى ولو كانا في السفر . ولكن ما عساها كانت تفعل وحدها في البيت ؟ ليس ثمة من اولاد . اليس هذا ما كان ينقصها ؟ لم تكن تدري . كانت تتبع مارسيل، هذا كل ما في الأمر ، سعيدة بأن تشعر ان هناك احداً كان بحاجة اليها . لم يكن يعطيها شيئاً آخر غير غبطتها بأن تعلم نفسها ضرورية . مما لا ريب فيه انها لم تكن تحبه . فالحب ، حتى الحاقد منه ، ليس له هذا الوجه المقطب . ولكن ما هو وجهه ؟ كانا يتحابّان في الليل ، من غير ان يرى احدهما الآخر ، باللمس . هل هناك حب آخر غير حب الظلمات ؟ هل هناك حب يصرخ في وضح النهار ؟ لم تكن تدري ، كانت فقط تعلم ان مارسيل كان بحاجة اليها وأنها كانت بحاجة الى هذه الحاجة ، وأنها كانت تعيش بها في الليل والنهار ، في الليل خاصة ، كل ليلة ، حيث لم يكن يريد ان يبقى وحده ، ولا أن يشيخ ولا ان يموت ، بهذه الهيئة الحزنة

التي كان يتخذها والتي كانت تعرفها احياناً على وجوه رجال آخرين . الهيئة المشتركة الوحيدة لهؤلاء المجانين الذين يقنعون انفسهم تحت قناع العقل ، حتى يأخذهم الهذيان ويرمي بهم في يأس على جسم امرأة لكي يدفنوا فيه ، بلا رغبة ، الرعب الذي كان الليل والوحدة يبعثانه فيهم .

وتحرك مارسيل قليلاً كما لو انه يبتعد عنها . لا ، انه لا يحبها . كان يخشى مما لم يكن إيّاها . وكان ينبغي لهما ان يفترقا منذ زمن بعيد ، وان يناما وحيدين حتى النهاية ، ولكن من يستطيع ان ينام دائماً وحده؟ هناك بعض رجال يفعلون ذلك ، بعض رجال سلختهم الرسالة أو التعاسة عن الآخرين فناموا كل ليلة في سرير كسرير الموت نفسه. أما مارسيل ، فانه لن يقوى على ذلك ابداً ، هو بنوع خاص ، الولد الضعيف الأعزل الذي كان يذعره الألم دائماً ، طفلها بالذات الذي كان بحاجة اليها والذي كان يُصعد نوعاً من الزفير في الوقت نفسه . والتصقت به أشد من قبل ، ووضعت يدها على صدره . ونادته في نفسها باسم الحب الذي كانت تمنحه إياه في الماضي ، والذي كانا ما يزالان يستعملانه فيما بينهما بين الفينة والفينة من غير ان يفكرا بما يقولانه .

ونادته من كل قلبها . هي ايضاً ، بعد كل شيء . كانت بحاجة اليه ، إلى قوته ، الى عاداته الصغيرة ، وهي ايضاً كانت تخاف ان تموت . وكانت تقول : « ان استطعت ان اتغلب على هذا الخوف ، فسأصبح سعيدة » وإذ ذاك اجتاحها قلق لا اسم له . فابتعدت عن مارسيل . لا . انها لم تكن تتغلب على شيء ، ولم تكن سعيدة ، وهي سوف تموت ، بالفعل ، من غير أن تكون قد تحرّرت . وكان قلبها يؤلمها ، كانت تختنق تحت وطأة ثقل كبير اكتشفت فجأة انها كانت تجرّه منذ عشرين سنة ، وهي تتخبط الآن فيه بكل قواها . انها تود ان تُنقَذ حتى ولو لم يُنقذ مارسيل قط ، حتى ولو لم يُنقذ الآخرون . واذ استيقظت ، استقامت في سريرها وارهفت اذنها لنداء بدا لها قريباً جداً . ولكن أصوات كلاب الواحة المرهقة كانت تصلها وحدها من أطراف الليل . وكانت ريح خفيفة قد هبت فسمعت صوت المياه

الخفيفة تنساب في النخيل . كانت الريح تأتي من الجنوب ، حيث تمتزج الآن الصحراء والليل تحت سماء ثابتة من جديد ، هناك حيث كانت تتوقف الحياة ، فلا يشيخ فيها احد او يموت . ثم جفت مياه الهواء ولم تعد متأكدة من أنها كانت قد سمعت شيئاً ، سوى نداء صامت كانت تستطيع ، بارادتها ، ان تخرسها او تحسه ، ولكنها لن تستطيع ابداً أن تفهم معناه ، ان لم تستجب له في هذه اللحظـــة ، في هذه اللحظة ، أجـــل ، فقد كان هذا النداء على الأقل اكيداً .

ونهضت ببطء وبقيت جامدة بالقرب من السرير متنبهة لتنفس زوجها . كان مارسيل ينام . وفي اللحظة التالية فارقتها حرارة السرير وامتلكها البرد . فارتدت ثيابها على مهل وهي تتلمس ثيابها على الضوء الباهت الذي كان ينفذ من مصابيح الشارع عبر شبابيك الواجهة . واقتربت من الباب وحذاؤها بيدها . وانتظرت لحظة ايضاً في الظلمة ثم فتحت الباب بلطف ، فأزّ المقبض فجمدت . وأخذ قلبها ينبض بجنون . ومدّت اذنها ، وقد طمأنها الصمت ، وتابعت فتح الباب . وخيل لها ان دوران مقبض الباب لا نهاية له . وأخيراً فتحت وانسلّت الى الخارج واغلقت الباب بالحذر نفسه . ثم اخذت تنتظر ، وخدها ملتصق بالخشب . وبعد لحظة ، احست بتنفس مارسيل بعيداً . ورجعت ، وقد صعقها هواء الليل المثلج وركضت على طول الرواق . كان باب الفندق مقفلاً . وبينما كانت تعالج القفل ، بدا حارس الليل في أعلى السلم ووجهه مختلط وكلّمها بالعربية . وقالت جانين : « سوف أعود » ثم ارتمت في الليل .

كانت اكاليل نجوم تتدلى من السماء السوداء فوق شجرات النخل والمنازل . واخذت تركض على طول الجادة القصيرة، المقفرة الآن، والتي تؤدي الى القلعة . كان البرد قد اجتاح الليل اذ لم يعد له ان يُقاوم ضد الشمس . كان الهواء المثلج يحرق رئتيها . ولكنها كانت تركض ، نصف عمياء ، في الظلمة . غير ان بعض اشعّة تراءت على الجادة ، ثم هبطت نحوها بخطوط معوجة

وتوقفت، فأحست صوت جناح غمدي، ثم رأت خلف الأشعة التي كانت تتضخم ، برانس كبيرة كانت تلمع تحتها عجلات دراجات رخصة . ولامستها البرانس . وانبثقت خلفها ، في الظلمة، ثلاث طلقات نارية ثم اختفت في الحال . وعاودت ركضها نحو الحصن . واصبح اشتعال الهواء في رئتيها ، عند منتصف السلم ، قاطعاً الى حد أرادت معه ان تتوقف . وقذفها اندفاع اخير بالرغم منها الى الشرفة على الحاجز الذي كان يضغط على بطنها الآن . كانت تلهث وكان كل شيء يختلط أمام ناظريها . ولم يكن الركض قد ادفأها، فهي ما تزال ترتجف بكل اعضائها . ولكن الهواء البارد الذي كانت تبلعه دفعات كان يسيل بانتظام فيها ؛ وابتدأت حرارة حيية تولد وسط الرعشات . وانفتحت عيناها اخيراً على مسافات الليل .

ولم يكن أي نفس او ضجيج يعكر الوحدة والصمت اللذين كانا يلفّان جانين ، باستثناء فرقعة احجار مخنوقة احياناً كان البرد يحيلها الى رمل . ومع ذلك ، فقد خيل لها بعد لحظة ان نوعاً من الدوران الثقيل يجر السماء فوقها. وفي كثافات الليل الجاف البارد ، كانت آلاف النجوم تتشكل، بلا انقطاع . وكان جليدها اللمّاع ، المنفصل عنها فجأة ، ينزلق بمهل نحو الأفق . ولم تكن جانين تستطيع ان تنزع نفسها عن تأمل هذه النيران التائهة . كانت تدور معها ، وكان السير الجامد نفسه يجمعها قليلاً قليلاً بأعمق كينونتها حيث كان البرد والرغبة يتصارعان . وبالقرب منها ، كانت النجوم تتساقط ، واحدة تلو الأخرى ، ثم تنطفيء بين احجار الصحراء، فكانت جانين عند كل سقوط تتفتح على الليل اكثر من ذي قبل . كانت تتنفس ، وقد نسيت البرد وثقل الكائنات ، والحياة البلهاء او المسمرة ، والقلق الهائل في ان تعيش او تموت . فبعد سنوات عديدة كانت تهرب خلالها من الخوف ، كانت قد ركضت بجنون ، وبلا هدف ، ثم توقفت اخيراً . كان يبدو لها في الوقت نفسه انها تجد جذورها ، وكان النسغ يصعد من جديد في جسمها الذي كفّ عن الارتجاف . وكانت تنتظر فقط ، وهي ضاغطة بطنها على

الحاجز ، ممتدة نحو السماء المتحركة، ان يهدأ قلبها بدوره، اذ كان ما يزال مضطرباً، وان يسود الصمت فيها . واخذت آخر نجوم تترك عناقيدها تتدلى انخفض بقليل على افق الصحراء، ثم تجمدت ، وإذ ذاك ابتدأت مياه الليل تملأ جانين بعذوبة غير محتملة ، وتُغرق البرد ، وتصعد قليلاً قليلا من غور كيانها الغامض وتفيض بأمواج لا تنقطع حتى فمها المليء بالآهات . وفي اللحظة التي تلت ، كانت السماء كلها تمتد فوقها ، وهي منكبة على الأرض الباردة .

وعندما عادت جانين ، بالحذر نفسه ، لم يكن مارسيل قد استيقظ بعد . ولكنه هدر عندما اضطجعت ، وبعد لحظات انتصب فجأة . وتكلم فلم تفهم ما كان يقوله . ونهض فأشعل النور الذي صفعها في ملء وجهها . ومشى وهو يتمايل نحو المغسلة وشرب طويلاً من زجاجة الماء المعدني التي كانت على المغسلة . وكان على وشك ان ينسل تحت الأغطية ، حين نظر اليها ، واحدى ركبتيه على السرير ، من غير أن يفهم . كانت تبكي بكل دموعها ، من غير أن تستطيع ان تتمالك نفسها . وكانت تقول :

ـ ليس الأمر بذي بال يا عزيزي . ليس الأمر بذي بال .

الجاحد

او

فكر مشوّش

«أية فوضى ! اية فوضى ! يجب ان أنظّم الاشياء في رأسي ، فمنذ ان قطعوا لي لساني ، أخذ لسان آخر ، لا ادري ، يمشي بلا انقطاع في مخي ، شيء ما يتحدث أو أحد ما ، يصمت فجأة ثم يبتدىء كل شيء من جديد . أوه ، انني أسمع اشياء اكثر مما ينبغي . ومع ذلك فلست أنا الذي أقولها . أية فوضى ! وان أنا فتحت فمي ، صعدت ضجة شبيهة بضجة البحص حين يُحرّك . إن اللسان يقول : بعض التنظيم ، بعض التنظيم ، وفي الوقت نفسه يتكلم عن اشياء اخرى. أجل لقد كنت دائماً اشتهي الترتيب . هناك على الأقل شيء واحد مؤكد ، هو انني انتظر الرسول الذي عليه ان يأتي ليحل محلي . انني هنا ، في الطريق ، على بعد ساعة من « تاكازا » ، مختبيء بين ردم من الصخور ، جالسٌ على البندقية القديمة . النهار يطلع على الصحراء ، والطقس مايزال بارداً جداً. بعد قليل ، سيصبح الحر أشدّ من أن يُحتمل . هذه الأرض تبعث على الجنون ؛ وأنا هنا منذ سنوات لا أعرف لها بعد حساباً . لا . قليلاً من الجهد بعد. لابد للرسول من أن يأتي هذا الصباح او هذا المساء . لقد سمعت انه سوف يأتي مع دليل ، وربما لم يكن لهما كليهما الا جمل واحد. سوف انتظر . انني انتظر . ولكن البرد ، البرد وحده يجعلني ارتجف ، تصبّر بعد ، ايها العبد القذر .

لقد مضى وقت طويل وأنا اتصبّر حين كنت في بيتي ، هناك في هذا النجد المرتفع من « المسيف سنترال » ، كنت أود أن أذهب ، وأن اترك كل شيء ، أبي الخشن ، وأمي الفظة ، والخمر وحساء شحم الخنزير اليومي ، الخمر بنوع خاص الحامز والبارد ، والشتاء الطويل، والحصية المثلجة ، وركام الثلوج ، والنباتات المقرفة ؛ كنت أود أن اترك كل هذا لأبدأ اخيراً حياتي في الشمس الى جانب المياه الصافية . وآمنت بالكاهن، وكان يحدثني عن الدير ، ويعنى بي كل يوم ، فقد كان لديه الوقت في هذا البلد البروتستانتي الذي كان يلتصق فيه بالجدران عندما كان يجتاز الضيعة . كان يحدثني عن مستقبلما وعن الشمس وكان يقول : ان الكاثوليكية هي الشمس. وكان يجعلني اقرأ ، فأدخل اللاتينية في رأسي القاسي وكان يقول : « ان هذا الصغير ذكي ، ولكنه بغل.» وقد كان مخي قاسياً الى حد لم ينزف الدم قط في حياتي كلها بالرغم من جميع سقطاتي . وكان والدي ، هذا الخنزير يقول عني : « رأس البقرة » وفي الدير ، كانوا جميعاً فخورين، فالمتنسك الجديد في بلاد بروتستنتينية يعتبر نصراً ، ولقد رأوني أصل كشمس اوسترلتز . « باليشون »الشمس، هذا صحيح ، بسبب الكحول ، فلقد شربوا الخمر الحامز فكانت اسنان أطفالهم منخورة ؛ ان ما يجب ان يفعل ، هو قتل الأب ، ولكن ليس هناك من خطر في الواقع في ان يندفع في الرهبنة ما دام هو قد مات منذ زمن طويل ، إذ انتهى الخمر الحامز بان خرق معدته ، لم يعد هناك الا قتل الرسول .

وأن لدي حساباً سأصفيه معه ومع اسياده ، مع معلميّ الذين خدعوني . مع اوروبا القذرة. ان جميع الناس قد خدعوني ، ولم يكن في فمهم إلا كلمة الرسالة؛ يجب الذهاب الى المتوحشين ليقال لهم : « هذا هو ربي ، انظروا اليه ، انه لا يضرب قط ولا يقتل ، انه يأمر بصوت عذب ، ويمد خدّه الآخر ، انه اكبر الأسياد ، اختاروه ، انظروا كيف جعلني احسن من قبل ، اهينوني وسوف ترون الدليل . أجل لقد آمنت وشعرت نفسي خيراً من قبل ، كنت قد تضخمت ، كنت جميلاً تقريباً ، وكنت اطلب

إهانات . فعندما كنا نمشي صفوفاً مكتظة وسوداء ، في الصف ، تحت شمس غرونوبل ، وعندما كنا نلتقي بفتيات مرتديات أثواباً خفيفة ، لم اكن انا اصرف عيني عنهن، كنت احتقرهن وكنت انتظر ان يُهنّي وكن يضحكن احياناً . وعندها كنت افكر : « ليضربني وليبصقن في وجهي » . ولكن ضحكتهن، كانت في الحقيقة شبيهة بذلك، اذ كانت مقنفذة بالاسنان وبالاطراف الحادة التي كانت تمزقني ؛ ان الاهانة ، والألم كانا لذيذين . ولم يكن مرشدي يفهم حين كنت ارهق نفسي . وكان يقول لي: « ولكن لا. ففيك شيء جيد » . شيء جيد ! كل ما هناك انه كان فيّ خمر حامز . وكان ذلك افضل، فكيف يمكن للمرء ان يتحسن اذا لم يكن رديئاً ؟ ولقد فهمت ذلك في كل ما كانوا يعلمونني إياه . ولم اكن قد فهمت هذا . إلا فكرة واحدة سرت بها ، أنا البغل الذكي ، حتى النهاية . كنت اتجاوز العقوبات . وامتنع عن المألوف ؛ كنت أود أن اكون في نهاية الأمر ، أنا ايضاً ، مثلاً يُحتذى ، ليراني الناس ، ويسبحوا فيّ الاله الذي كان قد جعلني خيراً من قبل .

اية شمس شرسة ! انها تبزغ ، فتتبدل الصحراء . لم يعد لها لون الجبال البنفسجي . اي جبل مدهش هو جبلي ، وهذا الثلج، الثلج الرخو الناعم ، لا بل هو اصفر مائل الى الرمادي شبيه بلون يحيل الصحراء الى لون اصفر رمادي بعض الشيء . الساعة الجاحدة التي تسبق التألق الكبير . لا شيء ، لا شيء بعد يمتد امامي حتى الأفق ، هناك حيث يختفي النجد في دائرة من الألوان التي ما تزال رخصة . وخلفي يرتفع الميدان حتى الكثيب الذي يخفي تاغازا ، ذلك الاسم الحديدي الذي ظل يقرع رأسي منذ عدة سنوات وكان اول من حدثني عنها الكاهن الشيخ نصف الأعمى الذي كان يعتزل للصلاة في ديرنا . ولكن لماذا اقول الاول، فقد كان الوحيد . ولم يكن قوله بانها مدينة الملح، والجدران البيضاء التي ترتفع في الشمس المحرقة ، هو ما اثارني في قصته ؛ لا ، إن ما اثارني هو حديثه عن قسوة سكانها المتوحشين ، وعن المدينة المغلقة بوجه جميع الغرباء ، عن الشخص الوحيد من الذين كانوا قد حاولوا ان يدخلوها . الوحيد ، حسب معرفته ، الذي استطاع ان يصف ما

كان قد رأى . كانوا قد جلدوه واخرجوه الى الصحراء بعد أن وضعوا الملح ، في جروحه ، وفي فمه ؛ فالتقى برعاة كان من حظه ان أشفقوا عليه مرة . ومنذ ذلك الوقت ، وأنا أحلم بهذه القصة ، بنار الملح والسماء ، ببيت الأصنام وبعبيده. فهل هناك شيء اكثر وحشية واثارة . أجل كانت رسالتي تكمن هنا ، وكان عليّ ان اذهب لأدلهم على إلهي .

وفي الدير ، القوا عليّ خطباً ليثبطوا عزيمتي ويدعونني الى وجوب التريث . فليست تلك البلاد صالحة للتبشير ، ولم اكن انا ناضجاً ، فعلي ان اهيىء نفسي تهيئة خاصة فأعرف من أنا ، ويجب ايضاً ان امتحن نفسي ، وفيما بعد ، يدرسون القضية ، ولكن هل عليّ ان أنتظر دائماً ؟ اه ، لا . ولكن اجل عليّ ان انتظر ، ان كانوا يقصدون التهيئة الخاصة والاختبارات ما دامت تحصل في مدينة الجزائر فتقربني من المدينة التي احلم بها ؛ أما فيما عدا ذلك ، فقد كنت اهز رأسي القاسي واردد الشيء نفسه ، بأن التحق بأشد الناس وحشية ، وان اعيش عيشتهم ، والذهاب حتى معبدهم ، فأظهر لهم بالمثل ، ان حقيقة إلهي هي الحقيقة الاقوى . وسوف يهينونني ، بلا شك . ولكن الاهانات لم تكن تخيفني ، فقد كانت ضرورية للتدليل ، وبالطريقة التي سوف احملها ، سوف أخضع هؤلاء المتوحشين كأنني شمس جبارة . جبار ، أجل ، لقد كانت هذه هي الكلمة التي كنت الوكها بلا انقطاع على لساني. كنت احلم بالسلطة المطلقة، السلطة التي تُركع ، التي تجبر الخصم على الإستسلام ، وتهديه اخيراً . كان الخصم اعمى، قاسياً ، واثقاً من نفسه ، مغموراً بعقيدته ، كلما كان اعترافه يعلن ملكوت من سبّب هزيمته . وكان هدي اشخاص طيبين ضائعين بعض الشيء ، مثّل كهاننا الاعلى الداعي الى الشفقة . كنت احتقرهم بأن يستطيعوا كثيراً وان لا يجرؤوا الا قليلاً جداً . لم يكونوا يملكون الايمان وكنت قد ملكته ؛ كنت اريد ان يعرفني الجلادون انفسهم ، فاركعهم واقول لهم : « يا إلهي ، هذا هو نصرك » ، او كنت أريد ان احكم اخيراً بسلطة الكلمة وحدها على جيش من الأشرار . آه .

لقد كنت واثقاً من انني سأحسن المنطق في هذا الموضوع ، ولم اكن قط واثقاً من نفسي بغير هذا الشكل . ولكن حين املك فكرتي ، فانني لا افلتها ، وهنا تكمن قوتي ، أجل قوتي التي كانوا جميعاً يشفقون عليها .

الشمس ما تزال مرتفعة ، وجبيني قد أخذ يلتهب . واخذت الأحجار من حولي تفرقع خفية . وكانت فوهة البندقية وحدها رطبة ، رطبة كالحقول ، كمطر المساء ؛ في الماضي ، عندما كان الحساء يغلي بهدوء ، كان ابي وأمي ينتظرانني ، ويبتسمان لي احياناً ، وربما كنت احبهما . ولكن ذلك قد انتهى ، فقد بدأ حجاب من الحرارة يرتفع في الدرب . تعال أيها المبشر ، انني انتظرك ، فأنا اعرف الآن ما يجب ان اجيب به على الرسالة ، فأساتذتي الجدد قد اعطوني في ذلك درساً ، وأنا أعلم انهم محقّون ، فيجب ان اصفّي حساب الحب . وعندما هربت من الدير ، في الجزائر ، كنت اتصورهم ، هؤلاء المتوحشين ، تصوراً آخر . وكان شيء واحد حقيقياً في أحلامي ، وهو انهم أشرار . أما أنا ، فكنت قد سرقت صندوق امين الصندوق وخلعت ردائي ، واجتزت الأطلسي ، والانجاد المرتفعة والصحراء ، وكان سائق شركة النقل الصحراوية يسخر مني ويقول : « لا تذهب الى هناك » . هو ايضاً ؟ ما شأنهم جميعاً ؟ وأمواج الرمل الممتدة على مئات من الكيلومترات ، المحتدمة في مدها وجزرها تحت الريح ، والجبل من جديد ، المزروع كله بالأعلام السوداء ، ذو الزوايا الحادة كا لحديد . ومن وراء الجبل ، يتوجب وجود دليل للذهاب الى بحر الحصى الأسمر ، المترامي الى مالا نهاية ، المزمجر من الحر ، الملتهب بمئة مرآة مزروعة بالنيران حتى هذا المكان عند الحدود الفاصلة بين بلاد السود والبلد الأبيض ، حيث ترتفع مدينة الملح . وكان الدليل قد سرقني ، بسبب سذاجتي ، سذاجتي الدائمة ، بعد ان كنت قد اظهرت مالي أمامه ، ولكنه تركني في الميدان ، من هنا ، بعد ان ضربني وهو يصيح : « أيها الكلب ! هذه هي الطريق ، ان لي شرقاً ، إذهب ، إذهب الى هناك ، فسوف يعلّمونك » . ولقد علّموني ، أوه ، أجل ،

إنهم كالشمس التي لا تني إلا في الليل تلفح دائماً ، بتوهج وفخر ، كما تلفحني بشدة الآن ، بشدة اكثر مما ينبغي ، كضربات رمح ملتهب خرج فجأة ، من الأرض . فالى المخبأ ، أجل الى المخبأ ، تحت الصخرة الكبيرة ، قبل أن يختلط كل شيء .

الظل هنا مريح . فكيف يمكن العيش في مدينة الملح ، في جوف هذه الخابية الممتلئة بحرارة بيضاء ؟ فعلى كل جدار من الجدران المستقيمة المنحوتة بضربات معول ، المصقولة صقلاً غليظاً ، تقنفذ الحفر المتروكة من المعول خراشيف باهرة ، وهناك رمل اشقر متناثر يجعلها صفراء بعض الشيء ، إلا عندما تنظف الريح الجدران المستقيمة والسطوح ، وعندها يتألق كل شيء في بياض ساطع ، تحت سماء منظفة هي ايضاً حتى قشرتها الزرقاء. وكنت اصبح اعمى ، في تلك النهارات التي يتأجج فيها حريق لا يتزحزح مدة ساعات فوق سطائح بيضاء كانت تبدو انها تلتقي جميعاً ، كما لو انهم ، ذات يوم ، كانوا قد غزوا معاً جبلاً من الملح ، فمهدو اولاً ثم حفروا الطرقات وداخل المنازل ، والنوافذ ، او كأنها ، وهذا اصح ، كانت قد قطعت جهمنها البيضاء الملتهبة بأنبوب ماء مغلي ، لكي يدللوا بالفعل ان باستطاعتهم ان يسكنوا حيث لا يستطيع انسان قط ان يعيش لمدة ثلاثين يوماً ويظل حياً في هذه الحفرة وسط الصحراء ، حيث تقف حرارة النهار مانعاً لاي احتكاك بين الكائنات ، وتنصب بينهم نوارج من اللهب الخفي والبلور المحرق ، حيث يجمدهم برد الليل واحداً واحداً من دون استطراد في قواقعهم المجوهرة ، اولئك السكان الليليين في كتلة جليد ناشفة ، سكان الاسكمو السود الذين يرتجفون دفعة واحدة في مساكنهم الجليدية المكعبة. أجل ، هم سود ، لأنهم يرتدون الأقمشة السوداء الطويلة . ويترك الملح الذي يغمرهم حتى اظافرهم ، الملح الذي يجترونه بمرارة في نومهم القطبي ، والذي يشربونه ممزوجاً بالماء إذ يصلهم الى النبع الوحيد في جوف حفرة لماعة ، هذا الملح يترك على ثيابهم الداكنة ، علامات شبيهة بسحائب البزاق بعد المطر .

المطر ، يا الهي ، مطرة واحدة حقيقية ، طويلة ، قاسية، مطرة من سمائك ! وعندها تسترخي هذه المدينة المخيفة ، ببطء ، ومن غير مقاومة . واذ تذوب كلها في سيل لزج ، فانها تحمل سكانها الوحوش نحو الرمال . يا الهي ! ولكن ماذا ، أي اله ادعو ، انهم هم الآلهة . انهم يحكمون بيوتهم المجدبة ، وعبيدهم السود الذين يفنونهم في المناجم ، فكل لوحة من الملح المقطّع تساوي رجلاً في بلاد الجنوب . انهم يمرون ، صامتين ، وهم متشحون بوشاح الحداد ، في بياض الشوارع المعدني . وعندما يهبط الليل ، وتبدو المدينة كلها شبحاً من الحليب ، يعودون ، وهم منحنون ، فيدخلون في ظلمة مساكنهم حيث تلمع جدران الملح لمعاناً خفيفاً . انهم ينامون نوماً لا ثقل فيه ، وعندما يستيقظون يأمرون ، ويضربون ، ويقولون انهم ليسوا إلا شعباً واحداً ، وان الهم هو الاله الحقيقي ، وأن الطاعة واجبة . هؤلاء هم أسيادي ، انهم يجهلون الشفقة ، وكالاسياد يريدون ان يوجدوا وحدهم ، ان يتقدموا وحدهم ، ان يحكموا وحدهم ، ما داموا هم وحدهم الذين قد ملكوا الجرأة في أن يبنوا على الملح والرمال مدينة باردة وشديدة الحرارة . أما أنا .. اي فوضى هي عندما ترتفع الحرارة ، انني ارشح ، اما هم ، فلا يرشحون قط . وها هو الظل نفسه يحمى الآن . انني احس الشمس على الحجر فوقي ، إنها تضرب ، تضرب كمطرقة على جميع الاحجار ، وهذه هي الموسيقى ، موسيقى الظهيرة الرحبة ، اهتزاز الهواء والاحجار على بعد مئات من الكيلومترات . انني اسمع الصمت كما كنت اسمعه من قبل . أجل ، لقد كان الصمت نفسه ، وقد مضى على ذلك سنوات ، هو الذي تلقاني عندما قادني الحرّاس اليهم ، في الشمس الى قلب الساحة ، حيث ترتفع قليلاً قليلاً السطائح المشتركة المركز نحو صفحة السماء الزرقاء زرقة قاسية والتي تستند على ضفاف الخابية . كنت هنا ، مرمياً على ركبتي في جوف هذا الترس الأبيض ، مهترىء العينين بسيوف الملح والنار التي كانت تخرج من جميع الجدران ، شاحباً من التعب ، واذني تنزف من

الضربة التي كان الدليل قد وجهها الي ، بينما كانوا هم ، ينظرون إلي من دون ان يقولوا شيئاً بقاماتهم الطويلة السوداء. كان النهار في منتصفه ،وكانت السماء تصدي طويلاً تحت ضربات شمس الحديد ، فتبعث أصداء شبيهة بأصداء صفائح محمّاة . كان الصمت نفسه ، وكانوا ينظرون اليّ ؛ وكان الوقت يمضي ، انهم لا يكفّون بعد عن النظر الي ، ولم اكن أنا أستطيع ان اتحمل نظراتهم ، وكان لهاثي يزداد شيئاً فشيئاً، ثم بكيت اخيراً. وفجأة ، أداروا لي ظهورهم بصمت وذهبوا كلهم في اتجاه واحد. وفي الاحذية الحمراء والسوداء ، كنت أرى فقط ، وأنا راكع على ركبتي ، أقدامهم اللمّاعة من الملح ترفع الرداء الطويل الداكن، منتصبة الرأس قليلاً وكعبها يضرب الأرض بخفة ، وعندما كانت الساحة خالية ، جرّوني الى بيت الأصنام .

وبقيت عدة أيام في ظلمة بيت الأصنام ، وانا مقرفص في ظل صخرة ، كما أفعل الآن ، بينما كانت النار من فوق رأسي تنفذ الى كثافة الحجر. وكان هذا البيت مرتفعاً اكثر من سواه بقليل ، محاطاً بأسوار من الملح ، ولكنه بلا نوافذ ، مغموراً بليل متلألىء . بقيت عدة أيام ، كانوا خلالها يقدمون لي طاسة من الماء الممزوج بالملح ، ويقذفون أمامي حبوباً كالتي يرمونها للدجاج فكنت التقطها . وفي النهار ، كان الباب يظل مقفلاً ، ومع ذلك ، فقد كان الظل يخف قليلاً ، كما لو أن الشمس التي لا تُقاوم كانت تفلح في ان تتسرب من خلال اكوام الملح . ولم يكن لدي أي مصباح ، ولكنني ، وأنا أتلمس طريقي طوال الممرات ، كنت ألمس قطوفاً من البلح الجاف تزين الجدران ، وباباً صغيراً ، في الجوف ، منحوتاً نحتاً ضخماً ، عرفت فيه بطرف أصابعي القفل . وبعد فترة طويلة ، ولمدة أيام عديدة ، لم يكن باستطاعتي ان اعد الأيام ولا الساعات ولكنهم كانوا قد رموا لي قبضتي من الحبوب عشرات المرات، وكنت قد حفرت حفرة لأوساخي التي كنت أغطيها عبثاً والتي ظلت رائحة العفونة تفوح منها . وبعد فترة طويلة ، فتح الباب علي ودخلوا .

واقترب أحدهم مني وأنا مقرفص في الركن . وكنت أحسّ على خدي

الحصان . ثم رفع يده ومن دون أن يتأثر امسكني من شفتي السفلى ولواهـا ببطء حتى نزع مني اللحم ، ثم أدارني حول نفسي من دون أن يرخي أصابعه ، وابتعد حتى وسط القاعة ، فأطلق النار على شفتي حتى وقعت على ركبتي ، هنا ، فاقد الوعي ، دامي الفم ، ثم استدار ليلقى الآخرين المصطفين على جوانب الجدران . كانوا ينظرون الي وأنا أئن في وهج النهار اللامحتمل والذي لا ظل فيه يتسرب من الباب المفتوح على سعته . وفي هذا الضوء انبثق الساحر بشعره المنبوش ، مغطى الصدر بدرع من الجواهر ، عاري الساقين تحت تنورة من القش ، مقنّعاً بقناع من القصب والاسلاك الحديدية وقد ظهر فيه ثقبان مربعان تطل منهما العينان ، وكان يتبعه موسيقيون ونساء يرتدين ثياباً ثقيلة منقشة لا يتراءى خلالها شيء من أجسادهن . فرقصوا أمام الباب الداخلي ، ولكنها كانت رقصة بدائية ، لا يكاد يظهر اثر للايقاع فيها . كانوا يتحركون وكان هذا كل ما في الأمر ؛ ثم فتح الساحر الباب الصغير من خلفي فلم يكن السادة يتحركون ، كانوا ينظرون اليّ ، فأدرت وجهي ورأيت الصنم ، برأسه المزدوج ، وأنفه الحديدي الملتوي كالحية .

وحملوني بالقرب منه ، عند قدم القاعدة ، وجرّعوني ماء اسود ، مرّاً ، مرّاً ، وللحال أخذ رأسي يلتهب . كنت أضحك ، وهذا هو العقاب ، انني مُهان . وخلعوا عني ثيابي ، وحلقوا لي شعر رأسي وجسمي ، وغسلوني بالزيت ، وضربوا وجهي بحبال مغطسة بالماء والملح . فكنت أضحك واصرف رأسي . ولكن امرأتين كانتا كل مرة تمسكانني من أذنيّ وتقدمـان وجهي لضرب الساحر الذي لم اكن ارى منه سوى العينين المربعتين . وكنت أمضي في الضحك وأنا مغمور بالدم . ثم توقفوا . ولم يكن احد يتكلم سواي ، وكانت

الصنم ، فكففت عن الضحك . كنت أعلم انني قد كُرّست الآن لخدمته ، لعبادته . لا . لم اكن اضحك بعد ، كان الخوف والألم يخنقانني . وهنا ، في هذا البيت الأبيض ، بين هذه الحيطان التي تحرقها الشمس من الخارج بعزم ، حاولت ان اصلّي للصنم ، ممدود الوجه ، مضنى الذاكرة ، أجل لقد حاولت ان اصلي للصنم ، فلم يكن هنا الا هو ، وحتى وجهه المخيف كان أقل فظاعة من سائر العالم . في هذه الأثناء ربطوا كعبي بحبل يترك مجالاً حراً على طول خطوتي ، ورقصوا ايضاً ، ولكن قرب الصنم هذه المرة ، وخرج الأسياد واحداً تلو الآخر .

وإذ انغلق الباب خلفهم ، ابتدأت الموسيقى من جديد وأشعل الساحر نار قشور كان يدبدب حولها ، وكانت قامته الطويلة تتلوى عند زوايا الجدران البيضاء ، وكان يرتجف على المساحات المسطحة ، ويملأ القاعة بالظلال الراقصة . وكان ان رسم مستطيلاً في الركن الذي كان النسوة قد جررنني اليه ، فكنت احس ايديهن الجافة والناعمة ، وقد وضعن أمامي حوضاً من الماء وصحناً صغيراً من الحبوب وأروني الصنم . ففهمت ان علي ان ابقي عينيّ محدقتين فيه . وعندها دعا الساحر النسوة ، واحدة تلو الأخرى ، ليتقدمن أمام النار ، وضرب بعضهن فأخذت تئن من الألم ، ثم ذهبن ، يا الهي ، ليسجدن أمام الصنم بينما كان الساحر ما يزال يرقص ، وأخرجهن جميعاً من القاعة حتى لم تبق منهن الا صبية واحدة ، مقرفصة أمام الموسيقيين لم تكن قد ضُربت بعد . كان يمسكها من جديلة كان يلفها حول قبضته ، فانحنت الى الوراء ، جاحظة العينين حتى سقطت اخيراً على ظهرها . واذ تركها الساحر ، صرخ فعاد الموسيقيون يلتصقون بالجدار ، بينما كان الصراخ من خلف القناع ذي العينين المربعتين ينتفخ حتى المستحيل ، وكانت المرأة تتدحرج على الأرض في شبه نوبة ، فصرخت هي أيضاً ، وهي تزحف وتخفي رأسها بين ذراعيها تصرخ صراخاً صامتاً . وعندها فقط ، اخذها الساحر برشاقة وخبث ، من دون أن يكف عن الزعيق وعن النظر الى الصنم ، ومن غير أن يُرى وجهها

الذي دفن في هذه اللحظة في ثنيات الرداء الثقيل . وانا ، من شدة الوحشة ، قد تهت ، فصرخت أيضاً ، وزعقت من الرعب متوجهاً نحو الصنم حتى قذفتني الى الحائط رفسة قدم ، وأنا أقضم الملح ، كما أقضم الآن الصخر بفمي الذي لا لسان فيه بانتظار قدوم من يجب عليّ ان أقتله .

والآن ، جاوزت الشمس قليلاً كبد السماء . وبين تشققات الصخر ، أرى الثغرة التي أحدثتها في معدن السماء المحمّى ، فمٌ سريع الحركة كفمي ، يقيء بلا انقطاع انهاراً من اللهب فوق الصحراء التي لا لون لها . ولم يكن من شيء في الساحة ، امامي ، لا شيء ، حتى ولا غبرة في الأفق . لا بد انهم خلفي يفتشون عليّ . أو بالأحرى لم يحن الوقت ، فلم يكونوا يفتحون الباب إلا بعد الظهر ، فكان باستطاعتي ان أخرج قليلاً بعد أن أكون قد قضيت النهار كله وأنا أنظف بيت الصنم ، وأجدد القرابين. وعند المساء ، كان الاحتفال يبتدأ حيث كنت أحياناً أضرب واحياناً أخرى لا يحصل شيء . ولكنني كنت دائماً أخدم الصنم ، الصنم الذي كنت أملك صورته محفوراً بالحديد في الذاكرة والآن في الأمل .. ولم يسبق لآله قط ان ملكني واستعبدني كهذا الآله ، فحياتي كلها بأيامها ولياليها كانت مكرّسة له وحتى الألم وغياب الألم ، الذي هو الفرح كنت مديناً له بهما. وحتى الشهوة، لكثرة ما كنت احضر كل يوم تقريباً هذا الفعل اللاشخصي والخبيث الذي كنت اسمعه من دون أن أراه‌ما دام كان عليّ في تلك الأثناء أن أنظر الى الحائط تحت طائلة الضرب . ولكنني كنت ملتصق الوجه بالملح مغموراً بالظلال الحيوانية التي كانت تتحرك على الجدار ، استمع الى الصراخ الطويل ، وكان حلقي جافاً فأخذتني شهوة محرقة بلا جنس على صدغي وعلى بطني ، وهكذا كانت الأيام تتالى ، ولم اكن اميزها تقريباً كما لو انها كانت تميع في الحر المحرق وانعكاسات جدران الملح الخفية ؛ ولم يكن الزمن بعد الا خفقاً لامتساوياً كانت تنفجر فيه فقط ، على مسافات منتظمة ، صرخات ألم او امتلاك ، نهار طويل لا عمر له يسود فيه الصنم كما تسود هذه الشمس الوحشية على بيتي من الصخر . وها انا ، كما كنت من قبل ، أبكي

من الشقاء والرغبة ، فيحرقني أمل خبيث ، فانا اود ان اخون ، فأترك انبوب بندقيتي وروحها في الداخل ، أجل روحها ، ذاك ان البندقيات تملك لوحدها روحا . آه ، أجل ، ففي اليوم الذي قطعوا لي فيه لساني ، تعلمت ان اعبد روح الحقد الخالدة !

أية فوضى ، أي هول ، انني سكران من الحر والغضب ، ساجد ومنحنٍ على بندقيتي . من يلهث هنا ؟ انني لا أستطيع ان اتحمل هذا الحر الذي لا ينتهي أبداً ، وهذا الانتظار ، يجب أن أقتله . وليس هنا أيّ طير ، أية فتات عشب ، وانما العجز فقط ورغبة جافة ، والصمت ، وصراخهم ، وهذا اللسان الذي يتكلم فيّ ، وهذا الألم الطويل المسطح والقاحل الذي انتابني منذ أن قطعوا لي لساني ، الالم المحروم من ماء الليل ، الليل الذي كنت أحلم به ، مسجوناً مع الرب في حفرتي من الملح . والليل وحده كان يستطيع أن ينقذني بنجومه الرطبة وينابيعه المظلمة وان ينشلني اخيراً من بين آلهة البشر الخبثاء . واذ كنت سجيناً دائماً ، فلم يكن باستطاعتي ان أتأمل الليل . واذا تأخر الرسول أكثر من ذلك ، فسوف ارى الليل على الأقل يصعد من الصحراء ويجتاح السماء كأنما هو كومة باردة من الذهب تتدلى من المجرّة المظلمة حيث استطيع أن أشرب حتى ارتوي ، وان ارطب هذا التعب الأسود والجاف الذي لن يستطيع أي عضل حيّ وطري ان يرطبه أبداً ، وان انسى أخيراً هذا اليوم الذي تملّك فيه الجنون لساني .

كم كان الطقس حاراً ، كان الملح يذوب ، أو على الأقل كنت أعتقد ذلك . وكان الهواء يتأكل عيني . ودخل الساحر من دون قناع . وكانت امرأة جديدة تتبعه عارية تقريباً تحت خرق رمادية ، ومطلية الوجه بوشم كان يضفي عليها قناع الصنم . ولم تكن تعبر عن شيء سوى ذهول معبود ، ولم يكن فيها من شيء يحيا سوى جسدها النحيل المسطح الذي سقط عند قدمي الاله عندما فتح الساحر باب المعبد . ثم خرج من دون أن ينظر اليّ ، وكانت الحرارة ترتفع . فلم أكن أتحرك ، وكان الصنم يتأملني من فوق هذا الجسد الجامد .

ولكن عضلاته كانت تتحرك ببطء. وعندما اقتربت لم يتبدل وجه المرأة. ولكن عينيها فقط اتسعتا وهي تحدق بي. وكانت قدماي تلامسان قدميها، وعندها أخذت الحرارة تزأر، وانقلبت المعبودة على ظهرها، وهي تنظر اليّ دائماً بعينيها من غير أن تقول شيئاً، وردت ساقيها نحوها وهي تفتح ببطء ركبتيها. ولكن بعد ذلك مباشرة، كان الساحر يترصدني. ودخلوا جميعاً وانتزعوني من المرأة فضربوني ضرباً مريعاً في موضع الألم. الألم؟ وأي ألم! إنني أضحك، والفضيلة اين هي؟ لقد ألصقوني بجدار وضغطت على حنكيّ يد من فولاذ بينما فتحت يد أخرى فمي وانتزعت لساني حتى نزف؛ أتراني أنا الذي كنت أصيح صيحة الحيوان هذه؟ أحسست بلمس قاطع ورطب. أجل رطب يسري على لساني. وعندما عاودني وعيي، كنت وحيداً في الليل، ملتصقاً بالجدار، مغطى بدم مجمّد، تملأ فمي حثالة من العشب اليابس ذي الرائحة الغريبة. ولم يكن فمي ينزف بعد، ولكنه كان مقفراً، وفي هذا الغياب كان يحيا فقط الم معذّب. وأردت ان اقف، فوقعت سعيداً، سعيداً بيأس في ان اموت اخيراً. فالموت هو ايضاً رطب وظله لا يحمي اي آله.

لست ميتاً، ولكن حقداً فتياً قد انتصب يوماً في الوقت نفسه الذي وقفت فيه، ومشى نحو باب الجوف، ففتحه، وأغلقه خلفي. كنت أبغض أهلي. اما الصنم فقد كان هنـــا، ومن أعمـــاق الثقب الذي كنت فيه قمت بما هو خير من الصلاة له. آمنت به وأنكرت كل ما كنت قد آمنت به من قبل. سلام عليه، لقد كان الخلاص والقوة والجبروت، وكان بالامكان هدمه، ولكن ليس بالامكان هديه. كان ينظر فوق رأسي بعينيه الفارغتين الصدئتين. سلام عليه، كان السيد، السيد الوحيد؛ الذي كان الخبث صفته التي لا جدال فيها. ليس هناك من أسياد طيبين. ولأول مرة، ولفرط ما أهنت ولأن جسدي كله كان يصرخ من ألم واحد، استسلمت له واقررت نظامه السيء، فعبدت فيه مبدأ الخبث في العالم. ولقد أنكرت التاريخ الطويل الذي كانوا قد علموني اياه وجعلت نفسي المواطن الحاقد المعذّب، أنا سجين

مملكته ، المدينة العقيمة المنحوتة في جبل من الملح، المفصولة عن الطبيعة المحرومة من ازدهارات الصحراء السريعة والنادرة ، الناجية من هذه المصادفات او هذا الحنان ، كغيمة وقحة وكمطرة عاصفة قصيرة تعرفها الشمس والرمال، مدينة النظام أخيراً ، ذات الزوايا المستقيمة ، والغرف المربعة ، والرجال القساة . كانوا قد خدعوني ، فمُلْكُ الخبث وحده كان بلا عيوب ؛ لقد خدعوني ، فالحقيقة صريحة وثقيلة وكثيفة ، انها لا تحتمل الفروقات الدقيقة .. والخير حلم مشروع مؤجل بلا انقطاع وملاحق بجهد مضنٍ ، انه حد لا يمكن الوصول اليه قط ، فملكه مستحيل ، والشر وحده يستطيع ان يمضي حتى حدوده ويسود سيادة مطلقة ، ويجب أن نخدم الشر وحده لكي نقيم مملكته الظاهرة ، وبعد ذلك سنرى، سنرى معنى هذا ؛ فالشر وحده حاضر ولتسقط اوروبا والعقل والشرف والصليب . أجل ، يجب ان أهتدي الى دين أسيادي، أجل، لقد كنت عنيداً، ولكن كنت انا ايضاً شريراً ، فلن اكون عبداً بعد بالرغم من قدمي الموثقتين وفمي الأخرس . آه ، إن هذا الحر يخبلني . والصحراء تصرخ في كل مكان تحت الأشعة التي لا تحتمل ؛ أما ذاك الآخر ، الذي يثيرني مجرد ذكر اسمه ، فانني انكره، لأنني أعرفه الآن. كان يحلم وكان يود ان يكذب فقطعوا له لسانه حتى لا يخدع كلامه العالم بعد . ودقوا فيه المسامير حتى الرأس ، رأسه المسكين ، كرأسي انا الآن . اية فوضى ، وكم آنا متعب مع أن الأرض لم تهتز ، فأنا متأكد من ذلك ولم يكن عادلاً ذلك الذي كانوا قد قتلوه ، انني أرفض ان اصدق ذلك، فليس هنالك عادلون وانما هناك اسياد شريرون يجعلون الحقيقة سائدة. أجل ان الصنم وحده يملك القدرة ، انه آله هذا العالم الوحيد ، ووصيته هي الحقد ، منبع كل حياة ؛ والماء المنعش كالنعناع الذي يجلد الفم ويحرق المعدة .

لقد تغيّرت اذن ، ولقد فهموا ذلك ، كنت أقبّل يدهم عندما كنت ألتقي بهم ، لقد كنت من أتباعهم ، وكنت معجباً بهم من دون أن أملّ ، كنت أثق بهم ، وكنت آمل أن يشوّه قومي كما كانوا قد شوهوني . وعندما

علمت ان الرسول سوف يأتي عرفت ما كان عليّ أن أفعله . انه ذاك النهار الشبيه بالأيام الأخرى . اليوم المعمي نفسه الذي يستمر منذ أمد طويل . وعند نهاية النهار ، شوهد حارس ينبثق ويركض على أعلى الخابية ، وبعد دقائق ؛ كنت أجرّ الى بيت الصنم المغلق الأبواب . وكان أحدهم يشدني إلى الأرض في الظل ، تحت تهديد سيفه المصنوع بشكل الصليب . وساد الصمت وقتاً طويلاً حتى ملأت ضجة مجهولة المدينة الهادئة عادة ، أصوات بقيت مدة طويلة حتى تعرفت عليها لأنها كانت تتكلم لغتي . ولكن ما أن انبعثت حتى رأيت رأس السيف ينخفض على عيني. كان حارس يحدجني صامتاً ، واذذاك اقترب مني صوتان ما أزال اسمعهما ، فسأل أحدهما لماذا كان ذلك البيت محروساً اذا كان الواجب اختراق الباب ، يا سيدي الملازم ، وكان الآخر يقول بصوت حاسم ثم يضيف بعد لحظة ، ان اتفاقاً قد أجري في أن المدينة تقبل حامية من عشرين رجلاً شرط أن يعسكروا خارج السور . وأن يحترموا العادات . وضحك الجندي، انهم يستسلمون في مقاومة، ولكن الضابط لم يكن يعرف ولأول مرة على كل حال، كانوا يقبلون استقبال من يُعنى بالأطفال وسيكون كاهناً .. وبعد ذلك سيهتمون بالأرض . وقال الآخر : « انهم في تلك الحالة سيقطعون ما كان الكاهن يفكر به اذا لم يكن الجنود هناك. »وأجاب الملازم « اوه ، كلا، أن الأب بيفور سيصل قبل الخامسة وسوف يكون معنا بعد يومين » لم أكن اسمع شيئاً على الاطلاق، لقد كنت جامداً ، مطروحاً تحت السيف ، كنت متألماً ، وكانت عجلة من الابر والسكاكين تدور فيّ. لقد كانوا مجانين ، كانوا مجانين، لقد سمحوا لغرباء أن يدوسوا مدينتهم ، ويقتربوا من قدرتهم التي لا تُقهر ومن الاله الحقيقي . أما الآخر ، ذاك الذي سوف يحضر ، فلن يقطعوا له لسانه ، سوف يتبجح بطيبته الوقحة من دون أن يدفع ثمن ذلك شيئاً ، ومن دون أن يُهان . وسوف يتأجل حكم الشر ، وسوف يكون هناك شك أيضاً ، ويضيع الوقت من جديد في الحلم بالخير المستحيل ، وفي استنزاف الجهود بلا جدوى بدل التعجيل بمجيء

المملكة الوحيدة الممكنة . وكنت أنظر الى السيف الذي كان يهددني : انها القوة التي تسود وحدها العالم ، ايتها القوة ، وكانت المدينة تفرغ من ضجيجها شيئاً فشيئاً ، وفُتح الباب أخيراً ، وبقيت وحيداً ، محترقاً ومراً مع الصنم ، وأقسمت له بأن أنقذ ايماني الجديد ، وأسيادي الحقيقيين ، والهي الظالم وأن أخون جيداً مهما كلفني ذلك .

آه ، ان الحرارة تخف قليلاً والحجر يتوقف عن الاهتزاز ، وباستطاعتي ان أخرج من حفرتي ، وأن أنظر الى الصحراء تتلون باللون الأصفر والأحمر لتستحيل بنفسجية. هذه الليلة ، انتظرت حتى يناموا ، وكنت قد قلبت قفل الباب ، وخرجت بخطواتي العادية ، المقيسة بالحبل . كنت أعرف الطرقات . وأعلم من أين آخذ البندقية القديمة ، وأي مخرج لم يكن محروساً . ووصلت الى هنا في الساعة التي يغيّر الليل فيها لونه حول قبضة من النجوم ، بينما كانت الصحراء تعتم قليلاً . ويبدو لي الآن انه قد مرت علي أيام وأيام وأنا قابع في هذه الصخور . العجلة ، العجلة ، آه ليأتِ بسرعة ؛ فبعد لحظات ، سيبدأون التفتيش عني ، ويطيرون فوق الساحات من جميع الجهات ، ولن يعرفوا انني ذهبت اكراماً لهم من أجل ان أخدمهم خدمة أفضل. ان ساقيّ ضعيفتان وأنا ثمل من الجوع والحقد . أوه ، فهناك ، في طرف الساحة ، يبرز جملان يكبران يعدوان على الأربع مزدوجين بظلين قصيرين يسبقانهما. انهما يركضان بذلك الشكل الحي الحالم الذي ينعمان به دائماً . وها هما اخيراً ، ها هما !

البندقية بسرعة ، وأجهزها بسرعة ، أيها الصنم ، يا الهي هناك ، لتدم قدرتك ، ولتتضاعف الاهانة ، وليشد الحقد من دون تسامح على عالم من لمعذبين ، وليكن الخبث سيداً إلى الأبد . ولتصل المملكة أخيراً الى مدينة وحيدة من ملح وحديد يستعبد فيها الناس طغاة سود ويمتلكون بلا شفقة ، والآن ، لتحلّ النار على الشفقة وعلى العجز واحسانه ، لتحل النار على كل ما يؤخر مجيء الشر ، لأطلق النار مرتين . ها هما ينقلبان ويهرب الجملان نحو الأفق حيث يرتفع رفّ من العصافير السوداء في السماء الصافية. انني أضحك ،

اضحك ، فان هذا الكاهن يلتوي في ردائه البغيض ، انه يرفع رأسه قليلاً ويراني أنا ، سيده المربوط القدير . لماذا هو يبتسم لي ، انني أستحق هـــذه البسمة ! ما أجمل صوت القبضة على وجه الطيبة اليوم ، اليوم فقط استُهلِك كل شيء وفي كل مكان من الصحراء وبعد ساعات ، تتنشق بنات آوى الهواء الغائب ثم تمشي بخطوات صغيرة صابرة نحو وليمة الجيفة التي ننتظرها . النصر ! انني ارفع ذراعي نحو السماء التي تنعطف ، ويرتسم في الطرف المقابل ظل بنفسجي . ما ليالي اوروبا ، يا وطني ، يا طفولتي ، لماذا عليّ ان ابكي في لحظة النصر ؟

لقد تحرك ، لا ، ان الصوت يأتي من مكان آخر ، من الجهة الأخرى هناك. انهم هم ، أسيادي ، الذين يركضون كطير العصافير السود وينقضون عليّ ويمسكون بي . آه ، أجل ، اضربوا ، انهم يخشون مدينتهم المطعونة والتي تصيح ، ويخافون الجنود المنتقمين الذين ناديتهم للمجيء الى المدينة المقدسة ، وكان هذا ما يجب. احموا أنفسكم الآن ، اضربوا ، اضربوني انا اولاً ، انكم تملكون الحقيقة ! يا أسيادي ، سوف يهزمون في نهاية الأمر الجنود ، سيهزمون الكلمة والحب ، سوف يجتاحون الصحاري ويجتازون البحار . ويملأون شعاع اوروبا بأشرعتهم السود . اضربوا على البطن ، أجل ، اضربوا على العينين . سوف يحصدون ملحهم على القارّة وسوف يضمحل كل زرع ، وينطفىء كل شباب ، وتسير بجانبي جموع خرساء مكبلة الأقدام في صحراء هذا العالم تحت شمس الايمان الحقيقي المحرقة . لن أكون وحدي . آه . يا للألم . الألم الذي يسببونه لي. ان غضبهم طيب ، وعلى هذا السرج الحربي الذي يمزقونني عليه الآن ، الرحمة ، اضحك ، انني أحب هذه الضربة التي تسمّرني مصلوباً .

اي صمت يخيم على الصحراء . لقد هبط الليل ، وانا وحيد . انني عطش يجب أن أنتظر بعد ، فأين هي المدينة ، وهذا الضجيج في البعيد ، والجنود الذين ربما انتصروا . لا . يجب ان لا انتظر حتى ولو انتصر الجنود . انهم

ليسوا أشراراً كما ينبغي ، ولن يحسنوا الحكم ، سيقولون ايضاً ان على المرء ان يتحسن ، وسيظل أيضاً ملايين البشر ممزقين محرومين بين الشر والخير . ايها الصنم ، لماذا تخليت عني ؟ لقد انتهى كل شيء ، انني عطش ، وجسدي يحترق ، والليل يملأ عيني وهو اشد سواداً .

هذا الحلم الطويل ، الطويل ، وها انا استيقظ ولكن لا . سوف أموت ، ان الفجر يبزغ ، والشعاع الاول ، النهار ، لاحياء آخرين، ولي انا الشمس التي لا ترحم والذباب . من يتكلم؟ لا أحد . فالسماء لا تنفتح. لا. لا . ان الله لا يتكلم في الصحراء . ولكن من اين يأتي هذا الصوت الذي يهتف مع ذلك : « ان كنت ترتضي ان تموت من أجل الحقد والجبروت ، فمن يغفر لنا » ؟ أهو لسان آخر فيّ ، أم هذا اللسان نفسه الذي لا يريد ان يموت عند قدمي والذي يردد : « الشجاعة ، الشجاعة ، الشجاعة » ؟ آه ، ربما كنت أخدع من جديد . أيها الرجال الذين كنتم في الماضي أخويين، خلاصي الوحيد، ايتها الوحدة، لا تتخلوا عني ! ها ! ها ! من أنت، أيها الممزق، الدامي الفم، انك انت الساحر ، لقد هزمك الجنود ، والملح يحترق هناك ، انك انت ياسيدي الحبيب . اخلع وجه الحقد هذا ، وكن طيباً الآن ، لقد خدعنا ، وسوف نعيد الكرة ، ونبني من جديد مدينة الرحمة ، انني اود ان اعود الى بيتي . ساعدني اجل ، هكذا ، مدّ لي يدك ، اعطني ... »

وملأت قبضة من الملح فم العبد الثرثار ! .

البُكْم

كان نهاراً مشرقاً يرتفع على المدينة التي كانت قد بدأت تعج بالحركة، بالرغم من أن الشتاء كان في إبّانه. وعند نهاية الصيف كان البحر والسماء يختلطان في اشراق موحد. ومع ذلك، فلم يكن ايفار ليراهما. كان يتدحرج بثقل على طول الشوارع المطلة على المرفأ. وعلى دوّاسة الدراجة الثابتة كانت ساقه العاجزة تستريح جامدة، بينما كانت الاخرى تجهد لتهزم البلاطات التي كانت ما تزال مبللة بالرطوبة الليلية. ومن غير أن يرفع رأسه، وهو متجمع كله على المقعد، كان يتجنب خطوط الترام القديم، وكان يتنحّى بضربة مقود مفاجئة ليسمح للسيارات التي كانت تتجاوزه ان تمر، وبين الفينة والفينة كان يدفع بمرفقه حتى جنبه القربة التي كانت فرناند قد وضعت فيها غداءه. وكان يفكر آنذاك بمرارة في محتوى القربة؛ فكل ما كان بين شرحتي الخبز السميك، قطعة من الجبن بدل العجة الاسبانية التي كان يحبها او البفتيك المقلي بالزيت.

ولم يسبق لطريق المعمل ان بدا له طويلاً كما هو الآن؛ وكان كذلك يشيخ. ففي الأربعين من عمره، وبالرغم من أنه بقي يابساً كزرجون دالية، لم تكن عضلاته لتدفأ بهذه السرعة. وكان أحياناً يهز كتفيه وهو يقرأ تقارير رياضية كانوا يدعون فيها بطلاً في الثلاثين من عمره متقاعداً. وكان يقول لفرناند: «ان كان هو متقاعداً، فاني منذ حين في الحفرة.» ومع ذلك فقد كان

يعلم أن الصحفي لم يكن مخطئاً كل الخطأ . ففي الثلاثين من العمر ، يخف النفَس قليلاً من غير أن يشعر المرء بذلك . وفي الأربعين ، لا يكون المرء في الحفرة ، وانما يتهيأ لأن يكون كذلك، مع بعض الأستباق . أليس من أجل ذلك قد كفَّ منذ وقت طويل عن النظر الى البحر بينما هو يجتاز الطريق الذي يقوده الى الطرف الآخر من المدينة حيث يوجد معمل البراميل ؟ عندما كان في العشرين من عمره ، لم يكن ليملّ من تأمل البحر . كان يعده بنهاية اسبوع سعيد يقضيه على الشاطىء . وكان قد أحب السباحة دائماً بالرغم من عرجه او بسببه، ثم كانت السنون تمرّ ، وكانت فرناند ، وولادة صبي ، وساعات اضافية من العمل في هذا المصنع يوم السبت ، ويوم الأحد كان يقوم بأعمال منزلية عند بعض الأفراد — كل ذلك ليؤمن المعيشة . وكان أن فقد شيئاً فشيئاً عادة هذه الأيام الصاخبة التي كانت تنعشه ، عادة المياه العميقة والصافية ، والشمس الحادة ، والفتيات ، وحياة الجسد . ولم يكن في بلده سعادة أخرى غير هذه ، وكانت هذه السعادة تزول مع الشباب . وظل ايفار يحب البحر ، ولكن فقط في نهاية النهار ، عندما كانت مياه الخليج تسوّد قليلاً . كانت ساعة لذيذة يقضيها على شرفة منزله حيث كان يجلس بعد العمل ، سعيداً بقميصه النظيف الذي كانت فرناند تعرف جيداً أن تكويه ، وبقدح مشروب الانيسون المغشّى بالندى ، وكان المساء يهبط ، وكانت عذوبة قصيرة تستقر في السماء ، وكان الجيران الذين كانوا يتكلمون مع ايفار يخفضون فجأة أصواتهم . لم يكن يعرف اذذاك ان كان سعيداً ، اوكانت به رغبة للبكاء ،ولكنه كان متيقناً على الأقل ، في هذه اللحظات ، من انه لم يكن له الا أن ينتظر ، على مهل ، شيئاً لم يكن يعرف ما هو حقاً .

وفي الصباح عندما كان يذهب الى عمله ، لم يكن يحب ، على العكس من ذلك ، ان ينظر الى البحر الذي لن يراه حتى المساء ، بالرغم من أن البحر كان أميناً له دائماً . وكان هذا الصباح يسير ، محني الرأس بثقل أكثر من المعتاد . وكان قلبه ثقيلاً ايضاً ، وعندما كان يعود من الاجتماع ، في المساء ،

ويعلن لزوجته انهم سوف يستأنفون العمل تقول له فرناند بغبطة : « وإذن ، فسيرفع صاحب العمل لك أجرك ». لا . لم يكن صاحب العمل ليزيد شيئاً ، فالاضراب كان قد فشل . ولم يكن العمال قد أحسنوا التصرف . وكان من الضروري الاعتراف بذلك . كان اضراب غضب، وكانت النقابة على حق بأن تنقاد بسهولة . والحق أنهم كانوا زهاء خمسة عشر عاملاً ،ولم يكن هذا العدد كبيراً ،فالنقابة تأخذ بعين الاعتبار سائر مصانع البراميل التي لم تكن قد استجابت لدعوة الاضراب . وليس باستطاعة المرء ان يلومها أكثر مما ينبغي . ان صناعة البراميل التي كانت مهددة بصناعة المراكب والشاحنات الكبيرة ، لم تكن مزدهرة،وكان انتاج البراميل الصغيرة والحوابي يخف قليلاً قليلاً . وكان العمل يقتصر خاصة على اصلاح البراميل الكبيرة الموجودة سابقاً . صحيح أن أصحاب العمل كانوا يلاحظون ان أعمالهم معرضة للخطر ، ولكنهم كانوا مع ذلك يريدون ان يحتفظوا ببعض ربح ، وكانت أبسط وسيلة تبدو لهم ، تجميد الأجور بالرغم من ارتفاع الأسعار . فأي عمل يمكن أن يقوم به عمال براميل عندما يختفي المصنع ؟ ليس من الممكن ان يستبدل الانسان مهنة جهد في تعلمها ، خاصة وان هذه المهنة كانت صعبة وتتطلب ممارسة طويلة . فعامل البراميل الحذق ، ذلك الذي يعرف كيف يضبط القطع المحنية ويشدها بالنار وبالأطواق الحديدية شداً محكماً بعض الشيء من غير أن يستعمل الدسار ، هذا العامل كان نادراً . وكان ايفار يعلم ذلك ، وكان به فخوراً . ان استبدال المهنة ليس أمراً ذا بال . ولكن أن يتخلى المرء عما يعرف ، عما هو سيد فيه ، كان ذلك أمراً غير يسير . ان مهنة جميلة بلا استعمال شيء خانق ، فيجب على المرء أن يرضخ . ولكن الرضوخ ايضاً ليس بالأمر السهل . لقد كان من الصعب ان يحتفظ الانسان بفمه مغلقاً وان لا يستطيع حقاً أن يناقش وان يعود ليسلك الطريق نفسها ، كل صباح . يرافقه تعب يتراكم ، ليحصل عند نهاية الاسبوع ، على ما يريدون هم أن يعطوه اياه فقط، والذي يعجز شيئاً فشيئاً عن سد الحاجة .

وهكذا تملك العمّال الغضب . لقد كان بينهم اثنان أو ثلاثة يتردّدون ، ولكن الغضب كان قد اجتاحهم ايضاً بعد المناقشات الأولى مع صاحب العمل . ولقد سبق أن قال بالفعل وبجفاف تام ان عليهم اما ان يأخذوا هذه الأجور أو أن يتركوا العمل . ان الانسان لايتكلم بهذه الطريقة اوكان أن قال اسبوزيتو : «ماذا يعتقد ، اننا سوف نرضخ له ؟ » على أن صاحب العمل لم يكن سيئاً جداً. كان قد ورث المعمل من أبيه ، وكان أن شب فيه ، فكان يعرف جميع العمال تقريباً منذ سنوات . وكان أحياناً يدعوهم الى كسر الصفرة في المعمل . فكانوا يقلون السمك أو امعاء الخنزير على نيران النشارة ويقدم لهم الخمر ؛ فكان في الحقيقة لطيفاً جداً . وعند السنة الجديدة كان يعطي كلاً من عماله خمس زجاجات من النبيذ المصفّى ، وغالباً ما يقدم هبة مالية اذا كان بينهم مريض او لمجرد مناسبة كزواج أو تناول . وعند ولادة ابنته ، قدّم ملبساً للجميع . وكان قد دعا ايفار للصيد في ملكه على الشاطىء مرتين أو ثلاثاً . ومما لا شك فيه انه كان يحب عماله، وكان غالباً ما يذكر ان اباه كان قد ابتدأ كعامل . ولكنه لم يكن يزورهم في بيوتهم ابداً ، ولم يكن يفكر بذلك إطلاقاً . لم يكن يفكر الا بنفسه ، لأنه لم يكن يعرف الا نفسه . والآن ، لم يعد من خيار الا الرجوع أو الاستقالة . وبعبارة أخرى فقد كان مصراً بدوره هو أيضاً . وكان يسمح لنفسه بهذا .

وكانوا قد احتكموا الى النقابة فأغلق المعمل أبوابه، وقد قال صاحب المصنع : « لا تنزعجوا من أجل توقيف الاضراب . انني أصيب توفيراً حين يتوقف المعمل » . ولم يكن ذلك صحيحاً . ولكن ذلك لم يكن ليسوي الأمور، فقد كان يقول لهم انه كان يشغلهم بدافع الشفقة . وجنّ اسبوزيتو من الغضب وقال له انه لم يكن إنساناً . واحتد صاحب المعمل فوجب تفريقهما . ولكن العمال كانوا قد تأثروا في الوقت نفسه : عشرون يوماً من الاضراب ونساء حزينات في البيوت . ولقد يئس اثنان أو ثلاثة منهم . وأخيراً نصحتهم النقابة بالرضوخ بعد الوعد بالتحكيم وتعويض لأيام الاضراب بالعمل ساعات

اضافية . وكان أن قرروا إستئناف العمل بغطرسة وهم يقولون ان القضية لم تسوَّ بعد وانها بحاجة الى اعادة النظر . ولكن في ذلك الصباح حلّ تعب كان يشبه عبء الهزيمة،واستبدل اللحم بالجبن،وكفّ الوهم عن أن يكون ممكناً . وعبثاً كانت الشمس تلتمع ، فان البحر لم يكن ليعد بشيء دون ان يضغط ايفار على الدواسة الوحيدة ، وعند كل استدارة عجلة كان يخيل اليه انه يشيخ قليلاً . ولم يكن يستطيع أن يفكر بالمصنع ، بالرفاق وصاحب العمل الذين سوف يلتقي بهم ، من دون أن يثقل قلبه قليلاً . وكانت فرناند قد سألته : « وماذا ستقول له ؟ » ورد عليها : « لا شيء » . وامتطى ايفار دراجته وهزّ رأسه . كان يكزّ على أسنانه . وانغلقت أسارير وجهه الصغير الأسمر المجعد الدقيق الملامح . « اننا نعمل ، وهذا يكفي » . انه الآن يسير ، مصطك الأسنان دائماً ، يطغي عليه غضب حزين وجاف يسوّد حتى السماء نفسها ..

وترك البولفار ، والبحر ، ودلف الى شوارع الحي الاسباني الرطبة . وكانت هذه الشوارع تنفتح على منطقة تحتلها فقط محطات العجلات ومخازن للحدائد العتيقة والدراجات ، وهناك كان يقوم المصنع : نوع من سقيفة مبنية على نصف ارتفاع ، مغطاة بالزجاج حتى السقف المصنوع من صفائح متموجة . وكان هذا المصنع يطل على مصنع البراميل القديم ، وهو ملعب محاط بساحة قديمة ، كانوا قد هجروها عندما كبر المصنع ، أما الآن فهي لم تعد سوى مخزن للآلات المستعملة والبراميل العتيقة . وبعد هذه الساحة تمتد حديقة صاحب العمل المفصولة عنها بنوع من ممر مغطى بالقرميد القديم . وعند نهاية الحديقة يرتفع البيت ، كبيراً وقبيحاً . على أنه كان حفياً بعرائشه وشجرة زهر العسل التي كانت تحيط السلم الخارجي .

ورأى ايفار في الحال أن أبواب المعمل كانت مقفلة وكانت جماعة من العمال يقفون صامتين أمامها . لقد كانت هي المرة الأولى التي يجد فيها الأبواب مغلقة عندما يصل،منذ أن بدأ عمله هنا . لقد كان صاحب العمل يريد ان يسجّل لنفسه انتصاراً . وتوجه نحو الشمال فصفّ دراجته تحت السقف الذي يتصل

بالكوخ من هذه الجهة وتوجّه نحو الباب فعرف من البعيد اسبوزيتو ، الرجل الطويل الشجاع والأسمر الغزير الشعر الذي كان يعمل بالقرب منه . وعرف ماركو ، المندوب النقابي ، كما عرف سعيد ، العربي الوحيد في المصنع ، ثم الجميع الذين كانوا ينظرون اليه ، بصمت ، وهو يتقدم . ولكن قبل أن يصل اليهم ، التفتوا فجأة نحو الأبواب التي بدأت تفتح . وبدا باليستير ، رئيس العمال ، عند فرجة الحائط . كان يفتح أحد الأبواب الثقيلة ثم دفعه بمهل على خطه الحديدي وهو يدير ظهره للعمال .

كان باليستير ، وهو أكبرهم جميعاً سناً ، يستنكر الاضراب . ولكنه كان قد سكت منذ اللحظة التي كان اسبوزينو قد اتّهمه بخدمة منافع صاحب العمل . أما الآن ، فقد كان يقف أمام الباب ، عريضاً وقصيراً بلباسه الصوفي الأزرق وقدميه العاريتين كقدمي سعيد (الشخص الثاني الذي كان يعمل حافي القدمين) وكان ينظر اليهم وهم يدخلون واحداً واحداً بعينيه الصافيتين الى حد كانتا تبدوان بلا لون في وجهه الكهل الأسود وفمه الحزين تحت شاربين كثيفين منحدرين .أما هم ، فقد كانوا صامتين ،يستشعرون مذلة من دخولهم المهزوم هذا ؛ مغتاظين من صمتهم الذي كانوا ساعة بعد ساعة اكثر عجزاً عن قطعه كلما طال . كانوا يمرون ، من غير أن ينظروا الى باليستير الذي كانوا يعلمون انه كان ينفذ أمراً وهو يدخلهم بهذه الطريقة ، والذي كانت تنبيءهيئتهالمرة والحزينة عما كان يفكر به. وقد نظر اليه ايفار .اما باليستير الذي كان يحبه كثيراً فقد هزّ رأسه من غير أن يقول شيئاً .

وها هم الآن جميعاً أمام خزانة الثياب الصغيرة عند يمين المدخل . كانت هناك حظائر مفتوحة تفصل ما بينها ألواح من الخشب الأبيض كانوا قد علقوا بها من كل جهة خزانة صغيرة تقفل بمفتاح . وقد حُولت الحظيرة القائمة عند المدخل ، لدى التقاء جدران الكوخ ، إلى حمام . وكان هـذا الحمام يقع فوق مجرى محفور رأساً في الأرض . وفي وسط الحظيرة كانت تُرى حسب أمكنة العمل ، براميل كبيرة قد جهزت أخيراً ، ولكن أطرها

كانت رخوة وتنتظر شدها بالنار ،ومقاعد سميكة مشقوقة شقوقاً كبيرة . وكان لبعضها قيعان من الخشب مدورة تنتظر لحامها .

وعند يسار المدخل ، على طول الجدار ، كانت تصطف طاولات وكانت تتراكم أمامها مجموعات من أضلاع البراميل .

وعلى الحائط الأيمن ، بالقرب من خزانة المدخل ، كان منشاران ميكانيكيان كبيران يلمعان من جراء الزيت .

كان المصنع منذ زمن بعيد ، قد غدا اكبر من أن يستوعب الرجال الذين كانوا يحتلونه . وكان ذلك ميزة في أيام الحر الشديد ، ونقيصة في الشتاء .أما اليوم ، في هذا المكان الرحب ، الذي توقف فيه العمل ، وانتثرت البراميل في زواياه ، لا يجمع بين قواعد أضلاعها المتفتحة الى اعلى بأزهار برية كبيرة سوى طوق واحد ، وغبار النشارة التي تغطي المقاعد ، وصناديق العدات والآلات ، كل ذلك كان يضفي على المصنع جو مكان مهجور . كانوا ينظرون اليه ، وقد ارتدوا الآن ملابسهم الصوفية القديمة ، وسراويلهم الممزقة والمرقعة وكانوا يترددون . وكان باليستير يتأملهم . وقد قال لهم : « وإذن ، هل نبدأ ؟ » . واحتل الواحد تلو الآخر مكانه دون أن يفوه بكلمة . وكان باليستير يتنقل من مكان إلى آخر ويذكر باقتضاب العمل الذي يجب أن يبدأ أو أن يُنجز . ولم يكن أحد ليجيب . ثم ما لبس ان سُمع صوت المطرقة الأولى يرن على زواية الخشب المخدد الذي كان يخرق باحدى الدوائر . وأنّت مسحاة على عقدة من الخشب ، وكان أحد المنشارين اللذين أدارهما اسبوزيتو يحزّ بضجة كبيرة بأسنانه المسنونة . وكان سعيد يحضر أضلاعاً عند الطلب ، أو يشعل نار النشارة التي كانوا يضعون عليها البراميل لينفخوها ضمن أطواقها الحديدية .وعندما لم يكن أحد يستدعيه فقد كان يثني على طرف الطاولة ، بضربات مطرقة ، الأطواق الصدئة الواسعة . وكانت رائحة النشارة المحروقة قد بدأت تملأ المصنع. وعرف ايفار ، الذي كان يجلو القواعد التي كان اسبوزيتو قد نشرها ، الرائحة القديمة فانشرح

صدره قليلاً . كان الجمع يعمل بصمت ، ولكن حرارة حياة جديدة كانت تولد شيئاً فشيئاً في المعمل . وكانت أشعة منعشة تملأ المصنع من الواجهة الزجاجية الكبيرة ، وكان الدخان المتصاعد يزرق في الجو المذهب ، بل ان ايفار قد سمع حشرة تطن بالقرب منه .

في هذه اللحظة ، انفتح الباب المطل على مصنع البراميل القديم ، وتوقف السيد لاسال ، المدير ، على العتبة : كان رقيقاً أسمر ، ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره الا بشيء يسير . وكان مرتاحاً بقميصه الأبيض المفتوح كثيراً على طقم من الكابردين الطحيني اللون . وبالرغم من وجهه الذي ظهرت عظامه دقيقة مسنونة ، فقد كان يوحي بالاجمال بالود ، كمعظم الأشخاص الذين حرّرتهم الحياة الرياضية في تصرفاتهم . ومع ذلك ، فقد كان يبدو مرتبكاً بعض الشيء وهو يتخطى العتبة . وكان سلامه أقل رنيناً من المعتاد . وعلى كل حال ، لم يرد أحد على سلامه . وتردد صوت المطارق ، وفقد تآلفه ثم استأنف أشد وأقوى . وقام السيد لاسال ببعض خطوات مترددة ، ثم تقدم نحو فاليري الصغير ، الذي كان يعمل معهم منذ عام فقط . كان بالقرب من المنشار الميكانيكي ، على بضع خطوات من ايفار ، يضع قعراً لبرميل ، وكان صاحب العمل ينظر اليه يعمل . وتابع فاليري عمله من غير أن يقول شيئاً . وقال له السيد لاسال : « وإذن يا بني ، هل تسير الأمور سيراً حسناً » ؟ وفجأة ارتبك الشاب وغدا أقل مهارة في حركاته . وألقى نظرة على اسبوزيتو الذي كان بالقرب منه ، يكوّم على ذراعيه الضخمتين ركاماً من القواعد ليحملها الى ايفار ،وكان ينظر اليه كذلك اسبوزيتو ، وهو ما يزال يتابع عمله ، وأغرق اسبوزيتو أنفه في البرميل من دون أن يرد شيئاً على صاحب المعمل . وظل مشدوهاً بعض الشيء وبقي وقتاً قصيراً مغروساً أمام الشاب ، ثم هز كتفيه واتجه نحو ماركو . وكان هذا الأخير ، قد امتطى المقعد وانتهى من ان يحكم ، بضربات بطيئة وصائبة ، قعر برميل . وقال لاسال بصوت أشد جفافاً : « صباح الخير ، ماركو » . ولم يجب ماركو . وقد حصر اهتمامه فقط بألا

يخرج من خشبه الاكمية بسيطة جداً من النشارة، وقال لاسال . بصوت قوي وقد اتجه الآن نحو بقية العمال : « ماذا دهاكم ؟ لم نكن على وفاق ، هذا مفهوم . ولكن ذلك لا يمنع ان علينا أن نعمل معاً . وإذن ، فما جدوى موقفكم هذا ؟ » ونهض ماركو ورفع قعر برميله ، وضبط براحة يده الحديد الدائري وأخفض عينيه الناعستين بحركة إنشراح كبير ، وتوجه نحو عامل آخر كان يجمع البراميل ، وهوما يزال صامتاً . ولم يكن يُسمع في المصنع كله الا صوت المطارق والمنشار الميكانيكي . وأضاف لاسال : « حسناً . عندما يذهب ما بكم ابلغوني ذلك بواسطة باليستير . » وخرج من المصنع بخطوات هادئة .

وبعد ذلك رأساً ، رن جرس مرتين فعلا على ضجة المصنع . وكان باليستير الذي جلس اللحظة ليلف سيجارته ، قد نهض بثقل وتوجه نحو باب القاعة الصغير . وبعد ذهابه ، أخذت المطارق تطرق بصوت أخف . حتّى أن أحد العمال كان قد بدأ يتوقف عن العمل عندما عاد باليستير . واكتفى بالقول ، وهو واقف عند الباب : « ان المدير يستدعيكما يا ماركو ، وايفار . » وكانت حركة ايفار الأولى أن يذهب ليغسل يديه ، ولكن ماركو جذبه وهو مار وتبعه وهو يعرج .

وفي الخارج، في الساحة ، كانت الأشعة منعشة وصافية حتّى ان إيفار كان يشعر بها على وجهه وعلى ذراعيه العاريتين . ورقيا السلم الخارجي ، تحت شجرة زهر العسل حيث كانت تبدو بعض الأزهار . وعندما دخلا الى الممر المملوء بالشهادات ، سمعا بكاء طفل ، وصوت السيد لاسال الذي كان يقول « انيميها بعد الظهر ، سوف نستدعي الطبيب اذا لم تتحسن حالها » . وبرز صاحب العمل فجأة في الممر وأدخلهما المكتب الصغير الذي كانا يعرفانه ، المفروش بأثاث ريفي مزيف ، ذا الجدران المزينة بالشعارات الرياضية . وقال لاسال وهو يأخذ مكانه خلف مكتبه : « اجلسا » . وظلا واقفين . فأضاف : « لقد استدعيتكما ، لأنك ، أنت يا ماركو مندوب العمال، ولأنك ، أنت يا إيفار أقدم عامل عندي بعد باليستير . وليس في نيّتي ان أستعيد

المناقشات التي انتهت الآن . فأنا لا أستطيع ، لا أستطيع البتة ، أن أمنحكم ما تطلبونه . لقد سويت القضية ، ولقد وصلنا إلى نتيجة ينبغي بموجبها استئناف العمل . وأنا أرى انكم تكنّون لي حقداً وهذا ما يشق علي ، وانني أقول لكم ذلك كما أحسه . وأود فقط أن أضيف : ان مالا أستطيع أن أفعله اليوم ، ربما استطعت أن أحققه حين تُستأنف الأعمال . واذا استطعت ان أفعلهُ ، فعلته حتى قبل أن تطلبوا ذلك . وبالانتظار ، لنحاول أن نعمل بوفاق » . وسكت ، وبدا انه يفكر ثم رفع نظره اليهما وأضاف : « وإذن » ؟ وكان ماركو ينظر الى الخارج . وأراد إيفار ، وقد كزّ على أسنانه ، أن يتكلم ، ولكنه لم يستطع . فقال لاسال : « اسمعا . انكم جميعاً مصممون على العناد . سوف تمر هذه الحالة . ولكن عندما تعودون إلى رشدكم ، لا تنسوا مـا قلته لكم اللحظة » . ونهض وتقدم نحو ماركو ومدّ له يـده ، فاصفر وجه ماركو فجأة ، وقست ملامح وجـه أشبه بوجه مغنٍّ عاطفي . وغدا ، في لحظة ، شريراً . ثم استدار على عقبيه فجأة وخرج . ونظر لاسال الى إيفار وقد شحب وجهه هو أيضاً ، من دون أن يمد له يداً . وصرخ : « حُلَّ عنّي ! »

وعندما دخلا الى المعمل ، كان العمال يفطرون . وكان باليستير قد خرج . فقال ماركو فقط : « هناك ريح » وعاد إلى مكان عمله . وتوقف اسبوزيتو عن قضم رغيفه ليسأل عما أجابا به ، فقال إيفار انهما لم يجيبا بشيء ، ثم ذهب ليحضر قربته وعاد ليجلس على المقعد الذي كان يعمل عليه . وكان قد بدأ بالإكل عندما رأى سعيد ، غير بعيد منه ، ممدداً على كومة من النشارة ، وقد ضاع نظره عبر الزجاج المزرق بسماء غدت الآن أقل لمعاناً . وسأله ان كان قـد انتهى . وقال سعيد بأنه كان قد انتهى من أكل تينه ، وتوقف إيفار عن الأكل . فان شعور القلة الذي لم يفارقه منذ اجتماعه بلاسال كان يختفي فجأة ليحل محله شعور بالدفء المريح . ونهض وهو يقضم خبزه وقال أمام رفض سعيد بأن الأمور كلها سوف تتحسن في الأسبوع التالي . وقال وهو يقدم خبزه

« وسوف تدعوني بلدورك » . وابتسم سعيد . انه يقضم الآن قطعة من سندويش إيفار ، ولكن بهدوء ، كما يفعل رجل لا يحس الجوع .

وتناول اسبوزيتو قدرة قديمة وأشعل ناراً خفيفة من النشارة والخشب . فسخّن قهوة كان قد أحضرها في زجاجة . وقال ان هذه القهوة هي هدية للمصنع كان قد أهداه اياها بقّاله عندما علم بفشل الاضراب . وانتقل قدح الخردل من يد إلى أخرى . وفي كل مرة ، كان اسبوزيتو يصبّ القهوة المسكّرة ، وابتلعها سعيد بلذة أكبر من اللذة التي أحسها عندما كان يأكل . وكان اسبوزيتو يترشف ما تبقى من القهوة في القدرة الحارة بالذات وهو يتلمظ بشفتيه ويرسل شتائم .وفي هذه اللحظة، دخل باليستير ليعلن إستئناف العمل .

وبينما كان العمال ينهضون ويجمعون الأوراق والصحون في قربهم تقدّم باليستير ووقف بينهم وقال لهم فجأة ان ما حدث كان صدمة قاسية للجميع ، وله ايضاً ،ولكن ذلك لم يكن يستدعي أن يتصرفوا كالاولاد وان لا جدوى من عنادهم . والتفتت اسبوزيتو اليه والقدرة في يده . وكان وجهه الطويل الممتليء قد احمر فجأة . وكان يعرف ما سيقوله اسبوزيتو ، انهم جميعاً يفكرون بما يفكر به هو، انهم لايتخذون العناد.لقد كموا أفواههم : فأما أن يعملوا أو أن يتركوا العمل . وان الغضب والعجز يحزان في النفس أحياناً الى حدّ يعجز فيه المرء عن الصراخ.لقد كانوا رجالاً .وهذا كلما في الأمر . ولن يقوموا بتمثيل الابتسامات والحركات . ولكن اسبوزيتو لم يقل شيئاً من هذا كله . وانتهى وجهه بأن انشرح قليلاً ، وربت بلطف على كتف باليستير بينما كان سائر العمال يعودون إلى أعمالهم . ومن جديد عادت المطارق تطرق ، وامتلأ المصنع الكبير بالضجة المألوفة ، وبرائحة النشارة والثياب القديمة المبللة بالعرق . وعاد المنشار الكبير يضج وينهش في خشب الأضلاع الطري الذي كان اسبوزيتو يدفعه على مهل أمامه . وعند مكان العضة ، كان جرح مبلل من النشارة ينفجر ويغطي اليدين الضخمتين المكسوتين بالشعر ، المشدودتين بقوة على الخشب الذي يمر عليه المنشار الهادر . وعندما قُطع

الضلع لم يعد يسمع الا صوت المحرّك ..

وكان إيفار يشعر الآن بانحناءة ظهره وهو مائل فوق المنجر، ولم يكن التعب يحل عليه عادة الا متأخراً. وكان قد فقد اندفاعه أثناء هذه الأسابيع العاطلة عن العمل. وكان ذلك طبيعياً. ولكنه كان يفكر أيضاً بالسن التي تجعل الأعمال اليدوية أقسى مما هي، اذ لا يكون العمل قائماً على مجرد الدقة. وكانت هذه الانحناءة تنذره أيضاً بالشيخوخة فحيث تلعب العضلات، ينتهي العمل بأن يكون محتقراً، انه يسبق الموت، وفي أماسي التعب الشديد، يغدو النوم كالموت تماماً. لقد أراد وهو صبي أن يكون أستاذاً، وكان على حق في ذلك. ان الذين يلقون الخطب في العمل اليدوي لا يعرفون عن أي شيء يتكلمون.

وعندما استقام إيفار يستعيد نفسه ويبعد عنه أيضاً هذه الأفكار المزعجة، رن الجرس من جديد. كان الجرس يلحّ، ولكن بشكل غريب، تتخلله إنقطاعات قصيرة وعودات آمرة، حتى أن العمال توقفوا عن العمل. وكان باليستير يصغي، مندهشاً، ثم قرر واتجه ببطء نحو الباب. وكان قد اختفى منذ بضع لحظات عندما توقف الرنين أخيراً. وعادوا الى العمل. ومن جديد، فُتح الباب بعنف، وركض باليستير نحو المدخل. وخرج منه، وقد انتعل حذاءه الأبيض الخفيف، ولبس سترته وقال لإيفار وهو يركض باتجاه الباب الكبير: «لقد أصيبت الصغيرة. سوف أبحث عن «جرمن». كان الدكتور «جرمن» يهتم بالمصنع. وكان يسكن الضاحية. وردد إيفار الخبر من دون تعليق. كانوا حوله وكانوا يتبادلون النظرات مرتبكين. ولم يكن يُسمع سوى صوت محرك المنشار الآلي الذي يدور بحرية. وقال أحدهم: «ربما كان في الأمر خطورة». واستعادوا أماكنهم، وامتلأ المصنع من جديد بضجتهم؛ ولكنهم كانوا يعملون ببطء، كما لو أنهم كانوا ينتظرون شيئاً.

وبعد ربع ساعة، عاد باليستير من جديد، وعلّق سترته، ثم خرج من الباب الصغير من دون أن ينبس بكلمة. كان الضوء المنعكس على الواجهة

الزجاجية يخفت . وسمع ، بعد وقت قليل ، وفي الفترات التي لم يكن المنشار يقضم فيها الخشب ، أنين سيارة إسعاف كانت بعيدة في البدء ، ثم أصبحت قريبة ، فحاضرة ؛ وهي الآن صامتة . وبعد لحظة ، عاد باليستير ، ان الطفلة كانت قد وقعت فجأة ، وهي تخلع ثيابها ، كما لو أنها وقعت تحت منجل حصّاد . وقال ماركو : « هذا غريب ! » وهزّ باليستير رأسه وحانت منه التفاتة غامضة نحو المصنع . ولكن منظره كان مضطرباً .ويُسمع من جديد أنين سيارة الاسعاف . كانوا جميعاً هنا ، في المصنع الصامت ، تحت أمواج الأشعة الصفراء المنسكبة من الواجهة الزجاجية ، تتدلى أيديهم الخشنة اللامجدية على طول السراويل القديمة المغطاة بالنشارة .

ومضت بقية بعد الظهر بطيئة . ولم يكن إيفار يحس الا بتعبه وبقلبه المنقبض أبداً. كان يود أن يتكلم . ولكن لم يكن لديه شيء يقوله ،وكذلك الآخرون . كنت تقرأ على وجوههم الصامتة الحزن فقط ونوعاً من العناد ؛وكانت تتكون في نفسه أحياناً كلمة التعاسة ، ولكنها كانت تختفي في الحال ، كأنها فقاقيع تولد وتنفجر في وقت واحد . وكان يرغب في أن يعود إلى بيته ، وأن يلقى فرنائد ، والصبي ، والسطيحة أيضاً . في تلك اللحظة كان باليستير يعلن اغلاق المصنع . وتوقفت الآلات . وبدأ العمال يطفئون النيران ويرتبون أماكنهم على غير ما عجلة ، ثم اتجه الواحد تلو الآخر نحو خزانة المدخل وبقي سعيد وحده ؛ لقد كان عليه ان ينظف امكنة العمل ويرش الأرض المغبرة بالماء . وحين وصل إيفار نحو خزانة المدخل ، كان اسبوزيتو ، الضخم والمشعّر يأخذ حمامه البارد . كان يدير لهم ظهره ، وهو ينظف جسمه بالصابون محدثاً ضجة كبيرة . وكانوا عادة يمازحونه حول حشمته . والواقع ان هذا الدب الكبير كان يخفي باصرار اجزاءه النبيلة . ولكن لم يبد أن أحداً لاحظ ذلك هذا اليوم . وخرج اسبوزيتو متقهقراً ولفّ حول وركيه منشفة بشكل مئزر وأخذ كل دوره . وكان ماركو يضرب بعنف جنبيه العاريين عندما سمع الباب الكبير يدور ببطء على دولابه الصلبي . ودخل لاسال .

كان يرتدي اللباس الذي كان يرتديه عند زيارته الأولى ، ولكن شعره كان مبعثراً بعض الشيء . ووقف على العتبة ، يتأمل المصنع الكبير المهجور ، وتقدم بضع خطوات ، وتوقف ايضاً ونظر الى خزانة الملابس . ونظر اليه اسبوزيتو ، وهو ما يزال مغطى بمئزره . كان عارياً ، وكان مرتبكاً ، فكان يترنح قليلاً . وفكر ايفار ان على ماركو ان يقول شيئاً . ولكن ماركو كان يقف غير مرئي خلف زخات الماء التي باتت تحيط به . وتناول اسبوزيتو قميصاً ، ولبسه بعجل عندما سمع لاسال يقول له : «مساء الخير» بصوت فقد رنينه بعض الشيء ، ثم تابع سيره نحو الباب الصغير . وعندما فكر ايفار أنه من الضروري ان يناديه ، كان الباب قد اغلق ، واذ ذاك نهض ايفار ولبس ثيابه من دون ان يغتسل ، وقال مساء الخير هو ايضاً ، ولكن من كل قلبه ، وردوا عليه بالحرارة نفسها . وخرج بسرعة ، ففتش عن دراجته ، وحين امتطاها ، احس بانحناءته . كان يدور الآن ، في نهاية النهار وسط المدينة الصاخبة . كان يسير بسرعة ، وكان يود ان يلقى البيت القديم والسطيحة . فسوف يغتسل في المغسل قبل ان يجلس على السطيحة وينظر الى البحر الذي بدأ يصطحبه ، اشد زرقة مما كان في الصباح ، فوق حواجز الجادة . ولكن الفتاة الصغيرة كانت ترافقه ايضاً ولم يكن باستطاعته ان يمتنع عن التفكير بها .

وفي البيت كان الصبي قد عاد من المدرسة وكان يقرأ كتاباً مصوراً . وسألت فرناند إيفار اذا كان كل شيء قد سار سيراً حسناً . فلم يجب بشيء ، واغتسل في المغسل . ثم جلس على المقعد مستنداً الى حائط السطيحة الصغير . كان يتدلى فوق رأسه غسيل مرقع . وغدت السماء شفافة . وخلف الحائط كان يتراءى بحر المساء الهادىء . واحضرت فرناند الأنيسون ، وقدحين وزجاجة الماء البارد . وجلست بالقرب من زوجها . وقص عليها كل شيء ، وهو يمسك بيدها ، كما كان يفعل في اوقات زواجهما الاولى . وعندما انتهى ، ظل جامداً ، متجهاً نحو البحر الذي كان يركض فيه الغسق

السريع من طرف الى آخر في الافق . وردد : لقد كان ذلك نتيجة غلطته . كان يريد لو يكون شاباً ، ولو تكون فرناند شابة كذلك ، إذن لذهبا فيما وراء البحر .

الضَيف

كان المعلم ينظر الى الرجلين وهما يصعدان باتجاهه . كان أحدهما يمتطي جواداً ، وكان الآخر يمشي : ولم يكونا قد سلكا بعد الطريق الوعرة الصعبة التي تؤدي إلى المدرسة ، المبنية على جنب رابية . وكانا يعانيان التعب فيما هما يتقدمان ببطء في الثلج ، بين الأحجار ، على المسافة الشاسعة من النجد المرتفع المهجور . وكان الجواد يتعثر من وقت الى آخر بشكل واضح . ولم يكن يُسمع له صوت بعد ، وانما كان يُرى تدفق البخار الذي كان يصعد آنذاك من منخريه . وكان أحد الرجلين ، على الأقل ، يعرف البلدة . كانا يتتبعان الدرب التي كانت مع ذلك ، قد اختفت منذ عدة أيام تحت طبقة بيضاء وسخة . وقدّر المعلم انهما لن يبلغا الى الرابية قبل نصف ساعة . كان البرد قارساً . ودخل إلى المدرسة ليحضر كنزة صوفية .

واجتاز غرفة الدرس الخالية الجليدية . وكانت أنهار فرنسا الأربعة المرسومة على اللوح الأسود بأربع طباشير ذات ألوان مختلفة ، تسيل نحو مصباتها منذ ثلاثة أيام . كان الثلج قد هبط بقسوة في منتصف تشرين الأول ، بعد ثمانية أشهر من الجفاف ، من دون أن يكون المطر قد حمل فترة انتقال ، فانقطع التلامذة العشرون الذين يقطنون القرى المنتشرة على النجد عن الحضور ، وكان لا بد من انتظار تحسن الطقس . ولم يكن دارو يدفيء الا الغرفة الواحدة التي كانت

تشكل منزله المجاور لغرفة الدرس ، والمطل أيضاً على النجد من الشرق. وكانت نافذة تطل كذلك كنوافذ غرفة الدرس على الجنوب. ومن هذه الجهة ، كانت المدرسة تقع على بضعة كيلومترات من المكان الذي كان النجد يبدأ منه بالانحدار نحو الجنوب. وفي الأوقات الصافية يمكن كان للمرء أن يرى الكتل البنفسجية من السلسلة الجبلية حيث كان ينفتح باب الصحراء.

وتدفأ دارو بعض الشيء ، وعاد إلى النافـــذة التي كان قـــد لمح منها ، لأول مرة ، الرجلين. وكانا قد اختفيا. لقد جازا اذاً الطريق الوعرة : كانت السماء أقل سواداً. وكان الثلج قد كفّ عن السقوط أثناء الليل. وكان الصباح قد ارتفع على ضوء قذر لم يكد يقوى الا بالقدر الذي كان سقف الغيوم يرتفع فيه ثانية. وكان يخيل للمرء ان النهار في مستهله فقط ، عند الساعة الثانية بعد الظهر. ولكن ذلك كان أفضل من هذه الأيام الثلاثة التي كان الثلج السميك قد تساقط فيها وسط ظلمات لا تنقطع ، مع تغيرات رياح بسيطة كانت ترجّ باب الصف المزدوج. واذذاك كان دارو يصبر الساعات الطويلة في غرفته التي لم يكن يغادرها الا ليذهب تحت السقيفة ليتفقد الدجاج ويغرف من مؤونة الفحم. ومن حسن الحظ ان شاحنة « تادجيد » ، وهي أقرب قرية في الشمال ، كانت قد حملت المؤونة قبل العاصفة بيومين. وستعود في خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة.

والحق انه كان يملك ما يستطيع أن يتحمل به حصاراً من أكياس القمح التي كانت تملأ الغرفة الصغيرة والتي كانت الادارة قد تركتها له احتياطاً ليوزعها على أهالي التلاميذ الذين كانت عائلاتهم ضحايا الجفاف. والواقع أن التعاسة كانت قد أصابتهم جميعاً لأنهم كانوا جميعاً فقراء. ففي كل يوم ، كان دارو يوزع حصة للصغار. وكان يعرف ان هذه الكمية كانت قد نقصتهم أثناء هذه الأيام القاسية. ولربما أتى هذا المساء أحد الآباء أو الاخوة الكبار فيستطيع أن يزودهم بالحبوب. والمهم أن يتحملوا حتى الموسم القادم ، هذا كل ما في الأمر. كانت مراكب القمح تأتي الآن من فرنسا ، بعد ان انقضت أقسى

الأيام . ولكن سيكون من الصعب نسيان هذا البؤس وذلك الجيش من الأشباح ذات الخرق التائهة في الشمس ، والانجاد التي تستحيل الى كلس شهراً تلو الآخر ، والأرض المتقلّصة شيئاً فشيئاً من شدة الحرارة ، والمحروقة بالمعنى الحرفي للكلمة ، يتفتت كل حجر فيها تراباً تحت الأقدام ، واذ ذاك كانت الخرفان تموت بالآلاف ، وكذلك بعض الرجال كانوا يموتون ، هنا وهناك ، من دون أن يكون ممكناً دائماً معرفة موتهم .

وأمام هذا البؤس الشديد ، كان يشعر بنفسه ، هو الذي يعيش حياة ناسك تقريباً في مدرسته الضائعة ، القانع بالقليل الذي كان يملكه ، وبهذه الحياة القاسية ، كان يشعر بنفسه سيداً ، مع هذه الجدران المطلية ، وديوانه الضيق ، ورفوفه من الخشب الأبيض ، وبئره ومؤونته الاسبوعية من الماء والغذاء . وفجأة ، انقضّ الثلج ، من دون أي تمهيد ، من دون أن يسبقه مطر . وهكذا كانت البلدة قاسية على العيش ، حتى من غير الرجال ، الذين كانوا ، مع ذلك ، لا يصلحون شيئاً . ولكن دارو كان قد ولد فيها . وفي أي مكان آخر ، كان سيجد نفسه منفياً .

وخرج واقترب من التراب المكدس أمام المدرسة . لقد كان الرجلان الآن في منتصف المنحدر . وتبين أن الفارس هو « بالدوسي » الدركي الشيخ الذي كان يعرفه منذ زمن طويل . وكان بالدوسي يمسك بطرف حبل عربياً كان يتقدم خلفه ، موثق اليدين منخفض الجبين . وقام الدركي بحركة تحية لم يــردّ عليها دارو لانشغاله كلياً في النظر الى العربي الذي كان يرتدي جلابية كانت زرقاء في الماضي ، والمنتعل حذاء مفرغاً ، ولكنه كان يلبس جرابات من الصوف الخشن غير المغزول ، وقد لفّ رأسه بشاشية ضيقة وقصيرة . كانا يقتربان ، وكان بالدوسي يشد دابته حتى لا تجرح العربي . وكان الفريق يتقدم ببطء .

وصرخ بالدوسي بملء صوته : « لقد أمضينا ساعة نجتاز ثلاثة كيلومترات من « العمور » الى هنا . » ولم يجب دارو . كان ينظر اليهما وهما يصعدان وقد

بدا قصيراً ومربعاً بكنزته الصوفية السميكة . ولم يكن العربي ليرفع رأسه ولو مرة واحدة . وعندما اقتربا من التراب المكدس أمام المدرسة قال دارو: « السلام عليكما . ادخلا وتدفأا . » ونزل بالدوسي بمشقة عن دابته ، من دون أن يترك الحبل . وابتسم للمعلم تحت شاربه السميك . وكانت عيناه الصغيرتان الغامضتان ، الغائرتان كثيراً تحت الجبين الأسمر ، وفمه المحاط بالتجاعيد ، تضفي عليه مظهر المتنبه والمجتهد والنشيط . وأخذ دارو العنان ، وقاد الدابة تحت السقف الصغير ، وعاد نحو الرجلين اللذين كانا ينتظرانه الآن في المدرسة . وأدخلهما إلى غرفته . وقال : « سأدفيء قاعة الصف . فسوف نرتاح فيها أكثر » . وعندما عاد من جديد الى الغرفة ، كان بالدوسي على الديوان . وكان قد حل الحبل الذي كان يربطه بالعربي فجلس هذا الأخير مقرفصاً أمام الموقد . وكانت يداه مربوطتين دائماً ، وقد ارتد الشاش قليلاً عن رأسه ، وكان ينظر نحو النافذة . ولم ير دارو في بادىء الأمر سوى شفتيه الغليظتين ، الممتلئتين ، المالستين ، كشفاه الزنوج تقريباً . غير أن أنفه كان مستقيماً ، وعيناه غامقتين ، ممتلئتين بالحمى . وكان الشاش يكشف جبيناً يبدو عليه الاصرار . وكان وجهه كله ذا سمة حائرة ومتمردة معاً تظهر تحت الجلد المحروق الفاقد لونه قليلاً بالبرد ؛ وقد اذهل هذا الوجه دارو حين التفت اليه العربي ، وصب نظراته في عينيه . وقال المعلم : مرّا من هذه الناحية ، سأحضّر لكما شاياً بالنعنع » . فرد عليه بالدوسي : « شكراً . اية سُخرة هذه . انني اتوق بلهفة للراحة . » وتوجه الى أسيره بالعربية قائلاً : « تعال ، انت » . ونهض العربي ، فدخل الصف بهدوء وهو يدلي معصميه الموثقين أمامـــه .

واحضر دارو مع الشاي كرسيا . ولكن بالدوسي كان يجلس على أول طاولة من طاولات التلاميذ ، وكان العربي قد جلس مقرفصاً عند منبر المعلم ، مواجهاً المدفئة التي كانت تقوم بين المكتب والنافذة . وعندما مدّ قدح الشاي الى الأسير ، تردد دارو أمام يديه المكبلتين . وقال : « ربما كان بامكاننا أن

نفكه . » » قال بالدوسي : « بالطبع . لقد كان ذلك تدبيراً من أجل السفر » . وافتعل النهوض . ولكن دارو كان قد وضع القدح على الأرض ، وركع أمام العربي . وكان العربي من دون أن يقول شيئاً ، ينظر اليه بعينيه المحمومتين . وحين حرّرت يداه ، فرك قبضتيه المورمتين ، وأخذ قدح الشاي ورشف السائل الملتهب ، رشفات صغيرة سريعة .

وقال دارو : حسنا ، الى اين انتما ذاهبان ؟ .

وسحب بالدوسي شاربه من الشاي وقال : « الى هنا ، يا بني » .

وقال دارو : « تلميذان مضحكان . هل ستنامان هنا ؟ » .

ـ لا . سأعود الى « العمور » . وأنت ستسلم الرفيق الى « تنغيت » . انهم بنتظرونه في المقاطعة المختلطة .

وكان بالدوسي ينظر الى دارو وهو يبتسم بسمة صداقة صغيرة .

وقال المعلم : ـ ماذا تقول ؟ هل تهزأ بي ؟

ـ لا يا بني . وإنما هي الأوامر .

ـ الأوامر ؟ انني غير قادر .. (وتردد دارو : انه لا يريد ان يشق على الكورسكي العجوز .) اقصد انها ليست مهنتي .

ـ ماذا ! ماذا يعني هذا ؟ في الحرب ، يقوم المرء بجميع المهن .

ـ إنني انتظر اذاً اعلان الحرب .

ووافق بالدوسي وهو يهز رأسه . وقال :

ـ حسناً . ولكن الأوامر موجودة وهي تعنيك ايضاً . ان النار تحت الرماد على ما يبدو، والحديث جاد عن ثورة قادمة . » واحتفظ دارو بمظهره الدال على الأصرار .

وقال بالدوسي : « اسمع يا بني ، انني احبك كثيراً ، يجب ان تفهم ذلك فنحن اثنا عشر رجلاً في « العمور » مكلفون للعسكرة في أرض بيت صغير . وعليّ أن أعود . لقد قالوا لي بأن اعهد اليك بهذا الحمار الوحشي وان أعود دون تأخير. لقد كانوا يستطيعون أن يحتفظوا به هناك . كانت

قريته تتحرك ، وكانوا يريدون استرجاعه . فعليك ان تقوده الى تنغيت ، نهار غد . وعشرون كيلومتراً لا تخيف رجلاً صلباً مثلك . وبعد ذلك ، ينتهي كل شيء . فسوف تجد من جديد تلامذتك والحياة الرغدة » .

وكان يُسمع ، خلف الحائط ، شخير الجواد وضجة كعبه الذي يضرب به الأرض . وكان دارو ينظر عبر النافذة . كان النهار يرتفع ما في ذلك شك ، وكان الضوء ينتشر على النجد المغطى بالثلج . حين يذوب الثلج كله ، سوف تسيطر الشمس من جديد وتحرق مرة اخرى حقول الحجارة . وستظل السماء الثابتة ، لعدة أيام اخرى ، تلقي اشعتها الجافة على المسافة المتوحدة حيث لا يذكّر شيء بالانسان .

والتفت الى بالدوسي وقال له : « وماذا فعل ، اخيراً » ؟ وسأل قبل ان يفتح الدركي فمه : « هل يتكلم الفرنسية ؟ »

ـ لا . إنه لا يجيد حرفاً . كنا نبحث عنه منذ شهر ، ولكنهم كانوا يخفونه . لقد قتل ابن عمه .

ـ هل هو عدونا ؟

ـ لا اعتقد ذلك . ولكن المرء لا يستطيع ابداً ان يعرف .

ـ لماذا قتل ؟

ـ لأسباب عائلية ، كما اعتقد . ويظهر ان احدهما كان مديناً للآخر بكمية من الحبوب . ليس الأمر واضحاً . واخيراً ، وباختصار ، لقد قتل ابن عمه بضربة ساطور . لقد ذبحه كما تذبح الخرفان .

وقام بالدوسي بحركة من يمر شفرة على عنقه . وكان العربي قد تنبّه فأخذ ينظر اليه بنوع من القلق . واعترى دارو غضب مفاجىء ضدّ هذا الرجل ، ضدّ الرجال جميعاً وخبثهم الرديء ، وحقدهم الذي لا يكل وجنون الدم عندهم .

ولكن الاناء كان يغني على الموقد . وعاد يقدّم شاياً لبلدوسي ، وتردد ثم قدّم من جديد للعربي الذي شرب بنهم . ومن خلال ذراعيه المرفوعتين

كانت الجلابية تتثاءب الآن ، ورأى المعلم صدره النحيل العاضل .
قال بالدوسي : « شكراً يا صغيري . سأذهب الآن » .
ونهض فاتجه نحو العربي ، وهو يخرج حبلاً صغيراً من جيبه .
وسأله دارو بجفاف : « ماذا تفعل ؟ »
فأراه بالدوسي الحبل مشدوهاً :
« لا حاجة الى ذلك » .
وتردد الدركي القديم ثم قال : — كما تريد . انك طبعاً مسلح ؟
— لديّ بندقيتي للصيد .
— اين هي ؟
— في الصندوق .
— يجب أن تحتفظ بها قرب سريرك .
— لماذا ؟ ليس لدي ما أخشاه .
— إنك مهدد يا بني . فإذا ثار جماعة العربي ، فليس ثمة من هو بمنجى . إننا جميعاً في المغطس نفسه .
— سأدافع عن نفسي . وسيكون لدي الوقت لأراهم آتين .
وأخذ بالدوسي يضحك . ثم اتى شاربه فجأة ليغطي الأسنان التي ما تزال بيضاء .
— لديك الوقت ؟ حسناً . هذا ما كنت اقوله . لقد كنت دائماً بسيطاً بعض الشيء . من أجل ذلك احبك كثيراً . كان ابني مثلك .
وكان في الوقت نفسه يسحب مسدسه ويضعه على المكتب وقال :
— احتفظ به . فليس بي حاجة الى سلاحين من هنا الى العمور .
وكان المسدس يلمع على دهان المكتب الأسود . وعندما التفت الدركي نحوه ، شم المعلم رائحته ، رائحة جلد وخيل ، وقال دارو فجأة : « اسمع يا بلدوسي . إن هذه القضية تبعث فيّ القرف ، ولاسيما صبيك . ولكنني لن اسلمه . وإذا لزم الأمر قاتلت . اما أن أسلمه فلا .

وكان الدركي الشيخ منتصباً أمامه وهو ينظر اليه بقسوة . ثم قال بهدوء : « إنك ترتكب حماقات . وأنا ايضاً لا أحب هذا . فان المرء لا يعتاد ، رغم الستين ان يضع حبلاً في عنق انسان ، ثم انه يشعر بالخجل . ولكننا لا نستطيع ان نتركهم يفعلون ذلك .

ورد دارو : — لن أسلمه .

— إنه أمر يا بني . وانني اردد لك .

— حسناً . ردد لهم ما قلته لك : لن اسلمه .

وكان بالدوسي يبذل جهداً ملحوظاً للتفكير . وكان ينظر الى العربي والى دارو . وقرر اخيراً .

— لا . لن أقول لهم شيئاً . فان أردت ان تتركنا ، برضاك ، فلن اشي بك . لدي امر بتسليم الأسير وأنا اقوم به . وعليك الآن ان توقع الورقة .

— عبثاً ما تطلب . فلن أنكر انك قد تركته لي .

— لا تكن خبيثاً معي . أنا أعلم انك ستقول الحقيقة . انك من هنا ، وأنت رجل . ولكن عليك ان توقع ، هذه هي العادة .

وفتح دارو درجه ، وأخرج دواة صغيرة مربعة مليئة بالحبر البنفسجي ، والريشة الخشبية الحمراء مع الرأس الذي كان يساعده على رسم نماذج من الخط . ووقع . وطوى الدركي الورقة بعناية ووضعها في محفظته . ثم توجه نحو الباب .

قال دارو : « سأرافقك » .

قال بالدوسي : « لا . لا داعي لأن تكون مهذباً . لقد اهنتني » .

ونظر الى العربي الذي ما يزال جامداً في المكان نفسه ، وتنفس بهيئة محزنة ، ثم استدار نحو الباب . وقال : « السلام عليك ، يا بني » وصفق الباب خلفه وانتصب بالدوسي أمام النافذة ، ثم اختفى . وماتت خطواته مخنوقة بالثلج . وتحرك الجواد خلف الحاجز فارتعد الدجاج . وبعد لحظة ، عاد بالدوسي ومرّ أمام النافذة وهو يسحب الجواد من عنانه . وتوجه جهة الطريق الوعرة

من دون أن يعود ، واختفى هو في أول الأمر ثم الجواد . وسمع صوت تدحرج حجرة كبيرة ، وعاد دارو نحو الأسير الذي لم يكن قد تحرك ، ولكنه لم يغادره بنظره . وقال المعلم بالعربية : « انتظر » . وتوجه نحو الغرفة وعندما اجتاز العتبة ، غيّر رأيه ، فتوجه نحو المكتب وأخذ المسدس ووضعه في جيبه . ثم دخل الغرفة من دون أن يلتفت .

وظل طويلاً ممدداً على الديوان ينظر الى السماء تنقبض شيئاً فشيئاً ، ويستمع الى الصمت . كان هذا الصمت نفسه الذي كان يبدو له شاقاً في الأيام الأولى لوصوله ، بعد الحرب . وكان قد طلب وظيفة في المدينة الصغيرة القائمة في سفح سلسلة الجبال التي تفصل الصحراء عن الأنجاد المرتفعة ، فقد كانت هنا أسوار صخرية خضراء وسوداء في الشمال ، وردية أو بنفسجية فاتحة في الجنوب ، تحدد حدّ الصيف الأبدي . وكانوا قد عينوه في وظيفة منطقة داخلة اكثر نحو الشمال ، على النجد نفسه . وفي بادىء الأمر ، كانت الوحدة والسكون قاسيين عليـه في هذه الأراضي الجاحدة ، المسكونة فقط بالحجارة . وفي بعض الأحيان ، كانت أثلام توحي بالزرع ، ولكنها كانت قد شُقت بقصد اقامة حجر ما صالح للبناء . ولم يكن الحرث هنا يعمـل الا لحصد الحصى . وفي أحيان أخرى ، كانوا يحفرون بعض نحاتات من تراب ، مكدسة في حفر ، يغذون منها حدائق القرى الهزيلة . وهكذا كان الحصى وحده يغطي ثلاثة أرباع هذه البلاد ؛ ان المدن كانت تولد منها ، وتشرق ، ثم تضمحل . وكان الرجال يمرون فيها ، يتحابون أو يتعاضون في الخناق ثم يموتون . ففي هذه الصحراء ، لا يستطيع أحد ، لا هو ولا ضيفه ان يكونا شيئاً . ومع ذلك ، فقد كان دارو يعلم انه لا يستطيع ، لا هو ولا ضيفه أن يتمكنا من العيش حقاً خارج هذه الصحراء .

وعندما نهض ، لم يكن أي صوت يتسرب من غرفه الدرس . ودهش لهذه الفرحة الحقة التي أحس بها لمجرد تفكيره بأن العربي كان قد استطاع الهرب وانه سيجد نفسه وحيداً من دون أن يكون لديه شيء ليقرره . ولكن

الأسير كان هنا. كان ممدداً على طوله بين الموقد والمكتب. وكان ينظر الى السقف، وعيناه مفتوحتان. وفي هذا الوضع، كانت ترى خاصة شفتاه السميكتان اللتان كانتا تكسبانه هيئة استياء. وقال لـه دارو: «تعال». فنهض العربي وتبعه. وأشار المعلم إلى كرسي أمام الطاولة تحت النافذة في غرفة الصف. وأخذ العربي مكاناً من دون أن يكفّ عن النظر الى دارو.

سأله دارو: «هل أنت جائع؟»

فرد الأسير: «نعم».

ومدّ دارو صحنين. وأحضر طحيناً وزيتاً وعجن في طبق كعكة وأشعل فرن البوتغاز الصغير. وبينما كانت الكعكة تنضج، خرج ليحضر من تحت السقف الصغير جبنة وبيضاً و ملحاً وحليباً معلباً، وعندما نضجت الكعكة، وضعها لتبرد على حافة النافذة وأسخن الحليب المذوب بالماء، وأخيراً خفق البيض وحضّر عجة. وفي احدى حركاته اصطدم بالمسدس المدسوس في جيبه اليمنى. فوضع الصحن، وذهب الى غرفة الصف ووضع المسدس في درج مكتبه. وعندما عاد الى الغرفة، كان الليل يهبط فأشعل النور وقـدم الطعام للعربي وهو يقول له: «كُلْ». فأخذ الآخر قطعة من الكعكة، ووضعها بلهفة في فمه وتوقف.

وقال له: «وأنت؟».

ــ سآكل بعدك أيضاً.

وانفتحت الشفتان الضخمتان قليلاً، وتردد العربي، ثم عضّ بحزم الكعكـة.

وعندما انتهى العربي من عشائه، كان ينظر الى المعلم.

ــ هل أنت القاضي؟

ــ لا. انني أحتفظ بك حتى الغد.

ــ ولماذا تأكل معي؟

ــ انني جائع.

وسكت العربي . ونهض دارو وخرج . وأحضر سريراً نقالاً من تحت السقف الصغير ، ومدّه بين الطاولة والموقد ، بشكل عمودي كسريره هو . وسحب غطائين وضعهما على السرير النقال من حقيبة كبيرة موضوعة في زاوية ، كان يستخدمها كرف لوضع الملفات . ثم توقف . وشعر بنفسه عاطلاً عن العمل ، فجلس على سريره . لم يعد هناك شيء ليُعمل او يُهيّأ . وينبغي أن ينظر إلى هذا الرجل . وإذن فقد كان ينظر اليه ، ويحاول أن يتصور هذا الوجه المشحون بالغضب . ولم يتوصل الى ذلك . كان يرى فقط النظر المعتم اللامع والفم الحيواني .

وسأله بصوت أدهشته فيه لهجة العداء : — لماذا قتلته ؟ .

وأشاح العربي بوجهه .

وقال : — لقد هرب . فلحقت به .

ورفع عينيه نحو دارو وكانتا مليئتين بنوع من التساؤل الشقي : ما الذي سيفعلونه بي ؟

— هل أنت خائف ؟

فتصلب الآخر ، وهو يشيح بنظره .

— هل أنت آسف ؟

ونظر اليه العربي فاغر الفم . وكان يبدو انه لم يفهم شيئاً، وكان الغضب يجتاح دارو . وفي الوقت نفسه كان يشعر بنفسه مرتبكاً وكأنه مستعار في جسده الضخم وهو منزوٍ بين السريرين .

وقال بنفاد صبر : — نم هنا ، هذا هو سريرك .

ولم يكن العربي يتحرك . ونادى دارو :

— قلْ .

ونظر اليه المعلم .

— هل سيعود الدركي غداً ؟

— لا أدري .

– هل ستأتي معنا ؟

– لا أدري . لماذا ؟

ونهض الأسير وتمدد على الغطاء نفسه ، وقدماه نحو النافذة . وكان ضوء المصباح الكهربائي ينصبّ رأساً في العينين اللتين أغمضهما للحال . وسأله دارو وهو مغروس أمام السرير : « لماذا » ؟

وفتح العربي عينيه تحت الضوء المعمي ونظر اليه وهو يجهد في أن لا يرف بأجفانه وقال :

– تعال معنا .

وحتّى منتصف الليل ، لم يكن دارو قد نام بعد . لقد اندس في الفراش بعد أن تعرى تماماً : كان ينام عارياً في العادة . ولكنه تردد إذ وجد نفسه في الغرفة بلا ثياب . وأحس بنفسه غير محميّ ، وراودته فكرة ارتداء ثيابه من جديد، ثم رفع كتفيه . لقد رأى رجالاً آخرين عراة ، وان اقتضى الأمر ، فلسوف يكسر خصمه قسمين . وكان باستطاعته أن يتأمله من سريره ، وهو ممدد على ظهره ، جامد أبداً ومغمض العينين تحت الضوء القوي . وعندما أطفأ دارو المصباح ، بدت الظلمات تتجمد دفعة واحدة . وشيئاً فشيئاً ، عاد الليل حياً عبر النافذة في سماء بلا نجوم تتحرك بهدوء . وبعد لحظة ميّز المعلم الجسد الممدد أمامه . لم يكن العربي ليتحرك أبداً ، ولكن عينيه كانتا تبدوان مفتوحتين . واذا بنسيم خفيف يحوم حول المدرسة . لعله يطرد الغيوم فتعود الشمس .

وفي الليل اشتدت الريح ، وتحرك الدجاج قليلاً ، ثم سكن ، وتقلب العربي على جنبه ، كاشفاً ظهره لدارو ، فاعتقد هذا الأخير بأنه يئن . وترصد بعد ذلك تنفسه ، الذي غدا أشد قوة وأكثر انتظاماً . وكان يستمع الى هذا النفس القريب جداً ويحلم من غير أن يستطيع النوم.

وفي الغرفة التي كان ينام فيها وحيداً ، منذ سنة ، كان هذا الحضور يزعجه . ولكنه كان يزعجه كذلك أنه كان يفرض عليه نوعاً من الاخوة كان يرفضه

في الظروف الحاضرة التي كان يعرفها جيداً . فالرجال الذين يتقاسمون الغرف نفسها ، سواء كانوا جنوداً أم أسرى ، يعقدون صلة غريبة كما لو أنهم اذ يرمون بأسلحتهم مع ثيابهم ، يلتقون كل مساء ، رغم اختلافهم ، في وحدة قديمة من الحلم والتعب المشترك . ولكن دارو كان يتحرك . انه لم يكن يحب هذه الحماقات . ويجب أن ينام .

ومع ذلك ، فبعد فترة ، عندما تحرك العربي بشكل غير ملحوظ ، لم يكن المعلم قد نام بعد . وعند حركة الأسير الثانية تصلب متنبهاً . كان العربي ينهض ببطء على ذراعيه ، بحركة مروبص تقريباً . وجلس على السرير ، وانتظر ، بلا حراك ، دون أن يدير رأسه نحو دارو ، كما لو انـــه كان يصغي بكل انتباهه . ولم يتحرك دارو . لقد فكر ان المسدس بقي في درج مكتبه . من الأفضل أن يعمل حالاً . غير أنه ظل يتأمل الأسير . وكان هذا الأخير ، يضع ، بالحركة اللينة نفسها ،قدميه على الأرض ، وينتظر قليلاً ، ثم يبدأ ينتصب ببطء . وكان دارو على وشك أن يناديه حين رأى العربي يبدأ بالمشي مشية طبيعية هذه المرة ، ولكنها غريبة بصمتها . كان يتجه نحو الباب الداخلي الذي يؤدي الى حائط السقف الصغير . وأخذ يلعب بزلاج الباب بحذر ، وخرج وهو يدفع الباب خلفه من دون أن يغلقه . ولم يكن دارو قد تحرك . « كان يفكر بأنه يهرب . وانه لتخلص مريح . » ومع ذلك فقد أرهف سمعه . لم يكن الدجاج يتحرك : ان العربي اذاً كان في النجد . وعندها تناهى الى سمعه صوت خافت لسقوط ماء لم يتبينه الا عندما التصق العربي من جديد بالباب ، وأغلقه بعناية ، وعاد لينام من جديد من دون أن يحدث ضجة . وإذذاك أدار دارو له ظهره ونام . وبعد فترة أيضاً ، خيل اليه انه يسمع ، من أعماق نومه ، خطوات خفية حول المدرسة . وردد في نفسه : « انني احلم ، انني أحلم » . ثم نام .

وعندما استيقظ ، كانت السماء منقشعة . وكان هواء بارد ونقي يدخل من النافذة التي لم تكن مغلقة بأحكام . كان العربي ينام ، وكان ينطوي اللحظة على نفسه تحت الأغطية ، فاغر الفم ، مستسلماً للنوم كلياً . ولكن عندما هزه

دارو ، أخذته إنتفاضة عنيفة ، ونظر الى دارو من دون أن يعرفه بعينين مجنونتين وبتعبير بلغ حداً من الخوف حتّى ان المعلم تراجع خطوة إلى الوراء. وقال له : « لا تخف . انني أنا . يجب أن نأكل . » وهزّ العربي رأسه وقال نعم . وعاد الهدوء الى وجهه . ولكن التعبير في وجهه ظل مفقوداً وشارداً .

وكانت القهوة مهيأة ، فشرباها ، وهما جالسان على السرير النقال يمضغان قطعتي الكعكة . ثم قاد دارو العربي تحت السقف وأشار الى الصنبور حيث كان يغتسل وعاد الى الغرفة ، فطوى الأغطية والسرير النقال ، وأصلح سريره ورتب الغرفة . وعندها خرج الى الساحة التي كوّم فيها التراب وهو يمر بالمدرسة . كانت الشمس ترتفع في السماء الزرقاء . وكانت أشعة ناعمة قوية تغمر النجد المهجور . وكان الثلج يذوب في بعض أمكنة المنحدر . سوف تعود الحجارة الى الظهور ثانية . وجلس المعلم القرفصاء على حافة النجد وأخذ يتأمل الامتداد المهجور . كان يفكر ببالدوسي . كان قد أزعجه ، وكان قد طرده بطريقة ما كما لو أنه لم يكن يريد أن يرتبطا بمصير مشترك . انه ما زال يسمع وداع الدركي ، وكان يحس إحساساً غريباً بأنه فارغ ومتهم من دون أن يدري سبباً لذلك . وفي تلك اللحظة ، سعل الأسير ، في الطرف الآخر من المدرسة،وسمعه دارو ، بالرغم منه تقريباً ، ثم اغتاظ فرمى بحجرة صغيرة أخذت تصفـّر في الهواء قبل أن تنغرس في الثلج . كان الجرم الشنيع الذي قام به هذا الرجل يثيره ، ولكن تسليمه كان ضد الشرف . إنّ مجرد التفكير في هذا يجننه من الاذلال . وكان يلعن معاً جماعته الذين أوفدوا له هذا العربي ، والعربي نفسه الذي كان قد جروُ على القتل ولم يعرف كيف يهرب . ونهض دارو. واستدار في الساحة المكدسة بالتراب، وانتظر، جامداً ، ثم دخل إلى المدرسة .

كان العربي منحنياً على الأرض الممدة بالسمنتو تحت السقف الصغير يغسل أسنانه باصبعيه . ونظر اليه دارو . ثم قال له : « تعال » . ودخل الى الغرفة أمام الأسير . ولبس كنزة الصيد فوق الكنزة الصوفية وانتعل حذاء الجري . وانتظر وهو واقف حتّى انتهى العربي من وضع شاشته وخفّيه .

واجتازا المدرسة ودلّ المعلم رفيقه على باب الخروج وقال له : « إذهب » . فلم يتحرك الآخر . وقال له دارو : « سآتي » . وخرج العربي . وعاد دارو الى الغرفة وقام بصرّ حزمة من الخبز والبلح والسكر . وفي غرفة الصف ، تردد لحظة أمام مكتبه، وذلك قبل أن يخرج، ثم اجتاز عتبة المدرسة وأقفل الباب وقال : « من هنا » . واتجه نحو الشرق ، والأسير يتبعه . وخيل اليه ، وهو على بعد مسافة قصيرة من المدرسة ، انه يسمع صوتاً خفيفاً خلفه . وعـاد عـلى أعقابه ، يفتش حول البيت : لم يكن هنـاك من أحـد . وكان العربي ينظر اليه يقوم بعمليته تلك ، من غير أن يبـدو عليه انه قـد فهم . وقال دارو : «هيّا» .

ومشيا ساعة واستراحا أمام قمة كلسية . كان الثلج يذوب والشمس تشرب من ماء المستنقعات ، وتنظف بسرعة النجد الذي جفّ شيئاً فشيئاً وأخـذ يهتز كالهواء نفسه . وعندما سلكا الطريق ، كانت الأرض تصدي تحت اقدامهما . وكان عصفور يشق الفضاء امامهما وهو يرسل صرخة فرحة . وأخذ دارو يعب بملء رئتيه الضوء الرطب فاذا بنوع من النشوة ينبعث في نفسه أمام المدى الواسع المألوف ، الذي غدا كله اصفر تقريباً تحت قبة سماء زرقاء . ومشيا ساعة أخرى ، وهما ينحدران نحو الجنوب . ووصلا الى نوع من التل المسطح المكون من صخور قابلة للتفتت . وابتداء من هنا ، أخذ النجد ينحدر نحو الشرق حتى سهل منخفض يستطيع المرء أن يميز منه بعض أشجار رفيعة ، كما ينحدر نحو الجنوب حتى كوم صخرية تضفي على المنظر شكلاً مضطرباً .

وفحص دارو الاتجاهين . ولم تكن في الأفق الا السماء ، ولم يكن إنسان واحد يظهر . والتفت نحو العربي ، فكان ينظر اليه من غير أن يفهم . ومدّ دارو اليه الصرة . وقال له : « خذ ، يوجد هنا بلح وخبز وسكر . وبوسعك أن تتماسك يومين . وهذا ألف فرنك أيضاً » . وأخذ العربي الصرة والنقود ، ولكنه كان يحتفظ بيديه الممتلئتين على مستوى صدره ، كما لو انه لم يكن

يعرف ماذا سيفعل بما يعطاه. وقال له المعلم : « أنظر ، الآن (وأشار إلى جهة الشرق) هذه هي طريق تنجيك . ان امامك ساعتين من المشي. اني تعبت ، وهم ينتظرونك » وكان العربي ينظر ناحية الشرق ، وهو ما يزال يمسك بالصرة والنقود . وأخذ دارو ذراعه وأداره ، من دون لطف ، ربع دورة نحو الجنوب. وكان طريق لا يكاد يبين يظهر تحت أقدام المرتفع الذي كانا يقفان عنده . وقال دارو : « هذا هو الدرب الذي يجتاز النجد ، وبعد يوم من المشي ، ستجد المراعي والبدو الأوائل وسوف يستقبلونك ويحمونك حسب شريعتهم » وكان العربي قد التفت نحو دارو ولون من الرعب يلوح على وجهه وقال : « اسمع » . فهزّ دارو رأسه : « لا . اصمت . والآن ، فانني أتركك » . وأدار له ظهره ، وقام بخطوتين كبيرتين باتجاه المدرسة . ونظر نظرة مترددة الى العربي الجامد ومضى . وبعد بضع دقائق ، لم يعد يسمع الا أصوات أقدامه هو ، المصدية على الأرض الباردة ، ولم يلتفت الى الوراء . غير أنه أدار رأسه بعد فترة . كان العربي ما يزال هناك ، على حافة الرابية ، وقد تدلى ذراعاه الآن وهو ينظر الى المعلم . وأحس دارو بحلقه ينقبض . ولكنه شتم ، من فرط نفاد صبره ، وأشار بحركة كبيرة ثم مضى. وكان قد ابتعد كثيراً عندما توقف من جديد ونظر . لم يكن هناك أحد بعدُ على الرابية .

وتردد دارو . وكانت الشمس الآن مرتفعة بعض الشيء في السماء ، فأخذت تلتهم جبينه . ورجع المعلم على أعقابه ، متردداً في باديء الأمر بعض الشيء ، ثم بعزم . وعندما وصل إلى الرابية الصغيرة ، كان يسبح بالعرق . فتسلقها دفعة واحدة ثم توقف ، وهو يلهث على القمة . كانت حقول الصخر ، في الجنوب ، ترتسم بوضوح على السماء الزرقاء ؛ ولكن بخار اللهب كان يرتفع من السهل ناحية الشرق . ومن خلال الضباب الخفيف ، اكتشف دارو ، وهو منقبض القلب ، العربي الذي كان يمشي ببطء على طريق السجن .

وبعد فترة ، كان المعلم ، وهو مغروس أمام نافذة غرفة الصف ، ينظر إلى الضوء الجديد يبزغ من أعالي السماء على النجد كله من دون ان يميزه . وخلفه

على اللوح الأسود ، بين منعطفات الأنهر الفرنسية ، كانت كتابة خطّتها يد مرتبكة قد رسمت بالطباشير الكلمات التي يقرأها : « لقد سلّمتَ أخانا وستدفع ثمن ذلك » . ونظر دارو الى السماء والنجد ومن ورائهما الأراضي غير المرئية التي كانت تمتد حتّى البحر . وفي هذا البلد الواسع الذي كان قد أحبه كثيراً ، كان وحيداً .

جوناس

او

الفنان في العمل

كان جلبار جوناس ، الرسام الفنان ، يؤمن بنجمه . والحق انه لم يكن يعتقد الا به ، بالرغم من انه كان يشعر في نفسه باحترام وبنوع من الاعجاب بدين الآخرين . بيد أن ايمانه الخاص لم يكن بلا فضائل ما دام يقوم على الاقرار ، بصورة غامضة ، بأنه سيحصل على كثير من الأشياء من غير أن يستحق شيئاً . ثم انه لم يكن يبدي قط دهشته عندما تنازع زهاء عشرة من النقاد مجد اكتشاف موهبته اذ ناهز الخامسة والثلاثين من عمره . ولكن صفاء نفسه الذي نسبه بعضهم الى الاكتفاء ، يفسره جيدا ، على العكس من ذلك ، تواضع واثق . وان جوناس يعترف بفضل نجمه أكثر من اعترافه بمواهبه .

ولقد بدا أكثر دهشة عندما عرض عليه بائع لوحات راتباً شهرياً يحرره من كل هم . وعبثاً بيّن له المهندس راتو ، الذي كان يحب جوناس ونجمه منذ كان في الليسيه ، ان هذا الراتب لا يكاد يؤمن له حياة لائقة ، وان البائع لا يخسر في ذلك شيئاً ، فكان جوناس يجيب « مهما يكن ... »

أما راتو الذي كان ينجح في كل ما يباشره ، ولكن بفضل قوة قبضته ، فقد كان يؤنب صديقه قائلاً « ماذا ، مهما يكن ؟ يجب أن تناقش في ذلك » . ولم يحصل في ذلك شيء . فقد كان جوناس في قرارة نفسه يحمد نجمه ، وقد قال للبائع : « كما تشاء » ثم ترك الأعمال التي كان يشغلها في دار والده للنشر

ليكرس نفسه بأجمعها للرسم وكان يقول : « إن ذلك لحظ » .

والواقع انه كان « حظاً يستمر »، فمهما كان يمضي بحثاً في ذاكرته كان يجد هذا الحظ يسعفه أبداً . وهكذا فانه كان يغذي اعترافاً رقيقاً بجميل مكان والديه لأنهما قد ربّياه أولاً بشرود، مما أتاح له فرصة للاحلام، ولانهما ثانياً قد افترقا بسبب خيانة زوجية، أو على الأقل كانت هذه هي الحجة التي أدلى بها والده الذي نسي ان يوضح أن القضية كانت قضية خيانة من نوع خاص .. فقد كان لا يطيق أعمال امرأته الخيرية التي كانت حتماً قديسة لا دينية، وكانت قد وهبت نفسها للانسانية المعذبة . ولكن الزوج كان يدعي ان من حقه أن يتصرف تصرف سيد بفضائل زوجته . وكان هذا « العطيل » يقول « حسبي خداعاً مع الفقراء » .

وكان سوء التفاهم هذا مفيداً لجوناس . فان أهله كانوا قد قرأوا أو علموا أن من الممكن سرد حالات عديدة للقتلة الساديين المنحدرين من أبوين مطلّقين، فكانوا يتنافسون في بذل ألوان التدليل ليخمدوا في المهد بذور مثل هذا التطور السيء . وبقدر ما كان تأثير الصدمة خفياً في وعي الطفل كان قلقهم يزداد ، فلا بد أن تكون الاكتساحات التي لا تُرى أعمق الاكتساحات . وكان كافياً أن يبدي جوناس رضاه عن نفسه ، أو عن يومه حتى يبلغ قلق أهله المعتاد حد الجنون . وكان انتباههم يتضاعف بحيث لا يعود للطفل بعد ما يشتهيه .

وقد استحق شقاء جوناس المزعوم في النهاية أخاً مخلصاً في شخص صديقه راتو . فقد كان أهل هذا الأخير يدعون غالباً رفيق الليسيه الصغير لأنهم كانوا يرثون لحظه السيء . وكانت أحاديثهم المشفقة توحي الى ابنهم الرياضي القوي الرغبة في أن يأخذ تحت حمايته الولد الذي كان يعجب بما كان يحققه من نجاحات لامبالية . ولقد كان الاعجاب والحميا مزيجاً هنا لصداقة تلقاها جوناس كباقي الأشياء ببساطة مشجعة .

ولما أتم جوناس دروسه من دون مجهود خاص كان من حظه ايضاً أن

يلتحق بدار والده للنشر ليجد هناك له وضعا، وبطرق غير مباشرة، ليجد موهبته في الرسم. ولقد كان والد جوناس الذي كان يعد أول ناشر في فرنسا يعتقد أن الكتاب هو المستقبل أكثر من أي وقت كان، وبسبب أزمة الثقافة بالذات. وكان يقول ان التاريخ يدل على أنه بقدر ما تقل القراءة يكثر شراء الكتب. وعلى هذا المبدأ فانه لم يكن يقرأ المخطوطات التي تعرض عليه الا في النادر ولا يعتمد في نشره الا على شخصية المؤلف أو حالية مواضيعه: (ولما كان الجنس من هذه الوجهة هو الموضوع الحالي الوحيد دائماً فقد انتهى الناشر الى التخصص به.) وكان يهمه فقط ان يجد لها اخراجاً مثيراً ودعاية مجانية. ولقد تلقى جوناس في الشقة المخصصة للقراءة فراغاً كثيراً كان عليه أن يستغله. وهكذا التقى بالرسم.

وللمرة الأولى اكتشف في نفسه حماسة غير منتظرة، ولكنها لا تكل، فأخذ يكرس أيامه يرسم فيها من غير تعب ويبدع في هذا التمرين. ولم يكن هناك ما يبدو انه يثير اهتمامه اكثر. وبالكاد استطاع أن يتزوج في السن المناسبة. فقد كان الرسم يفترسه كله. ولم يكن يحفظ للكائنات وللظروف العادية الا بسمة مرحبة تغنيه عن أن ينشغل بها. ولكي يتاح لجوناس أن يهتمّ بالحب كان من الضروري أن يقع حادث للدراجة بخارية كان راتو يقودها بقوة. فتجمدت ذراع جوناس اليمنى في ضمادة، وانتابه الملل. وهنا ايضاً فقد حُمل على أن يرى في هذا الحادث الكبير تأثير نجمه المسعد. فلولاه ما كان لديه الوقت للنظر الى لويز بولن كما تستحق.

على أن راتو كان يرى ان لويز لا تستحق أن يُنظر اليها، ولم يكن يحب، وهو القصير الكثيف، الا النساء الطويلات. وكان يقول له: «انني لا أعلم ماذا تجد في هذه النملة» والواقع أن لويز كانت قصيرة القامة، سوداء البشرة والشعر والعينين، ولكنها متناسبة وجميلة الهيئة. وكان جوناس الطويل الصلب يتعطف على النملة خاصة لكونها نشيطة بارعة. فقد كانت رسالة لويز النشاط، ورسالة كهذه كانت تتلاءم جيداً مع ذوق جوناس للجمود ولحسناته، ولقد

أخلصت لويز أول الأمر للأدب لاعتقادها ، على الأقل ، ان النشر كان يهم جوناس . كانت تقرأ كل شيء من غير ترتيب ، وأصبحت في أسابيع قليلة قادرة على أن تتحدث في كل شيء . ولقد أعجب جوناس بها وحكم أن باستطاعته نهائياً أن يستغني عن القراءة ما دامت لويز تحيطه علماً بما فيه الكفاية وتتيح له ان يعرف الضروري من الاكتشافات العصرية . وكانت لويز تؤكد قائلة : « يجب ألاّ يقال فلان خبيث أو بشع ولكن يجب أن يقال انه يريد في نفسه أن يكون خبيثاً أو رديئاً . » وكانت الدقة في هذه الملاحظة ذات أهمية ويخشى منها أن تقود ، على الأقل ، كما لاحظ ذلك راتو ، الى شجب الجنس البشري. ولكن لويز حسمت ذلك وهي تدل على أن هذه الحقيقة التي تساندها الصحافة والتي تهتم بشؤون القلب والمجلات الفلسفية ، هي عالمية ولا يمكن أن تُناقش . وقال جوناس « كما تشائين » ناسياً بسرعة هذا الاكتشاف القاسي ليحلم بنجمه .

وأهملت لويز الادب عندما علمت أن جوناس لا يهتم الا بالرسم، وعندها تولعت بالفنون التشكيلية، وأخذت تختلف الى المتاحف والمعارض مصطحبة جوناس الذي كان لا يفهم ما يرسمه معاصروه، ويجد نفسه متضايقاً من بساطته كفنان . على انه كان يسر بأن يكون محيطاً بكل ما يتعلق بفنه . صحيح انه ينسى في اليوم التالي حتى اسم الرسام الذي كان قد شهد آثاره، ولكن لويز كانت على حق عندما كانت تذكره جازمة باحدى الحقائق التي احتفظت بها في مرحلتها الأدبية وهي ان الانسان لا ينسى في الحقيقة شيئاً . ومن غير ريب كان النجم يحمي جوناس الذي كان يستطيع أن يوفق على هذا النحو ، ومن غير نية سيئة ، بين يقين الذاكرة وسهولة النسيان .

ولكن كنوز الاخلاص التي كانت لويز تنثرها كانت تتلألأ بأبهى شعاعاتها في حياة جوناس اليومية ، ولقد كان هذا الملاك الطيب يغنيه عن شراء الأحذية والكساء والثياب الداخلية ، هذا الشراء الذي يختصر بالنسبة الى الرجل العادي بضعة أيام هي ، في ذاتها، قصيرة جداً. وكانت تتحمل عبء ألوان اختراعات

آلة قتل الوقت ابتداء من مطبوعات الضمان الاجتماعي المبهمة الى أوضاع الضرائب المالية المتجددة دوماً. وكان راتو يقول له: «اجل ان ذلك متفق عليه. ولكنها لا تستطيع أن تذهب الى طبيب الأسنان بدلاً منك» ولم تكن تفعل ذلك. ولكنها كانت تخابر الطبيب وتأخذ منه المواعيد في أحسن الأوقات. وكانت تهتم بتفريغ سيارة الأربعة الاحصنة، وبحجز الأمكنة في فنادق الفرص وبالفحم المنزلي. وكانت تشتري هي نفسها الهدايا التي كان جوناس يرغب في تقديمها. وكانت تختار وترسل أزهاره. وكانت تجد أيضاً الوقت الكافي في بعض الأمسيات فتمر عليه، في غيابه، فتصلح له السرير الذي لن يحتاج الى استعماله هذه الليلة قبل أن ينام.

وبالاندفاع نفسه، دخلت هذا السرير، واهتمت بأخذ موعد مع المختار واصطحبت اليه جوناس قبل سنتين من اشتهاره. ونظمت رحلة شهر العسل بطريقة يزوران فيها جميع المتاحف. هذا بعد أن وجدت سلفاً، في وسط أزمة السكن، شقة مؤلفة من ثلاث غرف أقاما فيها بعد عودتهما. ثم وضعت ولدين: صبياً وفتاة، الواحد أثر الآخر، تمشياً على خطتها بأن تضع ثلاثة أولاد، هذه الخطة التي نفذت بعد فترة وجيزة من ترك جوناس دار النشر ليكرس نفسه للرسم.

وبعد ولادتها مباشرة لم تعد لويز تهتم الا بولدها ثم بأولادها. وكانت تحاول أن تساعد زوجها، ولكن الوقت كان ينقصها. وكانت تأسف من دون شك ان تهمل جوناس، ولكن طبعها الجازم كان يمنعها من أن تقف عند هذه التأسفات. وكانت تقول: لتكن الخسارة، فان لكل طاولته.. وكان هذا التعبير يسر جوناس الذي كان يعتز به لأنه كان يرغب كجميع فناني عصره بأن يُعدّ صانعاً. واذن فقد أُهمل الصانع بعض الشيء فاضطر الى شراء أحذيته بنفسه، وبالرغم من أن ذلك كان من طبيعة الأشياء، فان جوناس كان يُغرى بأن يستشعر من ذلك السعادة. ولا شك في انه كان عليه أن يقوم بجهد ليزور المخازن، ولكن هذا الجهد كان يكافأ بساعة من ساعات الوحدة التي كانت تضفي قيمة كبيرة

على سعادة الزوجين .

ومع ذلك فقد كان موضوع المجال الحيوي يغلب سائر موضوعات الزوجين. ذاك ان الوقت والمجال كانا يضيقان في الوقت نفسه حولهما . ولم تكن تبقي ولادة الأولاد ومهنة جوناس الجديدة ومسكنهما الضيق وضآلة الماهية التي كانت تحول دون شراء شقة أوسع من ذلك — لم يكن ذلك كله يبقي الا مجالاً ضيقاً لنشاط لويز وجوناس المزدوج . وكانت الشقّة تقوم في الطابق الأول في فندق قديم من أيام القرن الثامن عشر في الحي القديم من العاصمة . وكان كثير من الفنانين يسكنون في هذه الدائرة . وكانوا مخلصين للمبدأ القائل ان التماس الجديد في الفن ، يجب أن يتم في اطار قديم .

وكان جوناس يشاطرهم هذا الاعتناء فيسر كثيراً في أن يعيش في هذا الحي .

أما من جهة القدم فان شقته كانت قديمة على أي حال . ولكن بعض ترتيبات حديثة جداً أضفت عليه جواً فريداً يقوم خاصة في كونه يقدم لزائريه حجماً كبيراً في الوقت الذي لا يحتل فيه سوى مسافة ضيقة . فالغرف المتميزة بجدرانها المرتفعة المزينة بنوافذ بديعة كانت مهيأة من غير شك بأبعادها الضخمة للاستقبال والابهة . ولكن ضرورات المجتمع والدخل السنوي المحدود قد أجبرت الملاكين المتتابعين على أن يقطعوا هذه الغرف الواسعة جداً بحواجز فيعددوا بهذه الطريقة الشقق التي يؤجرونها بثمن مرتفع لقطيع مستأجريهم .

بالرغم من ذلك لم يكونوا يقللون من قيمة ما يسمونه بالتكعيب الهوائي الهام . وهذه الحسنة لم تكن لتنكر . ولكن يجب أن تنسب فقط الى عجز الملاكين في أن يقطعوا الغرف ايضاً في ارتفاعها . ومن دون هذا العجز لم يكونوا ليترددوا في تقديم التضحيات اللازمة ليقدموا مزيداً من المساكن للجيل الصاعد المزواج والسريع التناسل في هذا العصر . ولم يكن التكعيب الهوائي ليقدم سوى الحسنات . فهو يجعل الغرف صعبة في تدفئتها عند الشتاء مما يجبر الملاكين للأسف أن يزيدوا في تعويض التدفئة . وفي الصيف بفضل رحابة

المساحة المكسوة بالزجاج ، فقد كان النور ينتهك الشقة من جميع وجهاتها . ولم يكن هناك من شبابيك خارجية. لقد أهمـــل الملاكون وضعها وقد يئسوا من دون شك من علو الشبابيك وسعر النجارة، ولكن ستائر سميكة يمكن أن تؤدي الدور نفسه ولا تشكل أي مشكلة من حيث الثمن ما دامت تقوم على نفقة المستأجرين. ولكن الملاكين لم يكونوا يرفضون مساعدة المستأجرين فيقدموا لهم بأسعار لا تزاحم ستائر يحضرونها من مخازنهم الخاصة. وفي الحياة العادية كان هؤلاء الأمراء الجدد يبيعون النسيج القطني والمخمل.

ولقد ذهل جوناس لحسنات الشقة ورضي من غير مشقة بسيئاتها وقال للملاك بصدد التعويض عن التدفئة : كما تشاء. أما من ناحية الستائر فانه وافق لويز التي رأت انه يكفي ان تسدل الستائر في غرفة النوم وحدها وان تبقى النوافذ الأخرى عارية. وكان هذا القلب الطاهر يقول : ليس لنا ما نخفيه؛ وقد انجذب جوناس خاصة بالغرفة الكبيرة ذات السقف المرتفع جداً بحيث لا يمكن التفكير باقامة جهاز للانارة. كان المرء يدخل رأساً إلى هذه الغرفة التي يصلها ممر ضيق بغرفتين أصغر منها متتابعتين. ومن طرف الشقة يجاور المطبخ المنافع ومساحة ضيقة مزدانة باسم قاعة الحمام. ويمكن بالفعل ان تكون كذلك شرط ان يوضع جهاز في اتجاه عمودي وان يرضى المرء بأن يتلقى الماء المنهمر في صمود مطلق.

وكان ارتفاع السقوف الغريب حقاً وصغر الغرف يجعلان من هذه الشقة مجموعة غريبة من متوازيات مستطيلات مكسوة كلها تقريباً بالزجاج وكلها أبواب ومنافذ لا يجد الأثاث فيها سنداً، وتبدو فيها الكائنات الضائعة في الأشعة البيضاء القوية كأنها أحجام صغيرة تسبح في اناء مملوء. ثم ان جميع النوافذ كانت تطل على مساحة ، أي انها تطل ، لمسافة قصيرة ، على نوافذ أخرى تتبع الاسلوب نفسه ويبدو وراءها رأساً الرسم المرتفع لنوافذ جديدة تطل على ساحة أخرى. « انها غرفة المرايا » هكذا كان يقول جوناس مفتوناً. وعلى نصيحة راتو فقد تقرر ان تخصص احدى الغرفتين الصغيرتين للزوجين،

أما الأخرى فلايواء الطفل الذي سيولد . أما الغرفة الكبيرة فستستخدم مصنعاً لجوناس في النهار وغرفة في مشتركة في المساء وعند ساعات الطعام . والحق انه كان باستطاعتهم عند الضرورة أن يأكلوا في المطبخ، هذا اذا رضي جوناس ولويز أن يظلا واقفين. وقد ضاعف راتو من جهته الترتيبات اللبقة . فبفضل الأبواب التي تدور بسهولة والطاولات الصغيرة التي تختفي بسرعة والتي لا يمكن طيها – بفضل هذا كله توصل جوناس إلى أن يعوض عن قلة الأثاث وأن يبرز طابع علبة المفاجئات الكامنة في هذه الشقة الطريفة .

ولكن عندما امتلأت الغرف باللوحات والأولاد كان لا بد من التفكير بمسكن جديد من غير تأخير . فقبل ولادة الطفل الثالث كان جوناس يعمل ، بالفعل ، في الغرفة الكبيرة، وكانت لويز تشتغل الصوف في الغرفة الزوجية بينما يحتل الطفلان الغرفة الأخيرة ويجران فيها قطاراً كبيراً كما يسرحان أيضاً ، على قدر المستطاع ، في الشقة كلها . ولقد تقرر آنذاك أن يوضع المولود الجديد في زاوية من المرسم الذي فصله جوناس اذ كدس تصاويره بشكل حاجز مما يساعد على أن يكون الطفل في متناول السمع للاجابة على نداءاته . ولم يكن جوناس بحاجة إلى أن ينزعج، فقد كانت لويز تسبقه الى ذلك، ولم تكن تنتظر صراخ الطفل حتى تدخل الى المرسم وإن كانت تتخذ ألوف الاحتياطات ، ودائماً على رؤوس الأصابع. وقد تأثر جوناس من هذا الحذر فأكد يوماً للويز بأنه ليس بالغ الحساسية وان باستطاعته أن يعمل على صوت خطاها . وكانت لويز تجيب ان هذا يعني أيضاً ان لا توقظ الطفل، واذ امتلأ جوناس اعجاباً بقلب الأم هذا الذي كشفت عنه لويز فقد كان يضحك ملء فمه من توهمه . وفي الحال لم يستطع أن يبوح بأن تدخلات لويز الفجائية كانت أكثر ازعاجاً من انفجار حقيقي . ذلك ان هذا التدخلات كانت تطول أكثر من ذلك ، ثم انها كانت تتم وفق حركات تبدو فيها لويز وقد أحنت جسمها قليلاً الى الوراء وساقها ممدودة كثيراً أمامها، فلم تكن تمر دون أن ترى . بل ان هذه الطريقة كانت تعاكس نواياها التي كانت تصرح بها ، لأن لويز كانت تخشى في كل لحظة

أن تصدم احدى اللوحات التي كان المرسم مليئاً بها . وكان الصوت يوقظ الطفل فكان يبدي استياءه بوسائله الخاصة ، القوية نوعاً ما . أما الأب فقد كان يسر بامكانيات ابنه الرئوية،فيسرع لكي يدلل الطفل،ثم تحل امرأته محله . وعندها يرفع لوحاته ، ثم يسمع ، مسحوراً ، والريشة في يده،صوت ابنه الملح المتسلط .

لقد كان ذلك في الوقت الذي أتاحت فيه شهرة جوناس أن يكثر اصدقاؤه . وكان هؤلاء الأصدقاء يعلنون عن أنفسهم بالتليفون أو في مناسبات الزيارات الفجائية . أما التليفون الذي وضع في مكانه المحسوب من المرسم ، فقد كان يرن غالباً ، وعلى حساب نوم الطفـــل دائماً الذي كان يمزج أصواته برنين الآلة الآمرة . واذا صادف ان كانت لويز تعتني بالأولاد الآخرين ، فقد كانت تجهد بأن تعدو معهم،ولكنها في غالب الأحيان كانت تجد جوناس وقد أمسك الطفل بيد وفي اليد الأخرى الريش وسماعة التليفون التي كانت تنقل اليه دعوة مخلصة الى تناول الغداء . وكان جوناس يسر كثيراً بأن يدعى الى الغداء على بلادة حديثه . ولكنه كان يفضل أن يخرج في المساء لكي يترك نهاره للعمل . وللاسف فقد كان الصديق في أغلب الأحيان لا يجد سوى هذا الوقت وهذا الغداء بالذات . وقد كان يحرص على أن يحتفظ به للعزيز جوناس . ولقد كان العزيز جوناس يقبل قائلاً : «كما تشاء » . ثم يعلق السماعة قائلاً : «كم هو لطيف » . ثم يعود الطفل الى لويز ويعود بعد ذلك الى عمله الذي ما يلبث أن يقطعه الغداء أو العشاء . وكان يحب أن تبعد اللوحات وان تطوى الطاولة المتقنة ليجلس مع الصغار . وفي أثناء الفطور كان جوناس ينظر الى اللوحة في طريق اتمامها فيحصل له ، في البداية على الأقل ، أن يجد أطفاله بطيئين بعض الشيء في المضغ وفي الابتلاع ،مما كان يطيل كل وقعة اطالة بالغة . ولكنه قرأ في جريدته أن عليه أن يأكل ببطء لكي يهضم جيداً ، فأخذ منذ ذلك اليوم يجد في كل وجبة أسباباً لكي يستمتع استمتاعاً أطول .

وفي بعض الأحيان كان أصدقاؤه الجدد يزورونه . ولم يكن راتو يأتي الا بعد العشاء ، اذ كان يقضي النهار في مكتبه ، ثم انه كان يعلم ان الرسامين

يعملون على ضوء النهار. ولكن أصدقاء جوناس الجدد كانوا في أغلبهم ينتمون الى طبقة الفنانين أو النقاد. بعضهم قد رسم وبعضهم سيرسم، والآخرون يهتمون بما قد رسم أو سيرسم. ولكنهم بالطبع كانوا يقدرون جداً الأشغال الفنية ويشكون العالم الحديث الذي يجعل متابعة هذه الأشغال المذكورة في غاية الصعوبة، وكذلك تجربة التأمل التي لا غنى للفنان عنها. وقد كانوا يشكون ذلك طوال إجتماعات بعد الظهر، ويرجون جوناس أن يتابع عمله كما لو أنهم غير حاضرين وأن يعاملهم بحرية، لأنهم ليسوا من البرجوازيين ويعرفون ما قيمة وقت الفنان. وقد كان جوناس يسر بأن يكون له أصدقاء يتقبلون أن يشتغل بحضورهم فيعود الى عمله من دون أن ينقطع عن الاجابة على الأسئلة التي كانت توجه اليه وان يضحك للنكات التي كانت تروى.

لقد كان هذا النصيب الوافر من الطبيعة يوفر لأصدقاء جوناس أمناً وراحة متزايدين. فقد كان سرورهم حقيقياً الى درجة بعيدة.

ولقد كان انبساط نفوسهم بالغاً حتى انه كان ينسيهم وقت الطعام. أما الأطفال فقد كانت ذاكرتهم أقوى، وكانوا يركضون ويندمجون في الجمع ويصرخون. وكان الزائرون يهتمون بهم اذ يقفزون من ركبة الى ركبة. وكان النهار يميل الى المغيب فيريح جوناس ريشه. ولا يبقى الا أن يدعو أصدقاءه الى تناول العشاء وأن يتكلموا أيضاً حتى ساعة متأخرة عن الفن طبعاً، ولكن خاصة عن الرسامين الفاشلين السارقين أو المتغرضين الذين لم يكونوا هناك. وكان جوناس يحب أن ينهض باكراً لكي يستفيد من ساعات النهار الأولى. وكان يعلم أن ذلك سيكون شاقاً وان طعام الفطور لن يكون جاهزاً وانه هو نفسه سيكون متعباً. ولكنه كان يسر أيضاً أن يتعلم في سهرة واحدة أشياء كثيرة ليست دون فائدة لفنه، ولو بطريقة غير محسوسة، وكان يقول: «في الفن كما في الطبيعة لا يضيع شيء». انه تأثير النجم.

وكان يلحق بالاصدقاء التلاميذ أحياناً. فقد جوناس الآن صاحب مدرسة. ولقد دهش من ذلك في باديء الأمر ولم يكن يرى ما عساهم يتعلمون منه،

هو الذي عليه أن يكتشف كل شيء . فقد كان الفنان فيه يمشي في الظلمات . فكيف كان باستطاعته أن يعلم الدروب الحقيقية ؟ ولكنه علم بسرعة ان تلميذاً لا يعني بالضرورة من ينشد أن يتعلم منه شيئاً ما . وأغلب ما يجعل المرء من نفسه تلميذاً للذة المجردة في أن يعلم استاذه . وعندها استطاع أن يقبل بتواضع هذا المزيد من الشرف . وكان تلاميذ جوناس يفسرون له مطولاً ما رسمه ولماذا . وهكذا اكتشف جوناس في آثاره نيات كثيرة كانت تدهشه بعض الشيء وأشياء كثيرة لم يضعها . وكان يعتقد نفسه فقيراً، وبفضل تلامذته وجد نفسه غنياً دفعة واحدة . وأحياناً أمام هذه الثروات الكثيرة المجهولة حتى الآن ، كان ظل من الفخر يلامس جوناس وكان يقول : ومع ذلك فان هـــذا صحيح . فهذا الوجه في خلفية الرسم لا يُرى غيره . انني لا أفهم جيداً ما عساهم يعنون عندما يتكلمون عن الأنسنة غير المباشرة . على انني بفضل هذا التأثير قد ذهبت بعيداً . ولكن سرعان ما كان ينفض على لوحته هذه السلطة المزعجة . وكان يقول « بل هو النجم الذي يذهب بعيداً . أما أنا فأبقى بالقرب من لويز والأولاد » .

ولقد كان للتلاميذ ميزة أخرى : هي أنهم كانوا يرغمون جوناس على أن يقسو على نفسه . فلقد رفعوه في محادثتهم، وخاصة بما يختص بوعيه وطاقته على العمل، الى درجة لم يكن يُسمح له معها بأي تراخ أو ضعف . وهكذا فقد عادته القديمة في أن يقضم قطعة من السكر أو الشكولا عندما كان ينهي مقطعاً صعباً أو قبل أن يستأنف عمله . ومع ذلك فانه في الوحدة يكاد أن ينحاز بخفية الى هذا الضعف . ولكنه كان يساعد في هذا التقدم الاخلاقي بفضل حضور تلامذته وأصدقائه حضوراً شبه دائم . ويجد نفسه أمامهم متضايقاً بعض الشيء من أن يقضم الشكولا، ثم انه لا يستطيع من أجل عادة صغيرة أن يقطع الحديث الجذاب .

وبالاضافة الى ذلك كان تلامذته يفرضون عليه أن يبقى أميناً لجماليته . فجوناس الذي كان يرسم طويلاً ليلتقي من بعيد نوعاً من البرق الخاطف يتدفق

من خلاله الواقع أمام عينيه نوراً بكراً ، لم يكن لديه سوى فكرة غامضة عن جماليته الخاصة . أما تلامذته فقد كان لديهم من ذلك عدة أفكار عن هذه الجماليات، متناقضة وحاسمة . ولم يكونوا يمزحون في ذلك . ولقد كان جوناس يستجيب للنزوة ، صديقة الفنان المتواضع . ولكن تقطيب حواجب تلامذته أمام بعض اللوحات التي تحيد عن فكرتهم يرغمه على أن يفكر اكثر من ذلك بقليل حول فنّه ، مما عاد بالخير كله .

وأخيراً كان التلامذة يساعدون جوناس بطريقة أخرى اذ يجبرونه على أن يعطي رأيه في إنتاجهم الخاص . والواقع انه لم ينقض يوم من غير أن تحمل له لوحة ما يكاد صاحبها يصممها ، حتّى يضعها بين جوناس وبين اللوحة التي سيرسمها لكي يجعل التصميم يكتسب أفضل الضوء .

وكان لا بد من اعطاء رأي . وحتّى هذا العهد كان جوناس يشعر دائماً بخجل خفي من عجزه العميق على أن يحكم على قطعة فنية ، ولقد كانت جميع اللوحات تبدو له هامة ولا فرق بينها باستثناء بعض اللوحات التي كانت تستخفه أو اللوحات ذات الخربشة الغليظة . وهكذا أصبح مرغماً على أن يكون لنفسه جعبة من الأحكام مختلفة كاختلاف تلامذته في موهبتهم كجميع فناني العاصمة . وكان عليه حين يحضرون ان يثبت فوارق متنوعة ليرضي كلاً منهم . ولقد دفعه هذا الارغام المستحب الى أن يكون لنفسه قاموساً للكلمات وآراء حول فنه . ولم تنكمش طبيعته المنفتحة بهذا الجهد . ولقد فهم بسرعة أن تلاميذه لا يطلبون منه إنتقادات .. ولكنهم يطلبون منه فقط تشجيعات وان استطاع مدائح . ولكن يجب أن تختلف المدائح . ولم يكن جوناس يرضى بأن يكون محبوباً فقط بطبيعته ولكنه استطاع ان يكون محبوباً ببراعة .

وهكذا كان وقت جوناس يمضي وهو يرسم بين أصدقاء وتلاميذ يجلسون على مقاعد صُفّت الآن صفوفاً مستديرة حول مسند الرسم . وغالباً ما كان يطل الجيران من النوافذ المواجهة ويلتحقون بجمهوره . وكان يناقش ويتبادل وجهات النظر ويتفحص اللوحات التي كانت تعرض عليه ، ويبتسم لمرور

لويز ويعزي الأطفال ويجيب بحرارة على المكالمات التليفونية من دون أن يترك أبداً ريشاته التي يضيف بها من وقت إلى آخر شيئاً الى اللوحة المبدوءة. ولقد كانت حياته، من ناحية، ملأى جيداً وجميع ساعاته مشغولة، وكان يشكر القدر الذي كان يجنبه الضجر، ومن ناحية أخرى كان لا بد من اللمسات لملء لوحة ما. وكان يفكر أحياناً ان للضجر حسنات ما دام المرء يستطيع أن يهرب منه بفضل العمل المرهق. وعلى عكس ذلك فقد كان انتاج جوناس يخف بالقدر الذي كان اصدقاؤه يبدون فيه أكثر أهمية. وحتى في الساعات النادرة التي كان فيها وحيداً فانه كان يجد نفسه تعباً جداً، وفي هذه الساعات لم يكن يقدر الا ان يحلم بتنظيم جديد من شأنه أن يوفق بين مسرات الصداقة وفضائل الضجر.

ولقد نفض هذا الهم للويز التي كانت من جهتها قلقة أمام نمو طفليها الكبيرين وضيق غرفتهما. واقترحت أن تضعهما في الغرفة الكبيرة بعد أن يحجب سريرهما بستار وأن تنقل الصغير الى الغرفة الصغيرة حيث لا يستيقظ على رنات التليفون. ولما كان الطفل لا يشغل أي مكان، فقد كان بوسع جوناس أن يتخذ مرسمه في الغرفة الصغيرة.. وأما الكبيرة فانها تصلح لاستقبالات النهار. وهكذا يستطيع جوناس أن يأتي ويروح وأن يقابل اصدقاءه وأن يعمل مطمئناً الى ان رغبته بالوحدة لا بد أن تفهم.

ثم ان ضرورة ايواء الولدين الكبيرين للنوم كانت تسمح له بتقصير السهرات. وقال جوناس بعد تفكير: «ان ذلك لمدهش». وأضافت لويز: «اذا ذهب أصدقاؤك باكراً فاننا سوف نرى بعضنا مدة أطول.» وكان جوناس ينظر اليها. وكان شبح من الحزن يمر على وجه لويز. فاذا هو يضمها اليه منفعلاً ويقبلها بكل حنان فتستسلم له، فاذا هما سعيدان كما كانا في بدء زواجهما. ولكنها انتفضت: لعل الغرفة كانت صغيرة جداً لجوناس. وأمسكت لويز متراً مطوياً فوجدا ان جوناس يشتغل عادة في مساحة أكبر بقليل جداً من المساحة التي سيأخذها منذ الآن اذا أخذ بعين الاعتبار ازدحام

لوحاته ولوحات تلاميذه التي كان عددها يتجاوز عدد لوحاته . وباشر جوناس بالنقل دونما ابطاء . ومن حسن الحظ أن شهرته كانت تكبر بالقدر الذي كان يقل فيه عمله . فكل معرض كان ينتظر ويمجد سلفاً . صحيح أن هناك عدداً صغيراً من النقاد ومن بينهم اثنان من زوار المرسم المعتادين كانوا يعدلون بعض تحفظات حرارة أحاديثهم ، ولكن سخط تلاميذه كان يعوض هذا البلاء الصغير ، بل ويذهب الى أبعد منه . وكان هؤلاء يؤكدون بشدة انهم يضعون لوحات المرحلة الأولى في أعلى مرتبة ولكن الأبحاث الحالية تهيء ثورة حقيقية . وكان جوناس يلوم نفسه لهذا الضيق الذي كان يعتريه كلما مدحت لوحاته الأولى فيشكر المادحين باندفاع . وكان راتو وحده يتذمر قائلاً « يا لهم من أشخاص غريبين ، انهم يحبونك تمثالاً جامداً . فالعيش معهم ممنوع . » ولكن جوناس كان يدافع عن تلاميذه فيقول لراتو : « انك لا تستطيع أن تفهم فأنت تحب كل ما أفعله » . وكان راتو يضحك قائلاً : « ليست هي لوحاتك التي أحب ، وانما رسمك . »

على أن اللوحات كانت تثير الاعجاب . وبعد معرض استقبل بحرارة عرض البائع على جوناس من تلقاء نفسه زيادة في راتبه الشهري . وقد رضي جوناس وهو يصرح بعرفان جميله . وقال للبائع : « ان من يسمعك يعتقد انك تعلق أهمية على المال » . وقد كان جديراً بمثل هذه الطيبة ان تكسب قلب الرسام . على أن جوناس استأذن البائع في أن يعرض للبيع احدى لوحاته في سوق خيرية ، فاذا بالبائع يقلق ليعرف اذا كانت هذه السوق الخيرية « رابحة » . وكان جوناس يجهل ذلك . وعرض البائع آنذاك مراعاة نصوص الاتفاق الذي كان يمنحه هو وحده كل امتياز للمبيع . وقال له : « ان الاتفاق هو الاتفاق » ولم يكن يحسب للاحسان حساباً في اتفاقهما بالذات . وأجاب الرسام : « كما تشاء » .

ولم يعد الترتيب الجديد على جوناس الا بكل رضى . فلقد استطاع فعلاً أن ينعزل غالباً لكي يجيب على الرسائل المتعددة التي أصبح يتلقاها والتي لم

تستطع لياقته أن تبقيها بلا جواب . وكان بعضها يتعلق بفن جوناس وبعضها الآخر ، وهو الأكثر ، كان يتعلق بشخص المراسل يريد اما ان يشجع في موهبته للرسم ، واما انه يريد أن يطلب نصيحة او عوناً مادياً . وبقدر ما كان اسم جوناس يظهر في المجلات كان يدعى الى التدخل كجميع الناس لكي يفضح ألواناً من الظلم مثيرة جداً . وكان جوناس يجيب ويكتب عن الفن ويشكر ويعطي نصائح ويحرم نفسه من ربطة عنق ليؤدي عوناً صغيرا ، ويوقّع اخيراً الاحتجاجات العادلة التي كانت تعرض عليه . وكان راتو يقول له : « أراك الآن تتعاطى السياسة ؟ دع هذا للكتاب وللمتيات القبيحات . » الا انـــه لم يكن يوقع الا الاحتجاجات التي كانت تظهر غريبة عن كل تفكير حزبي . ولكنها كلها كانت تنتمي الى ذلك الفكر المستقل الجميل . وطوال الأسابيع كان جوناس ينقل جيوبه منتفخة بالبريد المهمل والمتجدد باستمرار . وكان يرد على أكثرها عجلة وعادة الصادرة عن مجهولين ويحفظ لوقت آخر الرسائل التي تتطلب جواباً مطولاً ، أي رسائل الأصدقاء .

وقد كانت مثل هذه الواجبات الكثيرة تمنعه على أي حال من البطالة ولامبالاة القلب . وكان دائماً ما يشعر أنه متأخر ومذنب حتى عندما كان يعمل مما كان يحصل له بين وقت وآخر .

وكانت لويز تتجند اكثر فأكثر للأولاد في أن تفعل كل ما كان باستطاعة جوناس أن يفعله في المنزل في غير هذه الظروف . ولقد كان تعيساً من جراء ذلك . فهو يعمل بعد كل حساب من أجل لذته . وأما هي فقد كان لها النصيب الأسوأ . وكان أكثر ما يلاحظ ذلك اذ كانت تهبط الى السوق لتتبضع . فكان الولد البكر يصرخ : « التليفون » . فيوقف جوناس هنا لوحته ليعود اليها وقد هدأ قلبه مع دعوة اضافية . وكان صوت عامل على الباب الذي فتحه له احد الأولاد يلعلع : « الغاز ! الغاز ! » وعندما كان جوناس يغادر التليفون أو الباب كان يتبعه الى الغرفة الصغيرة صديق أو تلميذ وغالباً الاثنان معاً ليتموا الحديث الذي كانوا قد بدأوا به . واعتاد الجميع على الممر شيئاً فشيئاً . وكانوا

يقفون فيه ويثرثرون فيما بينهم ويأخذون جوناس شاهداً من بعيد أو يقومون بهجوم قصير على الغرفة الصغيرة . وكان الداخلون يهتفون : « هنا على الأقل نستطيع أن نراك قليلاً ، وعلى كيفنا » . فيرق جوناس ويقول : هذا صحيح ، الواقع اننا لا يرى بعضنا بعضاً أبداً » . وكان يشعر أيضاً انه يخيب أمل الذين لم يرهم فيحزن لذلك . وغالباً كان المقصود بهم أصدقاء كان يفضل أن يلقاهم . ولكن الوقت كان ينقصه فلم يكن باستطاعته أن يقبل كل شيء . ثم ان شهرته تأثرت من ذلك فكانوا يقولون : لقد أصبح متكبراً منذ أن نجح واشتهر ، فهو لا يستقبل أحداً . أو يقولون انه لا يحب احداً سوى نفسه . كلا انه كان يحب رسمه ولويز والأولاد وراتو وبعض أصدقائه أيضاً . وكان يشعر بود نحو الجميع . ولكن الحياة قصيرة والوقت سريع وطاقته الخاصة ذات حدود . ولقد كان من الصعب أيضاً أن يرسم العالم والرجال وفي الوقت نفسه أن يعيش معهم . وهو من جهة أخرى لم يكن يستطيع أن يتأفف ولا أن يشرح مواقفه لأنهم كانوا يربتون على كتفه قائلين : ايها الشجاع السعيد ، انها « فدية المجد » .

وإذن فقد كان البريد يتراكم ولم يكن التلاميذ يسمحون بأي تراخ ، وقد أصبح الناس يتدفقون فيرى جوناس انهم يهتمون بالرسم، بينما كان بوسعهم أن يهتموا بالأسرة الانكليزية المالكة أو التغييرات الفلكية . والحقيقة ان أكثر الزوار كانوا من سيدات المجتمع ولكنهن من ذوات البساطة البالغة في التصرفات. فلم يكن يشترين بأنفسهن لوحات وانما كن يصحبن أصدقاءهن عند الفنان على أمل كان يخيب غالباً في أن يشتروا بدلاً منهن . وبالمقابل كن يساعدن لويز وخاصة في اعداد الشاي للزوار . وكانت الفناجين تنتقل من يد الى أخرى وتجتاز الممر من المطبخ الى الغرفة الكبيرة ثم ترجع لتستقر في المرسم حيث كان جوناس يستمر في الرسم بين قبضة من الأصدقاء والزوار كانوا يكفون لملء الغرفة الى أن يحين الوقت الذي يضع ريشه ليأخذ ، شاكراً ، القدح الذي ملأته له سيدة ساحرة .

وكان يشرب شايه وينظر الى تصميم وضعه تلميذ على مسند رسمه يضحك مع أصدقائه ويتوقف ليسأل بعضهم في أن يلقوا له الرسائل التي كتبها في الليل في صندوق البريد ، وينهض إبنه الصغير الثاني الذي وقع بين ساقيه ، ويقف ليأخذ له صورة . ثم ينادونه : « التليفون » ! فيضع فنجانه ويمر وهو يعتذر على الجمع الذي كان يملأ ممره ثم يعود ، ويرسم زاوية من لوحة ويتوقف ليجيب على الساحرة التي لا بد أن يرسمها بالطبع ثم يعود الى مسند الرسم . كان يعمل ولكن كان أحدهم يهتف له : « جوناس ، هات توقيعك » فيسأل : « من يريده ، ساعي البريد ؟ » فيكون الجواب : لا انهم كادحو كشمير — حاضر ! حاضر ! ثم يهرول إلى الباب ليستقبل صديقاً شاباً ويسمع احتجاجه ويشعر بالقلق لمعرفة اذا كانت القضية سياسية ، ثم يوقع بعد أن يكون قد تلقى تطميناً كاملاً ،وفي الوقت نفسه توصيات عن الواجبات التي تخلقها له امتيازاته كفنان . ثم يعود إلى الظهور ليمثل أمامه ملاكم انتصر في مباراة حديثة أو أكبر كاتب مسرحي في بلد أجنبي من غير أن يفهم اسميهما . وكان المؤلف يواجهه مدة خمس دقائق معبراً بنظرات منفعلة عما لم يكن جهله للفرنسية يتيح له أن يقوله بطريقة أوضح بينما يهز جوناس رأسه بود صادق . ومن حسن الحظ أن هذا الوضع الذي لا مخرج له كان يفض بظهور مفاجىء لرقيع يرغب في أن يقدم نفسه للرسام الكبير . وكان جوناس يقول بسرور كبير انه كان كذلك . ويتحسس رزمة الرسائل في جيبه ، ويمسك بريشه ويستعد ليستأنف الرسم . ولكن كان عليه أولاً أن يشكر السيدة التي قدمت تهديه كلبين جميلين ويسوقهما الى الغرفة الزوجية ثم يعود ليتقبل من الواهبة الدعوة إلى تناول الغداء معها ، ويخرج ثانية على صيحات لويز ليلاحظ أن الكلبين لم يدربا على أن يعيشا في البيت ،فاذا هو يقودهما الى الحمام حيث يأخذان في النباح باستمرار مطرد بحيث يعتاد السمع عليهما . ومن بعيد لبعيد ، ومن فوق الرؤوس ، كان جوناس يلحظ نظرة لويز فيبدو له أن هذه النظرة كانت حزينة . وتحل نهاية النهار أخيراً ويستأذن الزائرون بالخروج بينما

يتأخر غيرهم في الغرفة الكبيرة ينظرون إلى لويز بحنو وهي تنيم الأولاد . وقد تساعدها بلطف سيدة أنيقة ذات قبعة تعبر عن أساها لاضطرارها الى العودة بعد قليل الى فندقها الخاص،حيث تبدو الحياة،وقد بعثرت في طابقين ، أقل صميمية وحرارة مما لدى جوناس .

وذات سبت قدم راتو بعد الظهر ليحضر للويز مجففاً للثياب رائعاً يمكن تعليقه في سقف المطبخ . فوجد الشقة غاصة بالناس . وفي الغرفة الأخيرة رأى جوناس محاطاً بمعارف وهو يرسم ولكنه كان هو نفسه يرسمه فنان رسمي . وكان هذا الأخير ، برأي لويز ، ينفذ أمر الدولة « وتلك هي صورة الفنان يعمل » . وانتحى راتو زاوية في الغرفة ينظر الى صديقه وقد بدا عليه جيداً انه مستغرق في عمله . وانحنى أحد المعارف الذي لم يسبق له أن رأى راتو وهمس قائلاً : « ان صحته لجيدة » . ولم يجب راتو وأضاف الآخر : « هل ترسم ؟ وأنا أرسم أيضاً ، فصدقني اذن أنه يسف » . « — من الآن ؟ » . سأل راتو « — أجل انه النجاح . لقد انتهى » وقال له راتو : أهو يسف أم هو قد انتهى ؟ فأجابه : « ان الفنان الذي ينحدر هو فنان قد انتهى . أنظر ، لم يعد لديه شيء ليرسم . انهم يرسمونه هو نفسه ، وسيعلقونه على الجدار » .

وبعد زمن كان الجميع يجتمعون ليلاً في الغرفة الزوجية وقد وقف جوناس بينما جلست لويز وراتو على طرف السرير ويصمتون . وكان الأولاد ينامون والكلاب في القرية . ولويز قد فرغت من غسل الصحون الكثيرة التي جففها جوناس وراتو . وكان التعب الشديد يستولي عليها . وكان راتو قد قال لها أمام ركام الصحون : « احضري خادمة » ولكن لويز كانت تجيبه بكآبة : « وأين تريد أن نضعها ؟ » وعندها كان الجميع يسكتون ، وفجأة سأل راتو جوناس « هل أنت مسرور ؟ » وابتسم جوناس وكان يبدو عليه التعب وأجاب : « أجل ان الجميع لطفاء معي » . ورد عليه راتو : « لا ، احذرهم ، فليسوا جميعاً طيبين — من ؟ — أصدقاؤك الرسامون مثلاً » .

وأردف جوناس : « انني أعلم ذلك ! ولكن الكثير من الفنانين هم

كذلك. انهم ليسوا متأكدين من وجودهم حتى أكبرهم شأناً وهم من أجل ذلك يلتمسون الأدلة ويحكمون ويشجبون. ان ذلك يقويهم. انه بدء الوجود. انهم وحدهم.» وكان راتو يهز رأسه. ثم أضاف جوناس: «صدقني انني أعرفهم ويجب أن أحبهم». وقال راتو: «وأنت، هل أنت موجود؟ انك لا تتكلم بسوء عن أحد». وأخذ جوناس يضحك «آه انني غالباً ما أسيء التفكير فيهم. ولكنني أنسى ذلك». ثم أضاف بجد «لا، انني غير واثق من وجودي الآن ولكنني سأوجد. انني متأكد من ذلك.»

وسأل راتو لويز عن رأيها في ذلك. فخرجت من تعبها لتقول ان جوناس على حق: ان آراء زائريه لا قيمة لها. وعمل جوناس وحده هو الذي يهم. وقد شعرت جيداً أن الطفل يضايقه. ثم انه يكبر وأصبح من الضروري شراء ديوان جديد سوف يحتل مكاناً. فما العمل في انتظار ايجاد شقة أكبر من شقتهم؟ ونظر جوناس الى الغرفة الزوجية. أجل لم يكن ذلك هو الاحسن. فالسرير كان عريضاً جداً. ولكن الغرفة كانت فارغة كل النهار. قال ذلك للويز التي كانت تفكر: ففي الغرفة على الأقل لن يزعج جوناس أحد. فلا يجرؤ أحد على أن يستلقي على السرير. وسألت لويز بدورها راتو: ما رأيك في هذا؟ ونظر راتو الى جوناس. وكان هـذا الأخير ينظر الى النوافذ التي تقابله. ثم يرفع عينيه الى السماء الخالية من النجوم ليزيح الستائر. وإذ عاد كان يبتسم لراتو ثم يجلس بالقرب منه على السرير من دون أن ينبس بكلمة. وأما لويز فقد صرحت بأنها ستذهب لتستحم وقد بدت انها عاجزة عن المشي. وعندما التقى الصديقان وحدهما شعر جوناس بكتف راتو تلامس كتفه فلم يكن ينظر اليه ولكنه قال: انني أحب أن أرسم، وبودي أن أرسم حياتي كلها ليلاً ونهاراً، أليس ذلك من حسن الحظ». وكان راتو ينظر اليه بحنو ويجيبه: «أجل انه من حسن الحظ».

وكان الأولاد يكبرون وكان جوناس سعيداً في أن يراهم مسرورين وأقوياء. وكانوا يذهبون الى المدرسة ويعودون في الساعة الرابعة. وكان

جوناس يستطيع أن يستفيد منهم يوم السبت بعد الظهر والخميس وأيام الفرص العديدة والطويلة بكاملها. ولم يكونوا كباراً بحيث يلعبون بهدوء ولكنهم كانوا يبدون من القوة بحيث يملأون الشقة بمنازعاتهم وضحكاتهم. وكان من الضروري تهدئتهم وتهديدهم واصطناع الرغبة في ضربهم. وكان على لويز ان تهتم بالغسيل الذي يجب أن يظل نظيفاً والازرار التي يجب أن تخاط من جديد. وقد بدت لويز عاجزة عن الاضطلاع بهذا كله. ولما كان جوناس لا يستطيع أن يؤوي خادمة ولا حتى أن يدخلها الى الصميمة الضيقة التي كانوا يعيشون فيها، فقد اقترح جوناس الاستنجاد بروز، أخت لويز التي ظلت أرملة، مع ابنة كبيرة لها. وصرحت لويز قائلة: أجل اننا لن نتضايق مع روز أبداً وباستطاعتنا أن نسرحها حين نشاء.

ولقد سر جوناس بهذا الحل الذي كان يعزي لويز ويعزي في الوقت نفسه ضميره الخاص المرتبك أمام تعب امرأته. وكان العزاء يكبر بقدر ما كانت الأخت تصحب معها ابنتها غالباً للمساعدة. وكانتا تملكان أطيب قلب في العالم. ولقد كانت الفضيلة والتجرد ينفجران من طبعهما النبيل. ولقد فعلتا المستحيل لتساعدا لويز في أشغال المنزل ولم تدخرا أي وقت. ولقد ساعدهما على ذلك ضجر حياتهما المنعزلة واللذة التي كانتا تجدانها عند لويز. وكما كان مقدراً، فلم يتضايق بالفعل أحد.. ومنذ اليوم الأول شعرت قريبتا لويز كأنهما في منزلهما. ولقد أصبحت الغرفة الكبيرة مشتركة للطعام والغسيل ولرعاية الأطفال. وأما الغرفة الصغيرة حيث كان ينام المولود الأخير، فكانت تستعمل لصف اللوحات ولسرير كانت تنام عليه روز أحياناً عندما كانت تأتي من دون ابنتها.

وكان جوناس يحتل الغرفة الزوجية ويعمل في المساحة التي تفصل السرير عن النافذة. ولكن كان عليه أن ينتظر حتى تنظف الغرفة بعد تنظيف غرفة الأولاد فلا يعود أحد يعكر عليه الا بجلب بعض قطع من الثياب اذ ان الخزانة الوحيدة في البيت قد وضعت في هذه الغرفة. على أن الزوار من جهتهم،

بالرغم من أن عددهم قد تناقص بعض الشيء ، قد اتخذوا بعض العادات ، وبالرغم من أمل لويز ، لم يكونوا ليترددوا في أن يستلقوا على السرير الزوجي لكي يثرثروا بسهولة مع جوناس . وكان الأولاد يأتون أيضاً ليقبلوا والدهم قائلين : « أرنا الصورة » فكان جوناس يعرض عليهم الصورة التي كان يرسمها ثم يقبلهم بحنو . واذ كان يخرجهم كان جوناس يشعر أن أولاده يملأون قلبه كله . فان حرم منهم فلن يجد الا فراغاً ووحدة . انه يحبهم حبه لرسمه لأنهم الوحيدون في هذا العالم الذين يتمتعون بحيوية كبيرة كحيوية الرسم .

وبالرغم من ذلك كله كان جوناس يشتغل أقل من دون أن يعرف سبباً لذلك . ولقد كان مواظباً دائماً على الرسم . ولكنه كان يشعر الآن بصعوبة في الرسم حتى في أوقات العزلة . وكان يمضي هذه اللحظات متأملاً السماء . لقد كان دائماً شارداً مستغرقاً فأصبح الآن حالماً . كان يفكر في الرسم وفي موهبته بدلاً من أن يرسم . وكان ما يزال يقول لنفسه « انني أحب أن أرسم » . وأما اليد التي تمسك بالريشة فانها تظل متدلية على طول جسمه وهو يستمع الى راديو بعيد .

وكانت شهرته تنخفض في الوقت نفسه . وكان البعض يحضر له مقالات يستشم منها الهجوم وأخرى رديئة وبعضها خبيثة الى درجة كان يشعر معها أن قلبه ينقبض لها . ولكنه كان يقنع نفسه ان في هذا الهجوم فائدة يمكن الاستفادة منها لتدفعه الى العمل خيراً من ذلك . والذين استمروا في زيارته كانوا يعاملونه باحترام أقل من السابق كما لو انه صديق قديم لا حاجة بهم معه الى الكلفة . وعندما كان جوناس يود ان يعود إلى عمله كانوا يقولون له « مهلاً ، ان لديك متسعاً من الوقت » . فكان جوناس يشعر أنهم ، بطريقة ما يلحقونه باخفاقهم الخاص . على أن هذا التضامن الجديد كان له ، من جهة أخرى بعض الفضل . وكان راتو يرفع كتفيه قائلا : انك أبلد مما ينبغي . انهم لا يحبونك مطلقاً . ولكن جوناس كان يجيب : « انهم يحبونني الآن قليلاً . قليلاً من الحب . ان قليلاً من الحب شيء عظيم ولا تهم الطريقة التي نحصل

بها عليه . » وهكذا كان يستمر في الكلام ، وفي كتابة الرسائل وفي الرسم كما يستطيع أن يفعل . وكان يرسم حقاً بين فترة وأخرى خاصة يوم الأحد عندما كان الأولاد يخرجون مع لويز وروز . وفي المساء كان يسر في أن يرى نفسه متقدماً في اللوحة التي يهيئها . وفي هذه الحقبة كان يرسم سماوات .

وفي اليوم الذي أبلغه فيه التاجر انه مضطر ، بالرغم منه ، الى تخفيف راتبه الشهري نتيجة لانخفاض البيع المحسوس ، وافقه جوناس على ذلك ، ولكن لويز بدا عليها القلق . لقد كان ذلك في شهر أيلول ويجب أن تكسو الأولاد إستعداداً لافتتاح المدارس . وانصرفت هي نفسها الى العمل بنشاطها المعتاد . ومع ذلك فقد سُبِقت . فلم تكن روز التي تستطيع الرتي وتقطيب الأزرار بخياطة . ولكن ابنة عم زوجها كانت خياطة فقدمت لتساعدهـــا . وكانت هذه الأخيرة تنتحي بين فترة وأخرى زاوية في غرفة جوناس على كرسي وتبقى ساكنة هادئة ، هادئة الى درجة أوحت فيها لويز الى جوناس بأن يرسم « عاملة » . فقال جوناس : « انها فكرة حسنة » . وأخذ يجرب ، وهدر رقعتين ثم عاد الى سماء كان قد ابتدأ برسمها . وقدم اليه تلميذ متحمس يعرض عليه مقالاً طويلاً لم يقرأه،ولكن علل انه يصف رسمه بالتصنع والبطلان . وتلفن له البائع ليحدثه عن قلقه من انخفاض المبيعات . ولكن جوناس ظل يسترسل في أحلامه وتفكيره . وقال للتلميذ ان في المقال أشياء صحيحة ولكنه ، هو جوناس ، يستطيع أن يعتمد على سنوات عديدة من العمل . وأجاب البائع بأنه يفهم قلقه ، ولكنه لا يشاركه اياه . فان لديه عملاً كبيراً جديداً في الحقيقة سيقوم به . ولسوف يعود كل شيء كالسابق . وعندما كان يتكلم كان يشعر بأنه يصرح بالحقيقة وان نجمه كان هناك . وكان يكفي أن ينظم الأمور تنظيماً جيداً .

وفي الأيام التالية حاول أن يعمل في الممر ، وفي اليوم الذي تلاه حاول أن يعمل في الحمام على ضوء الكهرباء . وبعد يوم حاول العمل في المطبخ . ولكنه ، ولأول مرة ، كان متضايقاً من الناس الذين كان يلقاهم في كل مكان

أولئك الذين لا يكاد يعرفهم ، ومن أهله الذين يحبهم . وبعد مدة من الزمن توقف عن العمل وأخذ يفكر . فلقد كان باستطاعته أن يرسم على الأقل لو كان الفصل يساعد على ذلك . ولكن لسوء الحظ ، فان الشتاء على الأبواب ومن الصعب رسم مشهد قبل الربيع . ومع ذلك فقد حاول ، ثم عدل . فان البرد كان ينفذ حتى قلبه . وعاش أياماً عديدة مع أقمشته جالساً بالقرب منها غالب الأحيان أو مغروساً بالقرب من النافذة منقطعاً عن الرسم ، واعتاد أن يخرج عند الصباح واتخذ لنفسه مشروع رسم تفصيلي أو شجرة أو بيت معوج أو وجه جانبي مأخوذ على عجل . وانقضى النهار من غير أن يعمل شيئاً . وعلى العكس فان أقل اغراء كان يستوقفه كالصحف والتقاء صديق والواجهات وحرارة مقهى . وفي كل مساء كان يجد من دون انقطاع ، وفي اعتذارات كثيرة ، تأنيب ضمير لم يكن ليفارقه . لسوف يرسم ما في ذلك شك ، ولسوف يرسم خيراً من قبل بعد هذه الفترة من الفراغ الظاهر . وكان هذا يعمل في داخله ، وهذا كل شيء . وسوف يخرج النجم بحلة جديدة براقة من بين هذا الضباب المظلم . وفي انتظار ذلك ، لم يكن ليفارق المقاهي . ولقد اكتشف ان الكحول تمنحه الحميا نفسها التي كان يجدها في الأيام المملوءة بالعمل ، أيام كان يفكر بلوحته بهذا الحنو وهذه الحرارة اللذين لم يكن يشعر بهما أبداً الا أمام أولاده . وعند القدح الثاني من الكونياك كان يجد في نفسه هذا الانفعال الحاد الذي يجعله سيد العالم وخادمه في آن واحد . ولكنه كان يجد لذة في الفراغ ويداه عاطلتان عن العمل دون أن يمرغهما بعمل ما . ولكن هذا ما كان يقربه من اللذة التي كان يحيا من أجلها فكان يمضي الآن ساعات طويلة جالساً يحلم في أمكنة ملأى بالدخان والصخب .

ومع ذلك فانه كان يتهرب من الأمكنة والأحياء التي يتردد عليها الفنانون . وعندما كان يلتقي بصديق يكلمه عن رسمه كانت تأخذه أزمة . كان يبدو عليه انه كان يود أن يفر . وعندما يهرب ، كان يعلم ما يقال خلف ظهره : « هو يظن نفسه « رامبرانت » . فيتفاقم ضيقه . ولم يعد يبتسم قط ، على كل

حال . وكان أصدقاؤه القدامى يستخلصون من ذلك نتيجة غريبة ولكن لا مفر منها . « ما دام لا يبتسم قط ، فان ذلك يعني انه راض أشد الرضى عن نفسه » . واذ علم جوناس بذلك غدا أكثر تهرباً وارتياباً، وكان يكفيه أن يدخل مقهى حتى يعتريه شعور بأن شخصاً من الحضور قد عرفه فيسود كل شيء في نفسه . وكان يظل هنالك لحظة مسمراً ، وقد امتلأ عجزاً وأسى غريباً ، وانطوى وجهه على اضطرابه وعلى حاجة ملحة ومفاجئة الى صداقة ما . ويفكر بنظرات راتو الطيبة . وكان يوشك يوماً أن يخرج حين سمع من يقول عنه : « أي وجه هو الآن وجهه » .

وفي مصادفات الأيام والاقداح تعرف على أشخاص آخرين وساعدته نساء . وكان باستطاعته أن يحدثهن قبل عملية الحب أو بعدها وأن يتفاخر قليلاً على الأخص . وكن يفهمنه حتى ولو لم يكن مقتنعات . وكان يخيل اليه أحياناً ان قوته القديمة قد عاودته . وذات يوم شجعته فيه احدى صديقاته عزم على العمل فعاد إلى بيته وحاول أن يعمل من جديد في الغرفة اذ كانت الخياطة غائبة . ولكن بعد ساعة اعاد قماشته الى مكانها وابتسم للويز من غير أن يراها ثم خرج . ولقد شرب النهار كله وأمضى الليل عند صاحبته من دون أن يكون في حالة لاشتهائها . وفي الصباح كان الألم الحي ووجهه المنهوك يستقبلانه في شخص لويز . لقد أرادت أن تعلم اذا كان قد امتلك هذه المرأة . وقال جوناس بأنه لم يفعل ذلك لأنه كان سكران، ولكنه ضاجع نساء آخريات من قبل . ولأول مرة ، وقد تمزق قلبه ، رأى في وجه لويز وجه الغريقة الذي تخلقه المفاجأة والألم . واكتشف حينذاك انه لم يكن يفكر فيها طوال ذلك الوقت ، واستشعر من ذاك الخجل . وطلب منها الصفح . لقد انتهى كل شيء . وغداً سيعود كل شيء كما كان في السابق . ولم تستطع لويز أن تتكلم . ثم استدارت كي تخفي دموعها .

وفي اليوم التالي خرج جوناس باكراً جداً . لقد كان المطر ينهمر . وعندما دخل وقد تبلل كأنه نبات الفطر كان يحمل ألواحاً من الخشب . وفي منزله

كان هناك صديقان قديمان جاءا يأخذان القهوة في الغرفة الكبيرة منذ أن بلغهما الخبر الجديد . وكانا يقولان ان جوناس يغير طريقته . فهو يود أن يرسم على الخشب . وكان جوناس يبتسم قائلاً : « ليس الأمر هو كذلك . وانما ابتديء شيئاً جديداً » . ودخل الممر الضيق الذي يصل بين الحمام والمتفعات والمطبخ . وفي الزاوية المستقيمة التي تنشأ من التقاء الممرين ، توقف جوناس يتأمل طويلاً الجدران العالية التي ترتفع حتى السقف المعتم . انه بحاجة الى سلم . سينزل ليحمله من عند حارس الشقة .

وباشر العمل . وفي منتصف ارتفاع الجدران بنى سقفاً لكي يحصل على نوع من العلية الضيقة بالرغم من ارتفاعها وعمقها . وعند المغرب كان كل شيء قد أنجز . وبفضل السلم تعلق جوناس بسقف العلية . ولكي يتأكد من متانة عمله ، قام ببعض الحركات ، ثم اختلط بالآخرين . وسر كل واحد منهم بأن يجده من جديد ودوداً الى هذه الدرجة . وعند المساء وقد أصبح البيت فارغاً نسبياً أخذ جوناس قنديل غاز وكرسياً وطنفسة واطاراً ، ثم حملها كلهـــا الى العلية تحت أنظار النساء الثلاث والأولاد . وقال جوناس من أعلى مجثمه : انني أعمل هنا من دون أن أزعج أحداً . وسألت لويز ان كان متأكداً من ذلك . فأجاب : أجل يكفيني مكان صغير . وسأكون أكثر حرية . وقد عُرف رسامون كبيرون رسموا على الفتيلة . وأردفت لويز : هل السقف متين ؟ وكان كذلك ، وقال جوناس : « اطمئني ،انه حل موفق » . ثم نزل .

وفي اليوم التالي ، في الساعة الأولى ، قفز الى العلية وجلس ووضع الاطار على الطنفسة والصقها بالحائط ثم انتظر من دون أن يشعل الضوء . والأصوات الوحيدة المباشرة التي كان يسمعها كانت تأتي من المطبخ أو من المنافع . وسائر الضوضاء كانت تبدو بعيدة . وكانت الزيارات ورنين أجراس المدخل والتلفون وأصوات الرائحين والقادمين والأحاديث تأتيه نصف مخنوقة ، كما لو كانت تأتي من الشارع أو من الساحة الأخرى . وبالاضافة الى ذلك فبينما كانت الشقة تطفح بأشعة فجة كان الظل هنا مريحاً . وكان صديق من وقت إلى آخر

يأتي ويجلس تحت العلية ويقول : « ماذا تعمل هنا يا جوناس ؟ » فيجيب : « انني أعمل » ويضيف الصديق : « من دون ضوء ؟ » فيرد عليه جوناس « أجل الآن » لم يكن يرسم ولكنه كان يفكر . ففي الظل بدا له نصف السكون هذا بالنسبة لما عاش حتى الآن كأنه سكون الصحراء أو سكون القبر ، فكان يستمع الى قلبه هو . وكانت تبدو الأصوات التي تصل الى العلية وكأنها لا تعنيه فيما هي موجهة اليه . لقد كان كهؤلاء الأشخاص الذين يموتون وحدهم ، في بيتهم ، في غمرة النوم ، وعندما يقبل الصباح تدوي النداءات التليفونية محمومة ملحة في البيت المهجور فوق جسد سيظل أصم الى الأبد . ولكن جوناس كان يعيش وكان يصغي في نفسه الى هذا الصمت وينتظر نجمه الذي ما يزال مختبئاً . ولكنه يستعد للطلوع من جديد والبروز أخيراً بصفاء فوق فوضى هذه الأيام الفارغة ، وكان جوناس يهتف : « المع ! المع ! ولا تحرمني من نورك » ، على يقين من أن النجم سيلتمع من جديد . ولكن عليه أن يمضي في التفكير ما دام قد منح أخيراً الحظ في أن يكون وحيداً من غير أن ينفصل عن ذويه . وكان عليه أن يكتشف ما لم يستطع أن يفهمه بوضوح حتى الآن بالرغم من انه قد عرفه دائماً ورسمه دائماً كما لو كان يعرفه . وعليه أيضاً أن يلتقط أخيراً هذا السر الذي لم يكن فقط سر الفن . ولقد كان يرى ذلك جيداً . وهو من أجل ذلك لم يكن يضيء المصباح . ولقد أصبح جوناس يصعد كل يوم الى العلية . وقل الزوار . أما لويز فكانت تعير الحديث أهمية قليلة لانشغالها . وكان جوناس ينزل لتناول الطعام ثم يعود الى مجثمه فكان يبقى جامداً لا يتحرك في الظلمة طوال النهار كله . وفي الليل كان يلقى امرأته التي سبقته الى النوم . وبعد بضعة أيام رجا لويز أن ترسل له طعامه ففعلت ذلك بعناية رق جوناس لها . ولكي لا يزعجها في مناسبات أخرى أوصاها بأن تهيء له بعض المؤونة يضعها في العلية ، وشيئاً فشيئاً لم يعد جوناس ينزل في النهار كله . ولم يكد يمد يده الى مؤونته .

وذات مساء نادى لويز وطلب منها بعض الأغطية « سأمضي الليل هنا »

ونظرت اليه لويز وقد أحنت رأسها الى الوراء. وفتحت فمها ثم سكتت. واكتفت أن تتفحص جوناس بهيئة قلقة وحزينة. فرأى فجأة الى أي حدّ قد شاخت. إن تعب حياتهما قد عضّها بعمق هي أيضاً. وفكر آنذاك بأنه لم يُعنْها في الحقيقة قط. ولكنها قبل أن يستطيع الكلام ابتسمت له بحنو انقبض له قلبه. وقالت له: «كما تشاء يا عزيزي!»

ومنذ ذلك الحين وجوناس يمضي لياليه في العلّية ولا ينزل منها تقريباً قط. فخلا البيت من الزوار دفعة واحدة ما داموا لا يستطيعون أن يروا جوناس لا في النهار ولا في المساء. فكان أهله يقولون لبعضهم انه في القرية ويقولون لبعضهم الآخر، وقد أتعبهم الكذب، بأنه قد وجد مصنعاً. ولم يكن سوى راتو وحده يأتي بأمانة فيتسلق السلم، فكان رأسه الكبير الطيب يتجاوز مستوى السقف. وكان يسأله: هل كل شيء على ما يرام؟ فيجيبه جوناس: «على خير ما يمكن». ويضيف راتو: «هل تشتغل؟» فيجيب «كأنني أعمل تماماً» فيسأله راتو: «ولكن ليس لديك قماش». فيرد عليه جوناس «ومع ذلك فانني أشتغل». لقد كان من الصعب أن يطول هذا الحوار بين السلم والعلية. وكان راتو يهز رأسه ثم ينزل ويساعد لويز في اصلاح بعض المرافق أو الاقفال. ثم يذهب ليودع جوناس من دون أن يصعد السلم فيجيبه جوناس في الظلمة: «تحية أيها الصديق القديم» وذات مساء أضاف جوناس الى سلامه كلمة شكراً. فسأله راتو: «ولماذا الشكر؟» فرد عليه جوناس قائلاً: «لأنك تحبني». وذهب راتو وهو يقول: أي نبأ كبير هذا!...

وذات مساء آخر استدعى جوناس راتو فهرع اليه. لقد كان النور مضاء للمرة الأولى. وكان جوناس يطل خارج العلية وعلى وجهه تعبير القلق. وصرخ: إعطني قطعة من القماش.

— ولكن ما بالك قد هزلت حتى أصبحت كالشبح؟

— انني لم أكد أذوق الطعام منذ عدة أيام، ولا خوف من ذلك، فيجب أن أعمل.

ـ ولكن يجب أن تأكل أولاً .
ـ لا ، انني لست جائعاً .
وأحضر راتو قطعة من القماش . وعندما كاد جوناس يختفي من العلية سأله :
ـ كيف هم ؟
ـ من ؟
ـ لويز والأولاد
ـ انهم بحالة جيدة وسيكونون بحالة أفضل لو كنت معهم .
ـ انني لا أتركهم . قل لهم خاصة بأنني لن أتركهم ..
ثم اختفى، وأقبل راتو على لويز يعبر لها عن قلقه . فاعترفت بأنها برمة هي أيضاً منذ بضعة أيام . ولكن ما العمل ؟ آه ليتني أستطيع أن أعمل بدلاً منه . وبدت لراتو بوجه حزين . وأضافت : « انني لا أستطيع أن أعيش بدونه » واستعادت من جديد وجه فتاة صبية أذهل راتو . ولاحظ عندها انها احمرت .
وبقي المصباح مضاء طوال الليل وصبيحة اليوم التالي كلها . وكان جوناس يكتفي بالقول إذا أقبل عليه راتو أو لويز : « دعوني ، انني أعمل » وعند الظهر طلب كازاً . وكان المصباح يدخن فاذا هو يلتمع من جديد حتى المساء . وبقي راتو ليتناول العشاء مع لويز والأولاد . وفي منتصف الليل ودع جوناس . وتحت العلية التي كانت ما تزال مضاءة انتظر لحظة، ثم ذهب من دون أن يقول شيئاً . وفي صباح اليوم التالي عندما استيقظت لويز كان القنديل ما يزال مضاء .

لقد كان يوم جميل يشرق . ولكن جوناس لم يكن يشعر به . لقد أدار قطعة القماش نحو الحائط . وكان ينتظر، وقد نفدت قواه، فجلس مادا يديه على ركبتيه . وكان يقول لنفسه انه الآن لن يعمل شيئاً قط . لقد كان سعيداً . وأخذ يستمع الى ضجيج أولاده وأصوات المياه وقرقعة الصحون . وكانت لويز تتكلم . وكانت ألواح الزجاج الكبيرة ترتعش عند مرور سيارة شحن على الجادة . فالعالم ما يزال هناك فتياً رائعاً . وكان جوناس يصغي الى الصخب

الجميل الذي كان ينبعث من الناس . ولم يكن الصخب من هذا البعد يتناقض مع هذه القوة الفرحة فيه ، فنه ، وهذه الأفكار التي لم يستطع أن ينطق بها والتي ستظل صامتة الى الأبد ، وانما كانت ترفعه فوق جميع الأشياء في جو حر وحي . وكان الأولاد يركضون خلال الغرف ، وكانت الفتاة الصغيرة تضحك،وكذلك لويز التي لم يسمع ضحكها منذ زمن بعيد . لقد كان يحبهم . وكم كان يحبهم ! وأطفأ المصباح هناك . وفي الظلمة العائدة ، ألم يكن هو نجمه الذي يلتمع دائماً ؟ لقد أدرك انه هو فامتلأ قلبه بعرفان الجميل . وكان ما يزال ينظر اليه عندما وقع من غير ضجة . وبعد فترة،صرح الطبيب الذي أستدعي بأنه لا داعي للقلق . ان جوناس يعمل أكثر مما ينبغي . وسينهض من جديد بعد أسبوع . وقالت لويز بوجه مضطرب : « سوف يشفى . ألست متأكداً من ذلك ؟ »

ــ أجل سيشفى .

وفي الحجرة الأخرى كان راتو ينظر الى اللوحة التي كانت كلها بيضاء ، والتي كتب جوناس في وسطها بأحرف صغيرة ، صغيرة جداً ، كلمة كان بالامكان قراءتها . ولكن لم يكن يُعرف ان كان يجب أن تُقرأ « سوليتير » أم « سوليدير » ١ .

(١) هاتان الكلمتان Solitaire و Solidaire حرصنا على ابقائهما بلفظهما الفرنسي لان قيمتهما في النص الاصلي تقوم على ما بينهما من جناس . ولم نجد في اللغة العربية كلمتين متجانستين تؤديان معناهما الذي هو : « متوحد » و « متضامن » .

(المترجمة)

الحجر الذي ينبت

انعطفت السيارة متثاقلة في الطريق الاستوائية المحمّرة الموحلة الآن . وكشفت أنوارُها فجأة في الليل ، من أحد جوانب الطريق ثم من الجانب الآخر ، كوخين من الخشب المغطى بالحديد المصفح . وأمام الكوخ الثاني ، على اليمين ، كان الناظر يميز عبر الضباب الخفيف ، برجاً مبنياً من عوارض ضخمة . ومن قمة البرج كان يتدلى سلك حديدي ، لا يرى من نقطة تعلقه ، ولكنه كان يتلألأ بقدر ما يصب في نور الضوئين ليختفي خلف المنحدر الذي كان يقطع الطريق . وخففت السيارة سيرها وتوقفت على بضع أمتار من الكوخين . وجهد الرجل الجالس على يمين السائق لكي يخرج من باب السيارة ، واذ أصبح واقفاً أخذ يترنح قليلاً على جسمه العملاق الطويل جداً ، وكان يبدو عليه ، وهو واقف في الظل أمام السيارة منهكاً من التعب ، انه يستمع الى المحرك وهو يتوقف . ثم مشى باتجاه المنحدر ودخل في مخروط نور المصابيح . وتوقف في رأس المنحدر ، وقد ارتسم ظهره الضخم على الليل . وبعد لحظة عاد فالتفت . وكان وجه السائق الأسود يلمع فوق لوحة السيارة ويبتسم . وأشار الرجل ، فأطفأ السائق المحرك . وسرعان ما خيّم سكون كبير نديّ على الساحة وعلى الغابة ؛ واذ ذاك سُمع صوت المياه .

كان الرجل ينظر ، من فوق الى تحت ، الى النهر الذي لم يكن يتبدّى الا

بشكل حركة ظلام واسعة مغروسة بحراشيف لمّاعة. وفي البعيد من الجهة الأخرى من الضفة، كان الشاطيء، ولا بدّ، هو هذا الليل الكثيف المسمّر. على أن المرء، اذا أنعم النظر، يرى على هذا الشاطيء الجامد لهباً أصفر، كقنديل يلمع في البعيد. والتفت الرجل العملاق نحو السيارة وهزّ رأسه. وأطفأ السائق أنواره، وأشعلها، ثم جعلها تنوس بانتظام. وعلى المنحدر، كان الرجل يظهر ثم يختفي، يزداد كبراً وكثافة لدى كلّ انبعاث. وفجأة ارتفع في الهواء فانوس، من الجهة الأخرى للنهر، تحمله ذراع غير مرئية. ولاشارة أخيرة من الراصد، أطفأ السائق أنواره نهائياً. واختفت السيارة والرجل في الليل. وبعد ان انطفأت الأنوار، كان النهار يُرى تقريباً، أو على الأقل بعض أضلاعه الطويلة السائلة التي كانت تلمع هنا وهناك. وعلى جانبي الطريق، كانت كتل الغابة المظلمة ترتسم على السماء وتبدو قريبة جداً. والمطر الخفيف الذي كان قد بلّل الطريق، قبل ذلك بساعة، كان ما يزال يطفو في الهواء الفاتر، مثقلاً صمت هذه البقعة الكبيرة الجرداء وجمودها وسط الغابة العذراء. وفي السماء، كانت نجوم مندّاة ترتجف. ولكن من الناحية الأخرى من الضفة ارتفعت أصوات سلاسل وهدير أمواج مخنوقة. وفوق الكوخ، على يمين الرجل الذي كان ما يزال ينتظر، امتدّ السلك البحري وأخذ صرير خفي يحثانه في الوقت الذي كان يرتفع فيه من النهر خرير عريض وخافت معاً لمياه تحرث، وانتظم الصرير، وكبر صوت المياه أيضاً ثم تحدد في الوقت الذي كان فيه الفانوس يتضخم. وأصبح بالامكان الآن تمييز الهالة المصغرة التي كانت تحيط به. وأخذت الهالة تتمدد شيئاً فشيئاً ثم تقلّصت من جديد بينما كان الفانوس يلمع خلال الضباب ويبدأ يضيء، فوقه وحواليه، نوعاً من السقف المربع المؤلف من نخيل يابس مرتفع من جهاته الأربع على قضبان من الخيزران الضخم. وكان هذا السقف الغليظ يتقدم ببطء نحو الضفة. وكانت ظلال مختلطة تتحرك

حوله . وعندما أصبح في منتصف النهر تقريباً ، كان يُرى بوضوح ، ثلاثة رجال قصار كشفهم النور الأصفر وهم نصف عراة ، سود تقريباً ، يرتدون قبعات مخروطية . كانوا يقفون جامدين على سيقانهم المنفرجة قليلاً ، وقد أحنوا أجسامهم بعض الشيء ليعوضوا انحراف النهر القوي الذي كان ينفخ بكل مياهه الخصبة على جنب طوف كبير ضخم كان هو الأخير الذي يخرج من الليل والمياه . وعندما زاد اقتراب المركب لاحظ الرجل خلف السقف الصغير ، من جهة النهر ، زنجيين طويلين يرتديان ، هما أيضاً ، قبعات عريضة من القش ويلبسان فقط بنطالاً من القماش الرمادي ، وكانوا جنباً الى جنب ، يضغطون بكل عضلاتهم على مجاذيف كانت تغوص بتمهل في النهر ، من خلف الطوف ، بينما كان الزنجيان ، بنفس الحركة المرتخية ينحنيان فوق المياه حتى حد التوازن . ومن الامام ، كان الخلاسيون الثلاثة ، جامدين صامتين ، ينظرون الى الشاطيء يقترب من غير ان يرفعوا عيونهم نحو ذاك الذي كان ينتظرهم .

واصطدم المركب فجأة بطرف السكة الذي كان يدخل في الماء ، والذي كشفه الفانوسي الذي كان يرتعش تحت الصدمة . وجمد الزنوج الطوال وأيديهم فوق رؤوسهم ، معلقة بطرف عصي مغموسة بالماء بعض الشيء ، ولكن عضلاتهم كانت متوترة ، تعبرها رجفة متواصلة كانت تبدو انها آتية من الماء نفسه ومن ثقله . وأما سائر البحارة فقد ألقوا سلاسل حول أعمدة المرفأ وقفزوا على الألواح ، وأخفضوا جسراً غليظاً غطى بشكل منحدر مقدمة الطوف .

ورجع الرجل نحو السيارة وجلس فيها بينما كان السائق يدير المحرك . وسلكت السيارة المنحدر ببطء فصوبت غطاءها الحديدي نحو السماء ، ثم انحدرت به نحو النهر وشقت المنحدر . وكانت تتدحرج وفراملها مشدودة ، وتنزلق قليلاً على الوحل ، وتتوقف ، وتعود فتستأنف المسير . ودخلت المرفأ محدثة صوت ألواح داثية ، وبلغت الطرف حيث كان الخلاسيون ،

الصامتون أبداً ، يصطفون من كل جانب ، وغاصت بلطف نحو الطوف ، وغرز هذا أنفه في المـــاء عندما وطئته العجلات الامامية ثم ارتفع بعدها ليتلقى ثقل السيارة كله . ثم ترك السائق سيارته تمشي الى الوراء ، أمام السقف المربع حيث يتدلى الفانوس . واذ ذاك طوى الخلاسيون الجسر المنحدر على المرفأ وقفزوا بحركة واحدة من المركب ؛ وهم ينتزعونه في الوقت نفسه من الضفة الموحلة . وشدّ النهر على الطرق ورفعه فوق سطح الماء حيث انحرف ببطء عند نهاية القضيب الحديدي الطويل الذي يرتفع الآن في السماء ، على طول السلك البحري . عندها جمع السود قواهم وأعادوا القضبان الطويلة . وخرج الرجل والسائق من السيارة وجمدا على طرف الطوف ، مقابل عالية النهر . ولم يكن أحد قد تكلم أثناء العمل ، وما يزال كل واحد ، الآن أيضاً ، في مكانه ، جامداً وصامتاً ، باستثناء زنجي طويل كان يلف سيكارة بورق سميك .

كان الرجل يتأمل الثقب الذي يتفجر منـــه النهر من الغابة البرازيلية الكبيرة وينحدر نحوهم . كان واسعاً في هذا المكان بعدة مئات من الأمتار ، فكان يدفق مياهاً عكرة وناعمة على جانب القارب ، ولم يكن يحد طرفيه شيء ، فكان يتجاوز القارب وينبسط من جديد بدفقة واحدة قوية كانت تسيل ببطء عبر الغابة المظلمة نحو البحر والليل . وكانت رائحة تافهة ، منبعثة من الماء والسماء الاسفنجية تنتشر . وكانت تسمع قرقرة المياه الثقيلة تحت المركب ، ونداء ضفادع متقطع أو صرخات عصافير غريبة صادرة من الضفتين . واقترب العملاق من السائق . وكان هذا الأخير قصيراً ونحيلاً ، وكان يستند على أحد أعمدة الخيزران ، ويدفن قبضتيه في جيبي قميص كان أزرق وقد غُطي الآن بالغبار الأحمر الذي كانوا قد لاكوه طوال النهار . وكانت ابتسامة تزهر على وجهه المتجعد بالرغم من شبابه ، وكان ينظر من غير أن يرى ، النجوم المنهوكة التي كانت ما تزال تسبح في السماء الرطبة .

ولكن أصوات العصافير أخذت تتضح أكثر من قبل ، وامتزجت بها ثرثرات مجهولة ، فارتج على أثرها السلك الحديدي ورمى الزنوج الطوال

عصيهم وأخذوا يتلمسون ، بحركات أعمى ، مفتشين عن القعر . وعاد الرجل نحو الشط الذي كانوا قد غادروه منذ لحظة . كان الشط بدوره مكسواً بالليل والمياه ، هائلاً ومتوحشاً ، كقارّة الأشجار التي كانت تمتد هناك على آلاف الكيلومترات . وبين المحيط القريب جداً وهذا البحر النباتي كانت قبضة الرجال الذين يجنحون في هذه الساعة على نهر متوحش ، تبدو الآن ضائعة . وعندما اصطدم الطوف بالمرفأ الجديد ، كانوا كأنهم ، بعد أن قطعت جميع الاقلاس ، يبدأون السير في جزيرة ، وسط ظلمات كثيفة ، بعد أيام من الابحار المذعور .

وعلى الأرض ، سُمعت أخيراً أصوات الرجال . كان السائق قد دفع لهم ، وكانوا يحيّيون بالبرتغالية ، وبصوت جذل في الليل الثقيل ، السيارة التي استعادت سيرها .

وأعلن السائق : « لقد قالوا ان كيلومترات ايغاب هي ستون . سنسير ثلاث ساعات وينتهي الأمر . ان سقراط مسرور . »

وضحك الرجل ضحكة منطلقة ، كثيفة وحارة كانت تشبهه . وقال : « وأنا أيضاً سعيد يا سقراط . ان الدرب قاسية . انك يا سيد داراست أثقل مما ينبغي ، أثقل مما ينبغي » وكان السائق يضحك أيضاً ، من غير أن يتمكن من الوقوف .

وكانت السيارة قد أسرعت بعض الشيء . وكانت تتدحرج بين جدران عالية من الأشجار والنبات الذي لا يمكن إستخراجه وسط رائحة رخوة وسكرية . وكانت طيرانات متشابكة لذباب متلألىء تخوض بلا انقطاع ظلمة الغابة . وبين الفينة والفينة ، كانت عصافير محمرةالعيون تتقدم لتضرب مسّاحة السيارة،وكان عواء غريب يبلغهم أحياناً من أعماق الليل ، وكان السائق ينظر الى جاره وهو يدير عينيه بطريقة مضحكة .

وكانت الطريق تنعطف ثم تنعطف وتجتاز سواقي صغيرة على جسور من الألواح المهتزة . وبعد ساعة ، أخذ الضباب يتكاثف .. وأخذ مطر خفيف

ناعم يتساقط فيذيب أشعة الضوء . وكان داراست ، بالرغم من الارتعاشات ، نصف نائم . انه لم يكن يجتاز بعد الغابة الرطبة ، بل هو يسلك من جديد طرقات « سيرا » التي كانوا قد سلكوها صباحاً ، لدى خروجهم من « ساوبولو » . وكان غبار أحمر يتصاعد بلا انقطاع ، من هذه الحلبات الأرضية ؛ وكان طعمه ما يزال في فمه ، وكان يغطي الى أبعد ما يرمي اليه النظر في السهول النباتات النادرة الجرداء من كل جانب .

وكانت الشمس ثقيلة ، والجبال صفراء ومحفورة ، والبقار المتضورة جوعاً تنتشر على الطرقات ، لا يواكبها سوى طيران منهك لصقر سقط ريشه . وكان السير الطويل ، الطويل ، عبر صحراء حمراء ... وانتفض . كانت السيارة قد توقفت . لقد كانوا الآن في اليابان : وكان ثمة بيوت ذات زينة سريعة الزوال على جانبي الطريق ؛ وفي البيوت ، كان ثمة نسوة يرتدين « كيمونو » خاطفة . وكان السائق يتحدث إلى ياباني يرتدي ثوباً وسخاً ، ويعتمر قبعة من القش البرازيلي . ثم أقلعت السيارة .

لقد قال : أربعون كيلو متراً فقط .

— اين كنّا ، في طوكيو ؟

— لا ، يا روجيسترّو ؛ فجميع اليابانيين عندنا يأتون الى هنا .

— لماذا ؟

— لا ندري . انهم صفر ، وأنت تعلم ذلك ، يا سيد داراست .

ولكن الغابة كانت تنفشع رويداً رويداً . والطريق تغدو أسهل ، بالرغم من أنها كانت تزحلق . وكانت السيارة تتزلج على الرمل . وكان يتسلل من باب السيارة هواء رطب دافيء وحامز بعض الشيء .

وقال السائق بنهم : « هل تشعر ؟ انه البحر الجميل . بعد قليل سنصل الى ايغاب . »

فقال داراست : — اذا بقي معنا بنزين بقدر كاف .

ثم استأنف نومه بهدوء .

وعند الصباح . كان داراست جالساً في سريره ينظر بدهشة الغرفة التي كان يستيقظ فيها الآن . وكانت الجدران العالية ، حتّى منتصفها ، مطلية حديثاً بكلس أسمر ؛ وكان قسمها الأعلى قد طلي بالكلس الأبيض منذ عهد بعيد . وكانت قشور صفراء تغطيه حتّى السقف . وكان صفّان من ستة سرر يمتدان متقابلين . ولم يكن داراست يرى سوى سرير مدعوك عند طرف صفه ، وكان هذا السرير خالياً . ولكنه سمع ضجة على يساره،والتفت نحو الباب حيث كان سقراط يقف وهو يبتسم أمام الباب حاملاً في كلتا يديه زجاجة من الماء المعدني . وكان يقول : « ذكرى سعيدة » وانتفض داراست . أجل ، فان المستشفى الذي أنزلهم فيه المختار البارحة كان يدعى « ذكرى سعيدة » . وأضاف سقراط : « ذكرى أكيدة ؛ لقد قالوا لي بناء المستشفى أولاً وبعد ذلك بناء الماء . وبالانتظار ، ذكرى سعيدة ، خذ الماء القارص لتغتسل . » واختفى ، وهو يضحك ويغني ، ولم يكن في الظاهر منهكاً على الاطلاق بما كان قد هزّه من عطسات انقلابية طوال الليل ، عطسات منعت داراست من أن يغمض عينه .

والآن كان داراست مستيقظاً تماماً،ومن خلال قضبان النوافذ المقابلة له ، كان يرى ساحة صغيرة من الأرض الحمراء ، مغطاة بالمطر الذي كان يهطل عليها من غير أن يُسمع له ضجة على غابة صغيرة من الصَبّر الكبير . وكانت امرأة تمر ، حاملة على طرف ذراعها منديلاً أصفر منبسطاً فوق رأسها . وعاد داراست فاضطجع من جديد ، ثم انتصب في الحال وخرج من السرير الذي مال وأنّ تحت ثقله . وفي اللحظة ذاتها كان سقراط يدخل ويقول : « الدور دورك يا سيد داراست ، ان المختار ينتظر في الخارج » . ولكنه اردف حين رأى هيئة داراست : « ابق هادئاً ، انه ليس مستعجلاً ابداً . »

وخرج داراست من تحت مدخل السرادق ، وقد رُشّ بالماء المعدني . وكان المختار ، بقامته ، ونظارته ذات الاطار المذهب ، أشبه بابن عرس لطيف ، وكان يبدو مستغرقاً في تأمل كئيب للمطر : ولكن ابتسامة جذابة

غيّرته ما أن لمح داراست ، فصلّب قامته القصيرة ، وتقدم بعجل وحاول أن يلف بذراعيه قامة « السيد المهندس » . وفي الوقت نفسه ، توقفت سيارة أمامهما ، من الناحية الأخرى من جدار الملعب الصغير ، وزلقت في التراب الرطب ، وتوقفت بانحراف . وقال المختار : « القاضي ! » وكان القاضي ، كالمختار ، يرتدي لباساً كحلي اللون ولكنه كان أصغر منه ، أو على الأقل ، كان يبدو كذلك بسبب قامته الرشيقة ووجهه النضر ، وجه المراهق المندهش . كان يجتاز الآن الساحة ، في اتجاههما ، وهو يتفادى مستنقعات الماء بكثير من الرشاقة،وكانت بضع خطوات تفصله عن داراست ، حين مدّ ذراعيه يرحب به . كان فخوراً بأن يستقبل السيد المهندس ، وكان شرفاً هذا الذي يمنحه المهندس لمدينتهم الفقيرة ، وكان يُسرّ للخدمة الفائقة التي سوف يقدمها المهندس « لأيغاب » ببناء هذا السد الصغير الذي سيحول دون الفيضان الدوري في الأحياء المنخفضة . أنْ تُحكم المياه ، وأن تكبح الانهار : آه ، انها لمهنة عظيمة ، ولسوف يحفظ أهالي ايغاب الفقراء اسم السيد المهندس بكل تأكيد ، ولسوف يذكرونه ايضاً في صلواتهم ولسنين كثيرة . وقدّم داراست شكره ، وقد تأثر بهذا الفيض من السحر واللباقة ، ولم يجروْ على التساؤل عما عساه يكون دخل قاضٍ في قضية سد . يبقى ان المطلوب ، حسب توجيه المختارِ ، أن يذهب المهندس الى النادي حيث يرغب وجهاء المدينة في استقباله بكل حفاوة قبل أن يذهب لزيارة الأحياء المنخفضة . من كان هؤلاء الوجهاء ؟

وقال المختار : « انا نفسي ، بصفتي مختاراً ، والسيد كرفالا ، الحاضر هنا ، وقائد المرفأ وبعض وجهاء آخرين أقل شأناً . ثم انه ليس عليك أن تهتم بهم ، فهم لا يتكلمون الفرنسية . »

ونادى داراست سقراط وقال له انه سيلقاه مرة أخرى عند الظهيرة .

قال سقراط : « حسناً ، سأذهب الى « حديقة النبع »

ـ الى الحديقة ؟

ــ نعم . ان جميع الناس يعرفون . لا تخف ، يا سيد داراست .

ولقد لاحظ داراست المستشفى وهو خارج ؛ وكان مبنياً على حافة الغابة التي كان ورقها الكثيف يكاد يبلغ السقوف . وكان حجاب من الماء الخفيف يسقط الآن على مساحة الأشجار كلها ، وكانت الغابة الكثيفة تمتصه بلا ضجة ، كأنها اسفنجة ضخمة ، وكانت المدينة وهي عبارة عن مئة بيت تقريباً ، مسقوفة بقرميد ذي ألوان باهتة ، تمتد بين الغابة والنهر الذي كان صوت أنسيابه البعيد يصل حتى المستشفى . ودلفت السيارة أول الأمر في طرقات رطبة ثم ما لبثت أن نفذت الى ساحة مستطيلة ، واسعة ، بما فيه الكفاية ، وكانت تحتفظ في طينها الأحمر ، بين مستنقعاتها العديدة ، بآثار عجلات ودواليب حديديــة وأحذية . ومن حولهــا ، كانت البيوت المنخفضة ، المغطاة بالجص المتعدد الألوان ، تغلق الساحة التي كان يُرى خلفها برجان مستديران . وفوق هذا الديكور العاري ، كانت تفوح رائحة ملح آتية من مصبّ النهر . وكانت تتيه في وسط الساحة بعض أشباح رطبة . وكان حشد متنوع مــن الرعاة والصينيين والهنود الخلاسيين والوجهاء الأنيقين ذوي اللباس الرسمي الغامق والغريب هنا ، يسيرون بخطوات صغيرة وبحركات بطيئة . وكانــوا يتنحّون بلا استعجال لكي يتركوا مكاناً للسيارة ثم يقفون يتابعونها بأنظارهم . وعندما توقفت العربة أمام أحد بيوت الساحة ، تكوّنت دائرة من الرعاة المبللين حول السيارة .

وكان الوجهاء عديدين في النادي ، وهو عبارة عن خمارة صغيرة في الطابق الأول ، يقوم فيها مشرب من الخيزران وطاولة مدورة من الحديد المصفح وقد شربوا عرق القصب على شرف داراست بعد أن رحب بــه المختار وتمنى له ، والكأس في يده ، كل سعادة في العالم . ولكن بينما كان داراست يشرب قرب النافذة ، تقدم منه رجل ، طويل القامة يرتدي لباس خيّال وألقى أمامه ، وهو يترنح بعض الشيء ، خطاباً سريعاً وغامضاً لم يدرك منه المهندس سوى كلمة « جواز سفر » . وتردد ، ثم أخرج الجواز فخطفه

منه الرجل الطويل بشراسة . وبعد أن تصفح الجواز ، أعلن استياءً واضحاً واستأنف خطابه ، وهو يهز الدفتر أمام المهندس الذي كان يتأمل الرجل الغاضب من غير أن يتأثر . وفي هذه اللحظة تقدم القاضي ، وهو يبتسم ، وسأل عن الموضوع . وتفحص السكير لحظة المخلوق الهزيل الذي سمح لنفسه بأن يقاطعه ثم هزّ مرة أخرى جواز السفر أمام ناظري محدثه الجديد ، وهو يترنح بطريقة أكثر خطراً . وجلس داراست بهدوء أمام طاولة وانتظر ، وأصبح الحوار عنيفاً جداً وفجأة رفع القاضي صوتاً راعداً لم يكن متوقّعاً منه،وتراجع الرجل الطويل فجأة ، من غير أن ينبيء شيء بذلك ، وانسحب بهيئة طفل في حالة ذنب،وتوجه نحو الباب عندما أصدر اليه القاضي أمراً أخيراً ، وأخذ يمشي بانحناء مشية تلميذ كسول مُعاقب .

عندها ، تقدم الحاكم ليشرح لداراست ، بصوت عاد فأصبح منغماً ، ان هذا الشخص السمج كان قائد الشرطة،وانه جرؤ على الادعاء بأن جواز السفر لم يكن مطابقاً للقانون وانه سوف يعاقب على انحرافه . ثم توجه السيد كارفالو بعد ذلك نحو الوجهاء الذين كانوا يشكلون دائرة وبدا انه يسألهم . وبعد نقاش قصير ، قدّم القاضي اعتذارات احتفالية لداراست ، راجياً أن يعتبر أن السكر وحده يمكن أن يفسر نسياناً كهذا لمشاعر الاحترام والاعتراف بالجميل الذي تكنه له مدينة ايغاب كلها ؛ وسأله أن يتفضل ويقرر بنفسه العقوبة التي يتوجب أن تنزل بهذا الشخص التعيس . وقال داراست انه لا يريد عقوبة ، وان ما حدث كان أمراً لا أهمية له وانه مستعجل خاصة ليذهب الى النهر . وعندها أخذ المختار الكلام ليؤكد بكثير من البساطة المحببة . ان العقوبة ، في الواقع ، لا مفر منها ، وان الجاني سوف يظل موقوفاً وانهم سينتظرون جميعاً أن يتفضل زائرهم العظيم ويقرر مصيره . ولم يكن أي اعتراض جديراً بأن يُلين هذه الصلابة الضاحكة فاضطر داراست أن يعد بالتفكير . وقرروا أخيراً أن يزوروا الأحياء المنخفضة .

كان النهر قد بدأ يبسط مياهه المصفرّة على الشواطيء المنخفضة والمنزلقة ؛

وكانوا قد خلّفوا وراءهم آخر بيوت ايغاب ووصلوا بين النهر وبين منحدر عال ملتو كانت تقوم عليه أكواخ من اللبن والأغصان. وأمامهم في طرف كوم الرمل، كانت الغابة تبدأ فجأة، كما في الضفة الأخرى. ولكن حفرة المياه كانت تتسع بسرعة بين الأشجار حتّى خط غير متميّز، خط رماده أكثر من صفرته، وكان هو البحر. ومشى داراست، من غير أن يقول شيئاً، نحو المنحدر الذي كانت المستويات المختلفة للمدّ قد خلّفت على جنبيه آثاراً ما تزال رطبة، وكان ممر ضيّق موحل يصعد نحو الأكواخ. وأمام تلك الأكواخ، كان زنوج ينتصبون، صامتين، وهم ينظرون الى القادمين الجدد. وكان بعض الأزواج يتماسكون بالأيدي، وحول كومة الرمل، كان صفّ من الزنوج الصغار، ذوي البطون المتفخة والأرداف النحيلة، يحملقون بعيونهم المستديرة أمام البالغين.

وحين وصل داراست أمام الأكواخ، نادى بحركة قائد المرفأ. وكان هذا زنجياً ضخماً مرتدياً لباساً أبيض. وسأله داراست بالاسبانية هل كان من الممكن زيارة كوخ. وأجاب القائد بالتأكيد حتّى انه كان يجد ان ذلك فكرة حسنة، وان السيد المهندس سيرى أشياء مثيرة جداً. وتوجه نحو السود، وحدّثهم طويلاً، وهو يشير الى داراست والنهر. وكان الآخرون ينصتون من غير أن ينبسوا بكلمة. وعندما انتهى القائد من الكلام، لم يتحرك أحد. وتحدث من جديد، بصوت نافد الصبر ثم نادى رجلاً أحنى رأسه. عندها قال القائد بعض كلمات موجزة بلهجة آمرة. فانسلخ الرجل عن الجمع، وواجه داراست، ثم دله على الطريق باشارة، ولكن نظرته كانت عدائية. وكان رجلاً مسناً بعض الشيء، مغطياً رأسه بقطعة قصيرة من الصوف الأشيب، وكان وجهه دقيقاً وذابلاً، بالرغم من أن جسمه كان فتياً بعد؛ وكانت كتفاه صلبتين جافتين وعضلاته بارزة تحت البنطال القطني والقميص الممزق. وتقدموا وهم يتبعون القائد وحشد الزنوج، فتسلقوا منحدراً جديداً، أكثر انحداراً من السابق، كانت تتعلق عليه أكواخ من الطين والتنك والأغصان

وكانت تنتصب بصعوبة بالغة حتى انه وجب دعم قواعدها بحجارة كبيرة. والتقوا بامرأة كانت تنزل الممر ، وهي تنزلق أحياناً على قدميها العاريتين ، حاملة على رأسها اناءً كبيراً من الحديد الممتلىء بالماء. ثم وصلوا الى ما يشبه ساحة صغيرة محاطة بثلاثة ألواح. وتقدم الرجل نحو أحدها ودفع باب الخيزران ذا الرزات المصنوعة من الأعشاب المعروشة. وامحى ، من غير أن يقول شيئاً وهو يحدج المهندس بالنظرة الجامدة نفسها. ولم ير داراست في الكوخ ، باديء الأمر ، سوى نار تموت ، على الأرض في وسط الغرفة تماماً. ثم ميز في احدى الزوايا ، في الداخل ، سريراً من النحاس الأصفر ذا رفاص رخو عارٍ ، وطاولة في الزاوية الأخرى ، مغطاة بصحون من الخزف ، وبين الاثنين ، كان ما يشبه طاولة يتربع عليها تمثال حجري تمثل القديس جورج. أما ما تبقى ، فلا شيء سوى كومة من الخرق ، على يمين المدخل ، وفي السقف ، بضع تنورات ملونة كانت تجف فوق النار. ووقف داراست جامداً وهو يتنفس رائحة الدخان والبؤس التي تتصاعد من الأرض وتأخذ بخناقه. وكان القائد خلفه يضرب بيديه. فدار المهندس على العتبة. في عكس اتجاه النور ، ورأى آنذاك شبحاً محبباً لصبية سوداء ، كانت تقدم له شيئاً : فأخذ قدحاً وشرب عرق قصب السكر السميك الذي يحتويه. وقدمت الصبية الصينية لتلقي القدح الفارغ وخرجت بحركة رشيقة وحيوية حتى أن داراست أخذته رغبة مفاجئة بأن يمسكها.

ولكن ، حين خرج خلفها ، لم يعد يعرفها بين حشد الزنوج والوجهاء الذي التم حول الكوخ. وشكر الرجل الشيخ الذي انحنى من دون أن ينبس بحرف. ثم ذهب ،وكان القائد ، خلفه ، يستأنف شروحه ، ويسأل متى تستطيع شركة « ريو » الفرنسية أن تبدأ أشغالها ،وهل كانت تستطيع أن تبني السد قبل هطول الأمطار الغزيرة. ولم يكن داراست يعرف ذلك ، ولم يكن يفكر به في الواقع. وكان يهبط نحو النهر الرطب ، تحت المطر الخفيف. كان يستمع دائماً الى هذا الضجيج الكبير الضخم الذي لم ينقطع عن سماعه

منذ وصوله ، والذي لا يمكن القول اذا كان صادراً من خرير المياه أو حفيف الأشجار. واذ وصل الضفة ، تأمل في البعيد خط البحر غير الواضح ، وآلاف الكيلومترات من المياه المتوحدة وافريقيا ومن ورائها ، أوروبا ، من حيث كان قادماً .

وقال : — ايها القائد ، من أي شيء يقتات هؤلاء الأشخاص الذين رأيناهم اللحظة ؟

— انهم يعملون عندما يحتاجون اليهم . اننا فقراء .

— هل هؤلاء هم أشدهم فقراً ؟

وقال الحاكم الذي وصل تلك اللحظة وهو ينزلق قليلاً على حذائيه الخفيفين ان هؤلاء الناس بدأوا يحبون المهندس الذي سيؤمن لهم العمل . وأردف يقول : وأنت تعلم ، انهم يرقصون ويغنون كل يوم . .

ثم سأل داراست ، من دون استطراد ، ان كان قد فكر بالعقوبة .

وسأل داراست : — وأية عقوبة ؟

— آه ، عقوبة قائد شرطتنا .

— يجب أن نتركه . » وقال الحاكم ان ذلك لم يكن ممكناً و انه يجب ان يعاقب . وكان داراست قد ابتدأ في السير نحو ايغاب .

وفي حديقة النبع الصغيرة ، الساحرة واللذيذة تحت المطر الخفيف ، كانت عناقيد من الأزهار الغريبة تتشابك على طول الأعشاب المعرّشة بين أشجار الموز والكاذي ، وكانت ركم من الأحجار الرطبة تسجّل التقاء الطرقات الضيقة حيث كانت تسير في تلك الساعة ، جماهير مبرقشة . وكانت جموع الخلاسيين والرعيان يثرثرون بصوت منخفض او يغوصون ، بالخطوة البطيئة نفسها ، في ممرات الخيزران حتى الأمكنة التي تصبح فيها الغابات الصغيرة أشد كثافة ثم يتعذر العبور فيها . وهناك كانت الغابة تبدأ مباشرة .

وكان داراست يفتش عن سقراط وسط الجمع عندما تلقاه من الخلف .

قال سقراط ضاحكاً : « انه العيد » ثم استند على كتفي داراست العاليتين ليقفز في مكانه .

ــ أي عيد ؟

ــ اه ! » واندهش سقراط وهو يواجه الآن داراست « ألا تعلم ؟ عيد السيد المسيح . ففي كل سنة ، يأتي الجميع الى المغارة مع المطرقة .

وكان سقراط لايدلّ على مغارة ، ولكن على جمع يبدو منتظراً في زاوية الحديقة .

ــ « سترى يوماً ، تمثال المسيح ، لقد وصل من البحر ؛ صعوداً من النهر ، ولقد وجده صيادون . ما أجمله ! ما أجمله ! وعندها غسّلوه هنا في المغارة . والآن ، نبت حجر في المغارة . وفي كل عام ، يحتفل بالعيد . و بالمطرقة ، تكسّر ، قطعاً للسعادة المباركة ؛ ثم ان الحجر ينبت دائماً ، ودائماً أنت تكسّر ، تلك هي المعجزة . »

وكانا قد وصلا الى المغارة وكان المدخل الأسفل يُرى من فوق الرجال الذين ينتظرون . وفي الداخل ، في الظلمة المشكوكة بلهب الشمعات المرتجف ، كان شكل مقرفص يطرق في تلك اللحظة بالمطرقة ، ونهض الرجل ، وهو راع نحيل ذو شارب طويل ، فخرج وهو يمسك في راحته المعروضة للجميع قطعة صغيرة من الآجر الرطب ، أغلق عليها يده بحذر بعد بضع ثوان ، وقبل أن يبتعد ، وعندها دخل رجل آخر في المغارة وهو ينحني .

والتفت داراست . كان الحجاج حوله ينتظرون ، من دون أن ينظروا اليه ، فاقدي الاحساس تحت الماء المتساقط من الأشجار أشرعة ناعمة ؛ وكان هو أيضاً ينتظر ، أمام هذه المغارة تحت هذا الضباب المائي نفسه ، ولم يكن يعلم ماذا كان ينتظر ، ولم يكن في الواقع يكفّ عن الانتظار منذ شهر ، منذ أن وصل إلى هذا البلد . كان ينتظر في اللهب الأحمر للأيام الرطبة ، تحت نجوم الليل الدقيقة ، بالرغم من المهام التي كانت مهامه ، والسدود التي يجب أن تبنى ، والطرقات التي يجب أن تُشق ، كما لو كان العمل الذي قدم من

أجله هنا لم يكن سوى حجة ، فرصة لدهشة أو للقاء لم يكن حتى يتصوره ولكن كان سينتظره ، بصبر ، حتى نهاية العالم . وابتعد من دون أن يتنبه اليه أحد ، في الجمع الصغير ، وتوجه نحو المخرج . يجب أن يعود الى النهر وأن يعمل .

ولكن سقراط كان ينتظره على الباب ، مأخوذاً بحديث غزير وسريع مع رجل قصير سمين وقوي ، أصفر اللون أكثر منه أسوده . وكان رأس الرجل المحلوق تماماً يزيد من اتساع جبهة ذات انحناء جميل وكان وجهه العريض الأملس يزدان بالمقابل بلحية سوداء ، مشذبة تشذيباً مربعاً .

قال سقراط ، وهو يقوم بحركة تقديم : « هذا هو البطل ! وغداً سيقوم بالطواف . »

وتأمل الرجل داراست ، بانتباه ، بعينيه السوداوين الهادئتين . وكان يرتدي ثوباً بحرياً من الصوف السميك ، وقميصاً ذا خطوط زرقاء وبيضاء تحت البذلة البحرية . وكان يبتسم في الوقت نفسه بملء فمه ، بحيث بدت أسنانه الشديدة البياض بين الشفتين الممتلئتين اللماعتين .

وقال سقراط : « انه يتحدث الاسبانية » وتوجه نحو الغريب وقال : « تحدث يا سيد داراست » . ثم ذهب وهو يرقص نحو جمع آخر ، وتوقف الرجل عن الابتسام ونظر الى داراست بفضول صريح .

— هل هذا يهمك ، أيها القبطان ؟

قال داراست : — أنا لست قبطاناً .

— لا بأس . ولكنك سيد ، هذا ما قاله لي سقراط .

— أنا . لا . ولكن جدي كان كذلك . وأبوه أيضاً وكل الذين كانوا قبل أبيه . أما اليوم ، فلم يعد من أسياد في بلادنا .

قال الزنجي وهو يبتسم : — آه ! انني أفهم ، جميع الناس هم أسياد .

— لا . ليس هذا ما أقصده . انه لا يوجد لا أسياد ولا شعب .

وفكر الآخر ، ثم عزم على القول :

«لا أحد يعمل ، لا أحد يتعذب ؟ »

– بلى . ملايين من الرجال .

– انه الشعب اذن .

– ان كان الأمر كذلك ، أجل ، يوجد شعب . ولكن أسياده هم اما من البوليسيين أو التجار .

وانكمش وجه الخلاسيّ الحفيّ . ثم هدر :

– همم ... بيع وشراء .. اية قذارة ؛ ومع البوليس ، يحكم الكلاب » .

ثم استغرق بالضحك من دون أن يتوقف : – وأنت ، ألا تبيع ؟

– تقريباً ، لا . انني ابني جسوراً ، وطرقات .

– هذا حسن . أما أنا ، فانني طباخ مركب ، وان أردت ، هيّأت لك طبقاً من الفاصولياء السوداء .

– أرغب ذلك كثيراً .

واقترب الطباخ من داراست وأمسك بذراعه :

– اسمع ، انني أحب ما تقوله . وأريد أن أقول لك أيضاً : فربما أحببت ذلك .

وقاده ، أمام المدخل ، إلى مقعد من الخشب الرطب ، عند قدم حزمة من الخيزران .

«كنت في البحر ، في عرض إيغاب ، في مركب صغير للنفط كـان يتجاوز في رحلاته الحدود المسموحة للبواخر لكي يموّن مرافيء الشاطيء : واشتعلت النار في المركب . لا من جراء غلطتي ؛ فأنا أعرف مهنتي ، ثم استطعنا أن نضع الزوارق في الماء . وفي الليل ، هاج البحر ، وجرف الزورق ، فغطست ، وعندما صعدت ، صدمت الزورق برأسي . فجنحت . كان الليل أسود ، والمياه هائجة ، ثم انني لا أحسن السباحة ، وكنت خائفاً وفجأة ، رأيت ضوءاً في البعيد ، فعرفت قبة كنيسة السيد المسيح المحب في ايغاب . عندها ، قلت للمسيح إنني سأحمل في الطواف حجراً يزن ٥٠ كيلو على رأسي

ان هو نجّاني . انك لا تصدقني ، ولكن المياه هدأت وقلبي أيضاً . وسبحت بهدوء . وكنت سعيداً ، ووصلت الى الشاطيء . وغداً ، سأفي بوعدي .

ونظر فجأة الى داراست نظرة مشككة .

ــ انك لا تضحك ؟

ــ انني لا أضحك . يجب أن نعمل ما نذرناه . »

وربت الآخر على كتفه .

ــ والآن ، تعال عند أخي ، قرب النهر . سوف أطبخ لك فاصولياء .

فقال داراست : لا . انني مشغول . فالى هذا المساء ، ان أردت .

ــ حسناً . ولكننا هذه الليلة سنرقص ونصلي في الكوخ الكبير . انه عيد القديس جورج. » وسأله داراست ان كان يرقص هو أيضاً فقست ملامح الطباخ فجأة ، وهربت عيناه لأول مرة :

.. لا ، لا . لن أرقص ، فعليّ غداً أن أحمل الحجر. انه ثقيل . سأذهب هذا المساء لأعيّد القديس . ثم سأرحل باكراً .

ــ هل يدوم ذلك طويلاً ؟

ــ طول الليل ، وطرفاً من الصبح .

ونظر الى داراست ، بهيئة شبه خجولة :

ــ تعال الى الرقص ، وستصحبني بعد ذلك . والا ، فسأبقى ، وسأرقص ، فربما لم أستطع أن أمنع نفسي من ذلك .

ــ هل تحب أن ترقص ؟

فلمعت عينا الطباخ بنوع من النهم :

ــ آه ، نعم أحبّه . ثم ان هناك السيجار ، والقديسين ، والنساء . اننا ننسى كل شيء ، ولا نطيع بعد .

ــ هناك نساء ؟ جميع نساء المدينة ؟

ــ نساء المدينة ، لا . ولكن نساء الأكواخ .

وعاودت الطباخ ضحكته .

ـ تعال . انني أطيع القبطان وستعينني لكي أفي غداً بنذري .

وأحس داراست انه منزعج بغموض . ما عسى هذا الوعد اللامعقول ان يجديه ؟ ولكنه نظر الى الوجه الجميل المرحب الذي كان يضحك له بثقة والذي كان جلده الأسود يلمع من الصحة والحياة .

وقال له : ـ سآتي . والآن ، أريد أن أرافقك قليلاً .

ومن دون أن يعرف لماذا ، كان يتمثل في الوقت نفسه منظر الصبية السوداء تقدم له ذبيحة الاستقبال .

وخرجا من الحديقة ، فسلكا بعض طرقات موحلة وبلغا الساحة المنخفضة التي كان ارتفاع البيوت التي تحيط بها تظهرها أكثر رحابة . وعلى طلاء الجدر ، كانت الرطوبة تسيل الآن ، بالرغم من أن المطر لم يكن قد ازداد . وكان ضجيج النهر والأشجار يتناهى اليهما من خلال مساحات السماء الاسفنجية فيصم آذانهما . كانا يمشيان بخطوات مماثلة . ثقيلة عند داراست ، شديدة العضل عند الطباخ . من وقت لآخر ، كان الطباخ يرفع رأسه ويبسم لرفيقه . واتجها نحو الكنيسة التي كانت تبدو فوق البيوت ، ووصلا طرف الساحة ، وسلكا أيضاً طرقات موحلة تتصاعد منها الآن روائح طبخ حادة . ومن وقت لآخر ، كانت امرأة تحمل طبقاً أو أداة مطبخ ، وتطل من أحد الأبواب بوجه فضولي . ثم تختفي في الحال . وألمّا بالكنيسة ، ودلفا الى حي قديم ، بين البيوت المنخفضة نفسها ، وأفضيا فجأة على صوت النهر اللامرئي وراء حي الأكواخ الذي عرفه داراست .

وقال : حسناً . سأتركك . والى هذا المساء .

ـ نعم : أمام الكنيسة .

ولكن الطباخ أمسك في الوقت نفسه يد داراست . وتردد ، ثم قرر :

ـ وأنت ، ألم تصلّ قط ، ألم تنذر نذراً ؟

ـ بلى ، مرة ، كما أظن .

ـ في حادثة غرق ؟

ـ اذا شئت . » وأفلت داراست يده فجأة . ولكن في اللحظة التي كان يدير فيها كعبيه ، التقى بنظرات الطباخ، وتردد ثم ابتسم .

ـ أستطيع أن أعترف لك ، بالرغم من أن ذلك لا قيمة له . كان أحد الرجال يوشك أن يموت بغلطتي . ويخيّل إليّ انّي صلّيت .

ـ وهل نذرت ؟

ـ لا . كنت أودّ أن أنذر .

ـ كان ذلك منذ زمن طويل ؟

ـ قبل ان آتي الى هنا بقليل . »

وأمسك الطباخ لحيته بكلتا يديه . وكانت عيناه تلمعان . وقال : « أنت قبطان . وبيتي هو بيتك . ثم انك ستساعدني على الوفاء بوعدي ، وهذا يساوي ان تفي بوعدك أنت ، ثم ان هذا يساعدك أيضاً . »

وابتسم داراست ، وقال : « لا أعتقد ذلك » . »

ـ انك فخور ، ايها القائد .

ـ كنت فخوراً . أما الآن ، فاني وحيد . ولكن قل لي فقط ، هل كان يسوعك يردّ عليك دائماً ؟

ـ دائماً ، لا ، أيها القائد .

ـ واذن ؟

فانفجر الطباخ بضحكة نضرة وطفولية . وقال :

ـ *أليس هو في نهاية المطاف حراً ؟*

وفي النادي حيث كان داراست يتناول الطعام مع الوجهاء ، قال لـــه المختار ان عليه ان يُوقّع كتاب البلدية المذهب لكي يبقى على الأقل شاهدٌ للحدث الكبير الذي أحدثه مجيئه الى ايغاب . ووجد القاضي من جهته صيغتين أو ثلاثاً جديدة ليحتفلوا فضلاً عن مزايا ضيفهم ومواهبه ، بالبساطة التي كان يبدو بها لكي يمثل بينهم البلد الكبير الذي كان له شرف الانتماء اليه . وقال داراست إن هذا الشرف وارد ، وهو في اعتقاده شرف حقيقيّ ، وان

هناك أيضاً حسنةً لمجتمعه هي أنه حصل على مناقصة هذه الأعمال الطويلة .
وعلى أثر ذلك ، عاد القاضي واحتجّ على هذا التواضع كله ، فقال : « على فكرة ، هل فكرت بما يجب أن نفعل بقائد الشرطة » ؟ فنظر اليه داراست وهو يبتسم : « لقد وجدتها » كان يودّ أن يعتبر موافقتهم على العفو باسمه عن هذا الطائش هبة شخصية وفضلاً نادراً جداً ، حتى تتمكن اقامته، هو ، داراست ، الذي سر كثيراً بمعرفته مدينة ايغاب الجميلة وسكانها الطيبين ، من أن تبدأ في جو من التفاهم والصداقة ، فكان القاضي ، يهز رأسه ، وهو متنبه ومبتسم . وتأمل لحظة الجملة ، وكعارف بالأمور ، توجه الى الحاضرين لكي يدفعهم الى أن يصفقوا لشهامة تقاليد الأمة الفرنسية الكبيرة ، ثم التفت من جديد الى داراست ، وابدى ارتياحه وختم قائلاً : « ما دام الأمر كذلك ، فسوف نتناول الطعام هذا المساء مع القائد ! » ولكن داراست قال انه كان مدعواً من قبل اصدقاء الى حفلة الرقص ، في الأكواخ . فقال القاضي : « آه . أجل ، انني سعيد بأن تذهب الى هناك ، سترى ، ان المرء لا يستطيع الامتناع عن حب شعبنا » .

وفي المساء ، كان داراست والطباخ وأخوه جالسين حول النار المنطفئة ، وسط الكوخ الذي كان المهندس قد زاره في الصباح . ولم يكن الأخ قد بدا مندهشاً من أن يراه من جديد . كان لا يكاد يتكلم الاسبانية ، ويكتفي غالب الأوقات بأن يهز رأسه . أما الطباخ . فكان قد اهتم بالكاتدرائيات ثم ناقش طويلاً حول حساء اللوبياء السوداء . وكان النهار على وشك أن يسقط الآن ، واذا كان داراست يرى بعدُ الطباخ وأخاه ، فإنه لم يكن يستطيع أن يميز جيداً ، في داخل الكوخ ، شكلين مقرفصين لمرأة عجوز وللصبية التي كانت قد خدمته من جديد . ومن الأسفل ، كان يُسمع هدير النهر الرتيب .

ونهض الطباخ وقال : « إنها الساعة » ونهضا ، ولكن المرأتين لم تتحركا .

وخرج الرجلان وحدهما . وتردد داراست . ثم لحق بالآخرين . كان الليل قد هبط الآن ، والمطر قد توقف . وكانت السماء السوداء الباهتة تبدو مائعة بعد . وفي مياهها الشفافة والقاتمة ، المنخفضة على الأفق ، بدأت النجوم تشتعل . وكانت سرعان ما تنطفيء ، وتسقط واحدة واحدة في النهر ، كما لو ان السماء كانت تقطر شعاعاتها الأخيرة . وكانت تنبعث من الهواء الثقيل رائحة الماء والدخان . وكان يُسمع أيضاً ضجيج قريب جداً للغابة الكبيرة ، الجامدة مع ذلك . وفجأة ارتفعت أصوات الطبول والغناء في البعيد ، صامتة في باديء الأمر ثم واضحة ، وأخذت تقترب شيئاً فشيئاً ثم صمتت ، وشوهد بعد قليل سرب من الفتيات السود يبرزن ، مرتديات أثواباً بيضاء من الحرير السميك ، ذوات قامات قصيرة . وكان يتبعهن زنجي طويل مقولب في لباسٍ أحمر كان يتدلى منه عقد من الاسنان الملونة ، وخلفه ، كان يندفع سرب من الرجال المرتدين بيجامات بيضاء ومن الموسيقيين المزودين بآلات طرب مثلثة الشكل وبطبول عريضة وقصيرة وقال الطباخ أنه تجب مرافقتهم .

كان الكوخ الذي وصلوا اليه وهم يتابعون الضفة مئات من الأمتار ابتداء من الأكواخ الأخيرة ، كان كبيراً ، وفارغاً ، ومريحاً نسبياً بجدرانه المطلية في الداخل ، وكانت الأرض من الطين المطروق ، والسقف من التبن والقصب ، تسنده سارية مركزية ؛ والجدران عارية . وعلى مذبح صغير مفروش بالنخيل ، في الداخل ، ومغطى بالشموع التي كانت تضيء بعض الشيء نصف الغرفة ، كان يُرى تمثال رائع بدا فيه القديس جورج ، بهيئة ساحرة ، وهو ينتصر على تنين ذي شارب . وتحت المذبح ، كان نوع من العش مملوء بالحصى ، يضم ، بين شمعة وطاسة ماء ، تمثالاً صغيراً من الصلصال ، مدهوناً بالاحمر ، ويمثل إلهاً مقرناً . وكان يشهر ، بهيئة وحشية ، سكيناً كبيراً من الورق الفضي .

وقاد الطباخ داراست الى زاوية ظلاً فيها واقفين ، ملتصقين بالحائط .

قرب الباب . وتمتم الطباخ : « هكذا ، نستطيع أن نذهب من غير أن نزعج » . وكان الكوخ بالفعل غاصاً بالرجال والنساء ، المتلاصقين . وكانت الحرارة قد بدأت ترتفع . وتوجه الموسيقيون ليستقروا على جانبي المذبح الصغير . وافترق الراقصون والراقصات وشكلوا دائرتين ، كان الرجال في داخلهما . وفي الوسط ، أتى القائد الأسود ذو الرداء الأحمر . واستند داراست الى الحائط ، وهو مشبك الذراعين .

ولكن القائد شق دائرة الراقصين وتقدم نحوها ، وقال بضع كلمات للطباخ بلهجة حادة . وقال الطباخ : « حلّ ذراعيك ، إيهـا الكابتن انك تضيق على نفسك ، فتمنع روح القديس من أن تهبط . » وترك دراست بانصياع لذراعيه أن تهبطا . وكان ظهره ما يزال مستنداً إلى الحائط ، فكان يشبه هو نفسه ، الآن ، باعضائه الطويلة الثقيلة ، ووجهه الكبير الملتمع من العرق ، إلهاً وحشياً يبعث على الاطمئنان . ونظر إليه الأسود الطويل ، وعاد إلى مكانه راضياً . وفي الحال ، أخذ يغني الأنغام الاولى بلهجة رددها الجميع في جوقة ترافقهم الطبول . وأخذت الدوائر تدور في جهة معاكسة . في نوع من الرقص الثقيل كان أشبه بالايقاع المميز تميزاً طفيفاً بانحناء الأوراك المزدوج .

كانت الحرارة قد ازدادت . ومع ذلك ، فإن التوقفات كانت تخف شيئاً فشيئاً ، والانقطاعات تتباعد ، والرقص يتسارع . ومن غير أن يتباطأ ايقاع الآخرين ، ومن غير أن يتوقف هو نفسه عن الرقص ، اخترق الأسود الكبير من جديد الدوائر ليذهب نحو المذبح وعاد وهو يحمل قدحاً من الماء وشمعة مضاءة وضعها على الأرض ، وسط الكوخ . وصبّ الماء حول الشمعة في دائرتين مركزيتين ، ثم انتصب من جديد ورفع نحو السقف عينين مجنونتين . كان جسمه كله متوتراً ، وكان ينتظر ، جامداً . وهمس الطباخ وقد جحظت عيناه : « لقد اتى القديس جورج ، انظر . »

وبالفعل ، كان بعض الراقصين يقدمون الآن الحاناً من الرعب ، ولكن

من الرعب المسمّر ، وايديهم على خواصرهم ، وخطواتهم سريعة ، ونظراتهم جامدة ولا معبرة ، وكان آخرون يعجلون في إيقاعهم ، متشنجين على انفسهم ، وقد بدأوا يرسلون صرخات غير مفهومة . وأخذت الصرخات ترتفع شيئاً . فشيئاً وعندما اختلطت في زمجرة جماعية تقدم القائد نفسه ، وعيناه ما تزالان مرتفعتين ، وارسل هو نفسه صيحة طويلة كانت ترّجع فيها الكلمات نفسها . قال الطباخ : « انت ترى ، هو يقول إنه حقل معركة الآلة . » ودهش داراست من تغيّر صوته فنظر الى الطباخ ، المنحني قليلاً الى الأمام ، وقبضتاه مشدودتان ، وعيناه جامدتان ، وهو يكرر في مكانه ايقاع الآخرين المنغم . إذ ذاك لاحظ انه هو نفسه ، منذ لحظة ، بالرغم من أنه لم يكن يحرك قدميه ، كان يرقص بكل ثقله .

ولكن الطبول فجأة استشاطت غضباً ، وانطلق الشيطان الكبير الأحمر ، وعيناه ملتهبان ، واعضاؤه الأربعة تدور حول جسمه . وكان يلقي بثقله ، وركبتاه مطويتان ، على كل ساق ، وهو يندفع في إيقاعه ، حتّى كان يبدو وكأن اعضاءه تنفصل عنه في آخر المطاف .

ولكنه توقف فجأة ، في غمرة إندفاعه ، لينظر الى المشاهدين : بهيئة فخورة ومريعة ، وسط رعد الطبول . وفي الحال بزغ راقص من زاوية معتمة ، فركع وقدم الى المأخوذ خنجراً قصيراً . وأخذ الأسود الطويل الخنجر من غير ان يكفّ عن النظر حوله ، ثم أخذ يتلاعب به فوق رأسه . وفي اللحظة ذاتها ، رأى داراست الطباخ يرقص وسط الآخرين . ولم يكن المهندس قد رآه يذهب .

وفي الضوء المحمر ، المتردد ، كان غبار خانق يتصاعد من الأرض ، فيزيد ثقل الجو الذي كان يلتصق بالجلد . وأحس داراست بالتعب يستولي عليه شيئاً فشيئاً . وثقل نفسه قليلاً قليلاً ، بل إنه لم يرَ كيف كان الراقصون قد استطاعوا أن يتجهزوا بالسيجارات الضخمة التي كانوا يدخنونها الآن ، من غير أن يتوقفوا عن الرقص ، والتي كانت رائحتها الغريبة تملأ الكوخ

وتسكره قليلاً ، ورأى فقط الطباخ الذي كان يمر أمامه ، وهو ما يزال يرقص ، ويدخن هو ايضاً سيجاراً .. وقال : « لا تدخن » فزمجر الطباخ ، من غير أن يوقف ايقاع قدميه ، وهو يحدق بالسارية المركزية بتعبير لاعب بوكس متحمس ، وعنقه مأخوذة برعدة طويلة متصلة . وعلى جانبيه ، كانت سوداء ضخمة ، تحرك ذات اليمين وذات اليسار وجهها الحيواني وتعوي بلا انقطاع ، ولكن الزنجيات الصبايا ، خاصة ، كن يدخلن اشد حالات الرعب هولاً ، ارجلهن مسمرة في الأرض ، تجتاز أجسادهن ، من القدمين حتى الرأس ، ارتجاجات تزداد عنفاً كلما بلغت الكتفين . عندها كانت رؤوسهن تتحرك من الأمام الى الوراء ، وكأنها منفصلة انفصالاً تاماً عن أجساد مقطعة . واخذوا في وقت واحد ، يزأرون بلا انقطاع ، في صرخة طويلة جماعية لا لون فيها ولا نفس ظاهراً ، ولا تموجات ، كما لو كانت الأجساد تنعقد كلها معاً ، عضلات واعصاباً ، في إصدار موحد مضن كان يعطي في النهاية الكلمة في كل منهم الى كائن كان حتى الآن صامتاً تماماً . ومن غير أن ينقطع الصراخ ، أخذت النساء واحدة بعد الاخرى يسقطن ، وكان القائد الأسود يركع أمام كل واحدة ، وهو يشد بسرعة وتشنج اصداغهن بيده الكبيرة ذات العضلات السود . وإذ ذاك ، تنهض النساء ، مترنحات ، ويعدن الى الرقص ويستأنفن صراخهن ، ضعيفاً في باديء الأمر ، ثم يزداد ارتفاعاً وسرعة لكي يسقطن أيضاً . وينهضن من جديد ، ليعدن ، ولوقت طويل أيضاً ، حتى تضعف الصرخة العامة ، وتضطرب وتنحل حتى تصبح نوعاً من العواء الخشن كان يهزهن بشهقته . وأحس داراست انه يترنح ، وقد انهكت قواه ، وتعقدت عضلاته برقصته الطويلة الجامدة ، واختنق بصمته الخاص . وكان الحر ، والغبار ودخان السيجار والرائحة البشرية تجعل الجو هنا غير قابل للتنفس تماماً . وبحث عن الطباخ بعينيه : فاذا هو قد اختفى ، وتداعى داراست عندها منزلقاً طوال الحائط وقرفص ، وهو يتمالك غثياناً .

وعندما فتح عينيه ، كان الجو ما يزال خانقاً ، ولكن الضجيج كان قد توقف . كانت الطبول وحدها توقّع نغماً متواصلاً كانت جماعات ترتدي أقمشة بيضاء في مختلف زوايا الكوخ، توقعه بأقدامها . ولكن وسط الغرفة ، الفارغة الآن من القدح والشمعة . كان سرب من الصبايا السود . في حالة نصف منومة يرقصن بهدوء ، وهن على وشك أن يدعن النغم يتجاوزهن . وكن مغمضات العيون ، وعلى استقامتهن ، كن يترنحن ببطء من اليمين الى الوراء على رؤوس أقدامهن ، وهن في مكانهن تقريباً ، وكانت اثنتان منهن ، بدينتان ، تغطيان وجهيهما بوشاح من الرافية . وكانتا تحيطان بصبية أخرى ، طويلة القامة ودقيقة ، عرف داراست فجأة أنها ابنة مضيفه ، كانت ترتدي ثوباً أخضر ، وتضع على رأسها قبعة صيّادة من القماش الشفاف الأزرق ، مرفوعة من الامام ، ومزينة بريش فارس ، وتحمل بيدها قوساً أخضر وأصفر مزوداً بسهمه الذي عُلق في رأسه طائر ملون مطعون . وكان رأسها الجميل يميل ببطء على جسمها الدقيق ، وهو مرتدّ الى الخلف بعض الشيء ، وكانت تنعكس على الوجه النائم كآبة متساوية وبريئة . وعند توقف الموسيقى ، كانت تترنح ، وهي ناعسة . وكان نغم الطبول الذي قوي وحده يعيد اليها نوعاً من الدعامة الخفية كانت تدير حولها تثنياتها الرخوة الى أن توقفت من جديد في الوقت الذي توقفت فيه الموسيقى ، وهي تترنح عند حافة التوازن ، وأطلقت صرخة عصفور غريبة حادة وملحنة معاً .

وسحر داراست بهذه الرقصة الهادئة ، وأخذ يتأمل « الديانا » السوداء عندما انبثق الطباخ أمامه ، وقد بدا وجهه الأملس منحلاً . كانت الطبيعة قد اختفت من عينيه اللتين كفتا عن أن تعكسا سوى نوع من الشراهة المجهولة . وقال بلا لطف ، كما لو كان يتحدث الى غريب : لقد تأخرت ايها الكابتن ، انهم يريدون أن يرقصوا الليل كله ، ولكنهم لا يريدون أن تبقى الآن » . ونهض داراست ، مثقل الرأس واتبع الطباخ الذي كان يلج الباب وهو يمشي بحذاء الحائط . وعلى العتبة ، امحى الطباخ ، وهو يمسك باب الخيزران ،

وخرج داراست . والتفت ونظر الى الطباخ الذي لم يكن قد تحرك . وقال له : « تعال ، يجب أن تحمل الحجر ، عما قليل . »

وقال الطباخ بلهجة حازمة : — بل سأبقى .

— وندرك ؟

ومن غير أن يجيب ، كان الطباخ يدفع الباب الذي كان داراست يمسكه بيد واحدة ، وظلا هكذا لحظة ، ثم استسلم داراست وهو يرفع كتفيه، وابتعد.

كان الليل مليئاً بالروائح المنعشة والمعطرة . وفوق الغابة ، كانت النجمات النادرة في سماء الجنوب ، المغطاة بضباب خفي ، تلمع بضعف . وكان الهواء الرطب ثقيلاً . ومع ذلك ، كان يبدو منعشاً لذيذاً خارج الكوخ . وصعد داراست المنحدر المنزلق ، وبلغ الأكواخ الأولى ، وكان يتعثر كرجل سكران في الدروب المحفّرة ، وكانت الغابة القريبة تهدر . وكان صوت النهر يتضخم ،وكانت القارة كلها تطفو في الليل،وكان اشمئزاز يستولي على داراست . كان يبدو له انه كان يود أن يتقيأ هذا البلد كله ، وحزن مساحاته الشاسعة ، وضوء الغابات الأخضر ، وهدير أنهاره الكبيرة المقفرة الليلي . كانت هذه الأرض كبيرة أكثر مما ينبغي ، كان الدم والمواسم تختلط فيها ، وكان الزمن يصبح سائلاً . كانت الحياة هنا بمستوى الأرض ، ولكي يدخلها المرء يجب عليه أن يتسطح وينام طوال سنوات ، فوق التراب الموحل او الجاف . هناك في أوروبا ، كان الخجل والغضب ، أما هنا فالمنفى او الوحدة ، وسط هؤلاء المجانين المنهوكين والمرتجفي الأعصاب ، الذين كانوا يرقصون ليموتوا . ولكن ، عبر الليل الرطب ، العابق بالروائح النباتية ؛ كانت صرخة الطير الجريح الغريبة التي أطلقتها النائمة الجميلة ؛ ما تزال تتناهى اليه .

وعندما استيقظ داراست بعد نوم مزعج ، ورأسه مرتجّ بصداع كثيف ، كان حر رطب يسحق المدينة والغابة الجامدة . وكان ينتظر الآن ، تحت مدخل المستشفى المسقوف ، وهو ينظر الى ساعته الموقفة ، غير واثق من

الوقت ، مندهشاً بهذا النهار الطويل والصمت الذي كان يرتفع من المدينة ، وكانت السماء الزرقاء زرقة خالصة ، تثقل على أول سطوح السقوف المطفأة . وكانت عقبان صفراء تنام ، جامدة من الحر ، على البيت المقابل للمستشفى . وانتفض أحدها فجأة ، وفتح منقاره ، وبدأ يأخذ أهبته لكي يطير ، وصفق مرتين جناحيه المغبرين على جسده ، وارتفع عدة سنتمترات فوق السطح ، ثم حط لينام في الحال تقريباً .

وهبط المهندس نحو المدينة . وكانت الساحة الرئيسية مقفرة ، كالطرقات التي اجتازها . وفي البعيد وعلى طرفي النهر ، كان ضباب كثيف يطفو على الغابة . وكان الحر يتساقط عمودياً، وأخذ داراست يفتش على زاوية ظل يستظل فيها ؛ فرأى آنذاك ، تحت افريز أحد البيوت ، رجلاً قصيراً يشير له . ومن قريب ، عرف سقراط .

قال له : — واذن ، هل أحببت يا سيد سقراط الاحتفال ؟

فقال داراست ، ان الجو كان حاراً أكثر مما ينبغي في الكوخ وانه كان يفضل السماء والليل .

قال سقراط : « أجل في بلادكم، يُقتصر على القداس . ولا أحد يرقص . »

وكان يفرك يديه ، ويقفز على ساق ، ويستدير على نفسه ، ويضحك حتى يفقد نفَسه : « انهم غير معقولين .. انهم غير معقولين . »

ثم نظر الى داراست بفضول :

— وأنت ، هل تذهب الى القدّاس ؟

— لا .

— وأين تذهب اذن ؟

— لا أذهب الى مكان . لا أدري.

وكان سقراط ما يزال يضحك .

— هذا غير ممكن ، سيد بلا كنيسة ، بلا شيء ؟

وضحك داراست كذلك .

ـ أجل ، أترى ؟ انني لم أجد مكاني ، وعندها ذهبت .
ـ إبق معنا ، يا سيد داراست ، انني أحبك .
ـ أود ذلك ، يا سقراط ، ولكنني لا أعرف الرقص !
وكان ضحكهما يُصدي في صمت المدينة الموحشة .

قال سقراط : « آه ، لقد نسيت ، ان المختار يود أن يراك ، انه يتناول عشاءه في النادي . » ومن غير أن ينبّه ، ذهب في اتجاه المستشفى . وصرخ داراست : « الى أين أنت ذاهب ؟ » فشخر سقراط وقال : « لأنام، إن الطواف عما قريب » . وراح يركض نصف ركضة وقد عاود شخيره .

كان المختار يريد فقط ان يقدم لداراست مكاناً ممتازاً ليشاهد الاحتفال . وقد شرح ذلك للمهندس وهو يقتسم معه طبقاً من اللحم والرز جديراً بحمل المعجزة الى الكسيح. وأبلغه انهم سيجلسون في أول الأمر ، في بيت القاضي ، على شرفة ، أمام الكنيسة لكي يشاهدوا الموكب وهو يخرج . وسيذهبون بعد ذلك الى المختارية ، في الشارع العريض الذي كان يقود الى ساحة الكنيسة والذي سيسلكه التائبون في طريق العودة . وسوف يرافق القاضي وقائد الشرطة داراست ، اذ كان المختار مضطراً الى ان يشارك في الاحتفال . وكان قائد الشرطة في الواقع في قاعة النادي ، وكان يدور بلا انقطاع حول داراست ، وعلى شفتيه ابتسامة لا تكل ، وهو يلقي أمامه خطباً غير مفهومة ، ولكنها ودية بالطبع ، وعندما نزل داراست ، هرع قائد الشرطة ليفسح له الطريق ، وهو يمسك جميع الأبواب مشرعة أمامه .

وتحت الشمس الكثيفة في المدينة الخالية كان الرجلان يتوجهان نحو بيت القاضي. وكانت أقدامهما وحدها تصدي في السكون ، ولكن انفجرت فجأة مفرقعة في طريق قريب وطيّرت عن جميع البيوت ، بشكل كوم ثقيلة ومرتبكة ، العقبان ذات الرقبة المريشة. وفي الحال تقريباً انفجرت عشرات المفرقعات في جميع الاتجاهات ، وانفتحت الأبواب وبدأ الناس يخرجون من البيوت لكي يملأوا الشوارع الضيقة .

وعبر القاضي لداراست عن اعتزازه باستقباله في بيته غير اللائق وأصعده طابقاً ذا سلم جميل غريب مدهون بالكلس الأزرق. وعلى العتبة، عند مرور داراست، فُتحت أبواب كانت تنبثق منها رؤوس أطفال سمر ما يلبثون أن يختفوا بضحكات مخنوقة. وكانت قاعة الشرف، الجميلة الهندسة، لا تحتوي الا على أثاث من الأغصان وأقفاص كبيرة للعصافير ذات الزقزقة المدوخة. وكانت الشرفة التي وقفوا عليها تطل على الساحة الصغيرة أمام الكنيسة. وكان الجمع الآن قد بدأ يملأها، صامتاً صمتاً غريباً، جامداً تحت الحر الذي كان يهبط من السماء موجات تكاد ان تكون مرئية. كان أطفال فقط يركضون حول الساحة ويتدفقون فجأة ليشعلوا المفرقعات التي كان إنفجارها يتوالى، وكانت الكنيسة، البادية من الشرفة، بجدرانها المطلية بالجص، ودرجاتها العشر المطلية بالكلس الأزرق وبرجيها الأزرق والذهبي، تبدو أصغر مما هي.

وفجأة، انفجرت أراغن داخل الكنيسة. وتوجه الحشد نحو مدخل الكنيسة المسقوف، واصطف على جوانب الساحة ورفع الرجال قبعاتهم، وركعت النساء. وعزفت أراغن بعيدة أنواعاً من «المارشات» ثم جاء من الغابة صوت أجنحة غريب. انه صوت طائرة وحيدة ذات أجنحة شفافة، وهيكل نحيل، وقحة في هذا العالم الذي لا عمر له، بزغت فوق الأشجار وهبطت قليلاً نحو الساحة، ومرت وهي تدوي دوي ناقوس ضخم، فوق الرؤوس المرتفعة نحوها. وانحرفت الطائرة أخيراً وابتعدت نحو مصب النهر.

ولكن بلبلة غامضة في ظلمة الكنيسة، كانت تجذب الانتباه من جديد. كانت الأراغن قد صمتت، وقد استبدلت الآن بآلات نحاسية وطبول غير مرئية تحت الباب المسقوف. وخرج التائبون، وهم يرتدون قميصاً أسود، واحـــداً تلو الآخر، واجتمعوا في فناء الكنيسة، ثم بدأوا يهبطون الدرجات. وخلفهم كان يأتي تائبون يرتدون الأبيض ويحملون رايات حمراً وزرقاً، ثم تقدمت فرقة من الصبيان ترتدي ملابس الملائكة، ثم

اخويات المريميات ، المؤلفة من الوجوه الصغيرة السود الحادّة ، وأخيراً تبعهم ، على صندوق ذخائر القديسين المتعدد الألوان ، المحمول على أيدي الوجهاء الذين يرشحون بثيابهم الداكنة ، تمثال السيد المسيح نفسه ، وهو يحمل الغصن بيده ، ورأسه مغطى بالشوك ، ينزف دماً ويترنح فوق الجمع الذي كان يملأ درجات الفناء .

وعندما وصل صندوق ذخائر القديسين عند أسفل الدرجات كانت لحظة توقف حاول في أثنائها التائبون أن يصطفوا بشيء من الترتيب . في ذلك الوقت رأى داراست الطباخ . كان يدخل الفناء ، عاري الصدر ، حاملاً على رأسه الملتحي حجراً ضخماً مستطيلاً كان يستلقي على لوحة من الفلين فوق الرأس مباشرة ، وهبط بخطوة ـ اسمة درجات الكنيسة ، والحجر محافظ تماماً على توازنه في فتحة ذراعيه القصيرتين العاضلتين . وما أن وصل الى صندوق الأخيرة ، حتى بدأ الاحتفال . فمن مدخل الكنيسة انبثق الموسيقيون ، مرتدين صداري ذات ألوان فاقعة وضاغطين صدورهم بنحاس مليء بالأشرطة ، وعلى أثر حركة مشية مضاعفة ، عجل التائبون في مشيتهم حتى احدى الطرق التي تؤدي الى الساحة . وعندما اختفى صندوق الذخيرة من بعدهم ، لم يعد يُرى سوى الطباخ وآخر الموسيقيين وخلفهم اندفعت الجماهير ، وسط الانفجارات بينما كانت الطائرة ، تعود فوق الجماعات الأخيرة في ضجة عظيمة . وكان داراست ينظر فقط الى الطباخ الذي كان يختفي الآن في الشارع ، وخيل اليه ان كتفيه تنهاران . ولكنه لم يكن يبصر جيداً من هذه المسافة .

ومن الطرق الفارغة ، بين المخازن المقفلة والأبواب المغلقة ، التحق القاضي وقائد الشرطة وداراست بالمختارية . وكلما كانوا يبتعدون عن الضجيج والتفجرات ، كان الصمت يعاود سيطرته على المدينة ، فتعود بعض العقبان لتحتل مكانها على سطوح الساحة التي يبدو أنها تحتلها منذ زمن بعيد . وكانت المختارية تطل على شارع ضيق ، ولكنه طويل ، كان يقود من أحد الأحياء الخارجية الى ساحة الكنيسة . وكانت خالية آنذاك . ومن شرفة المختارية ،

وعلى مدى النظر ، لم يكن يرى سوى بقعة من الأرض المنخفضة كان المطر الجديد قد ترك فيها بعض المستنقعات . وكانت الشمس ، الهابطة قليلاً ، ما تزال تتآكل من الجهة الأخرى من الطريق ، واجهات البيوت العمياء .

وانتظروا طويلاً ، طويلاً جداً حتى أن داراست ، لشدة ما نظر الى انعكاسات الشمس على الحائط المواجه للحصن ، شعر أن تعبه ودواره يعاودانه من جديد ، وكانت الطريق الخالية ذات البيوت المهجورة تجذبه وتنفره معاً ، ومن جديد ، كان يريد أن يهرب من هذه البلدة ، وكان يفكر في الوقت. نفسه بهذا الحجر الضخم ، وكان يود لو أن هذه التجربة كانت قد انتهت . وكان على وشك أن يقترح النزول للاستعلام عندما أخذت أجراس الكنائس تدق بكل قوتها . وفي الوقت نفسه ، في الجهة الأخرى من الشارع ، انفجرت ضجة ، وبرز جمهور يفور . وكان يُرى من البعيد ، ملتحماً حول الصندوق ، وقد اختلط الحجاج بالتائبين ، وكانوا يتقدمون وسط المفرقعات وزمجرات الفرح ، على طول الطريق الضيق . وقد ملأوه ، من طرفيه ، في لحظات وهم يتقدمون نحو المختارية ، في فوضى لا توصف ، وقد امتزجت الأعمار والأجناس والملابس في كتلة منقشة ، مغطاة بعيون وأفواه صارخة ، وكان يخرج منها كالسهام ، جيش من الشموع كان لهيبها يتبخر في أشعة النهار المحرقة ولكن عندما اقتربوا وبدت الجماهير ، تحت الشرفة ، تصعد على طول الحيطان ، لشدة ما كانت متراصة ، لاحظ داراست أن الطباخ لم يكن موجوداً .

وبحركة واحدة ، ومن غير أن يعتذر ، ترك الشرفة والقاعة ، والتهم السلم فوجد نفسه في الشارع ، تحت دوي الأجراس والمفرقعات . وهناك ، كان لا بد له من أن يجاهد ضد الجماهير الفرحة ، وحاملي الشموع ، والتائبين المحجوبين . ولكنه اجتاز المد البشري ، بكل ثقله ، وبعناد لا يُقهر ، وشق لنفسه طريقاً ، بحركة غضبى الى حد كاد معها أن يسقط عندما وجد نفسه حراً ، وراء الحشد ، في طرف الشارع . والتصق بالحائط الملتهب ، وانتظر أن يعاوده النَفَس . ثم استأنف مسيره . وفي الوقت نفسه ، نفذ جمع من

الرجال الى الطريق، كان الأولون يسيرون القهقرى، ورأى داراست انهم كانوا يحيطون بالطباخ .

وكان الطباخ واضح الإنهاك . وكان يتوقّف ، ثم يركض قليلاً وهـــو حاني الظهر تحت الحجر الضخم ، بخطوة عجلى ، كخطوات حمّال ، خطوة البؤس العجلى ، والقدم تضرب الأرض بباطنها كله . وحوله ، كان التائبون المتسخون بالشمع الذائب والغبار يشجعونه عندما توقف . وعلى يساره ، كان أخوه يمشي أو يركض بصمت . وبدا لداراست انهم سيمضون وقتاً لا نهاية له ليجتازوا الساحة التي تفصلهم عنه . وتوقف الطباخ من جديد والقى حوله نظرات مطفأة . وعندما رأى داراست ، بالرغم من انه لم يكن يبدو عليه انه عرفه ، يجمد ، وهو متجه نحوه ، وكان عرق زيتي متّسخ يغطي وجهه الذي غدا اللحظة رمادياً ، وكانت لحيته ملآى بخيوط من الريق، وكانت رغوة سمراء وجافة تبلّط شفتيه . وحاول أن يبتسم . ولكنه كان جامداً تحت حمله ، يرتجف بكل جسمه ، ما عدا كتفيه حيث كانت العضلات تبدو معقدة بشكل معص واكتفى الأخ الذي كان قد عرف داراست بأن يقول له : « لقد سبق له أن سقط » . وانتصب سقراط ، من حيث لا يدري ، وهمس في أذنه قائلاً : « لقد رقص أكثر مما ينبغي ، يا سيد داراست طوال الليل . وهو متعب » .

وتقدم الطباخ من جديد ، وهو يخبّ خببه المتقطع ، لا كمن يريد أن يتقدم ولكن كما لو أنه كان يهرب من الحمل الذي كان يسحقه ، كما لو انه كان يأمل أن يخفّفه بالحركة . ووجد داراست نفسه ، من غير أن يعرف كيف يتم ذلك ، على يمينه، ووضع على ظهر الطباخ يداً غدت خفيفة ومشى بالقرب منه ، بخطوات سريعة وثقيلة . وفي الطرف الآخر من الشارع ، كان الصندوق قد اختفى ، ولم يكن الحشد الذي لا بد انه كان يملأ الساحة الآن ، لم يكن يبدو انه يتقدم . وخلال لحظات تقدم الطباخ خطوات أخرى ، محاطاً بأخيه وبداراست . ولم يبق عليه بعدُ سوى عشرين متراً تفصله عن الحشد

الذي كان قد تجمع أمام المختارية ليراه يمر . ومع ذلك ، فقد توقف من جديد . وثقلت يد داراست أكثر من قبل وقال له : « هيّا يا طباخ ، تقدّم قليلاً بعدُ » . وكان الآخر يرتجف ، وعاد الريق يسيل من فمه بينما كان العرق يتفجر من جسده كله . وأخذ نفساً أراده عميقاً وتوقف تواً . ثم مضى من جديد ، وخطا ثلاث خطوات ، وترنح . وفجأة ، انزلق الحجر عن كتفيه فجرحه ، وهو تسقط الى الأمام نحو الأرض . بينما انهار الطباخ ، الذي فقد توازنه ، على جنبه . وقفز الذين كانوا يتقدمونه وهم يشجعونه الى الوراء وهم يطلقون صرخات قوية ، وأمسك أحدهم قطعة الفلين بينما أمسك الآخرون بالحجر ليحملوه الى الطباخ من جديد .

وانحنى داراست على الطباخ ينظّف بيده الكتف المبللة بالدم وللغبار ، بينما كان الرجل القصير ، ملصقاً وجهه بالأرض ، يلهث ، ولم يكن يسمع شيئاً ، ولا يتحرك بعد . وكان فمه ينفتح بنهم عند كل تنفّس ، كما لو انه كان الأخير . وأخذه داراست من وسطه ورفعه بسهولة كما لو كان يرفع ولداً . كان يمسكه واقفاً ، مشدوداً اليه . وكان يحدثه في وجهه ، وهو منحنٍ عليه بقامته كلها ، كما لو كان يريـــد أن ينفخ فيه قوته . ولكن الطباخ الدامي والمغبر ، انفصل عنه بعد لحظات ، وقد ارتسم على وجهه تعبير شرس . وتوجه من جديد ، وهو يترنح ، نحو الحجر الذي كان الآخرون يرفعونه قليلاً . ولكنه توقف . وكان ينظر الى الحجر نظرة فارغة ، ويهزّ رأسه . ثم ترك ذراعيه تسقطان على جنبيه وتوجه نحو داراست . وكانت دمعات كبيرة تسيل بصمت على وجهه المنهار . كان يود أن يتكلم ، وكان يتكلم ، ولكن فمه كان لا يكاد يشكل الحروف . كان يقول : « لقد نذرت ».. ثم : « آه ياكابتن ، آه ياكابتن . » وبدّل الدمع صوته . وانتصب أخوه من وراء ظهره ، وضمّه ، وترك الطباخ نفسه بين يديه وهو يبكي ، مهزوماً ، مقلوب الرأس .

كان داراست ، ينظر اليه ، من غير أن يجد كلماته . وتوجه نحو الحشد ، في البعيد ، الذي كان يصرخ من جديد . وفجأة ، انتزع لوحة الفلين مـــن

الأيدي التي كانت تمسكها ومشى نحو الحجر. وأشار للآخرين بأن يرفعوه وحمله من دون مجهود يُذكر. كان مُنحنياً قليلاً تحت ثقل الحجر، منكمش الكتفين، لاهثاً بعض الشيء وهو ينظر عند قدميه، ويستمع الى شهقات الطباخ. ثم اندفع بدوره بخطوة جبارة واجتاز من غير أن يضعف المسافة التي تفصله عن الحشد، في الطرف الآخر من الطريق، وشق بعزم الصفوف الأولى التي كانت قد تفرقت أمامه. ودخل الساحة وسط ضجيج الأجراس والمفجرات، ولكن وسط صفين من المشاهدين الذين كانوا ينظرون اليه بدهشة وقد صمتوا فجأة. كان يتقدم بالخطوة الممتدة نفسها، والجماهير تفتح له الطريق نحو الكنيسة. وبالرغم من الثقل الذي بدأ يسحق رأسه وعنقه، رأى الكنيسة والصندوق الذي بدأ ينتظره في الفناء وكان يتقدم نحوه، وكان قد تجاوز وسط الساحة، عندما مال نحو الشمال بقوة، من غير أن يدري لذلك سبباً، ودار عن طريق الكنيسة ملزماً الحجاج بأن يواجهوه؛ وكان يسمع خلفه خطوات متدافعة. وأمامه كانت تنفتح الأفواه من كل جهة. ولم يكن يفهم ما تصرخه له، بالرغم من انه كان يخيل له أن يعرف الكلمة البرتغالية التي يطلقونها بلا توقف. وفجأة ظهر سقراط أمامه، وهو يدير نظرات مذعورة، ويتكلم بلا تتابع وهو يدله، من خلفه، على طريق الكنيسة «الى الكنيسة، الى الكنيسة» هذا ما كان ينادي به سقراط والجماهير. ومع ذلك، فقد استمر داراست في اندفاعه. وابتعد سقراط، وذراعه مرفوعة الى السماء بشكل هزلي، بينما كانت الجماهير تصمت شيئاً فشيئاً. وعندما دخل داراست الشارع الأول، الذي كان قد سلكه مع الطباخ والذي كان يعرف أن تقود نحو أحياء النهر، لم تكن الساحة بعد سوى ضجيج مختلط خلفه.

وأخذ الحجر يثقل بألم على رأسه، وكان محتاجاً الى قوة ذراعيه الطويلة كلها لكي يخففه. وكانت كتفاه قد بدأتا تنعقدان عندما بلغ الطرقات الأولى، ذات المنحدر المنزلق. وتوقف، وأرهف أذنه. كان وحيداً. ومكّن الحجر

على قاعدته من الفلين ونزل بخطوة حذرة ، ولكنها ما تزال ثابتة ، حتى حي الأكواخ . وحين بلغه ، كانت أنفاسه قد بدأت تضيق ، وأخذت ذراعاه ترتجفان حول الحجر . وحثّ الخطى ، وبلغ أخيراً الساحة الصغيرة التي كان ينتصب منها كوخ الطباخ . فركض نحوه ، وفتح الباب بضربة قدم ، وبحركة واحدة ، رمى الحجر وسط الغرفة ، في النار التي كانت ما تزال محمرّة . وهناك ، انتصب بكل قامته ، الضخمة فجأة ، واستنشق بجرعات يائسة رائحة البؤس والرماد التي كان يعرفها ، واستمع في داخله الى موجة فرح غامض ولاهث لم يكن يستطيع أن يسميه .

وحين وصل سكان الأكواخ ، وجدوا داراست واقفاً ، مستنداً إلى حائط الداخل وعيناه مغمضتان . وفي وسط الغرفة ، مكان الموقد ، كان الحجر مطموراً الى نصفه مغطى بالرماد والتراب ، كانوا واقفين عند العتبة من غير أن يتقدموا ، وكانوا ينظرون الى داراست بصمت كما لو أنهم كانوا يسألونه . ولكنه كان صامتاً ، واذذاك قاد الأخ الطباخ أمام الحجر فارتمى الأخير على الأرض . وجلس ، هو أيضاً ، وهو يشير الى الآخرين . ولحقته المرأة العجوز ، ثم صبية الليل ، ولكن ، لم يكن أحد ينظر الى داراست . كانوا مقرفصين حلقة حول الحجر ، صامتين . وكان صخب النهر وحده يصعد اليهم من خلال الهواء الثقيل . وكان داراست ، واقفاً ينصت ، من غير أن يرى شيئاً . وكان صوت المياه يغمره بسعادة صاخبة . كانت عيناه مغمضتين ، وكان يحيّي بفرح قوته الخاصة ، ويحيّي مرة أخرى ، الحياة التي كانت تبدأ من جديد . وفي اللحظة نفسها ، حدث انفجار بدا انه قريب جداً . وابتعد الأخ قليلاً عن الطباخ والتفت نصف التفاتة الى داراست من من غير أن ينظر اليه ، وهو يشير الى المكان الفارغ : «إجلس معنا» .

الفهرست

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

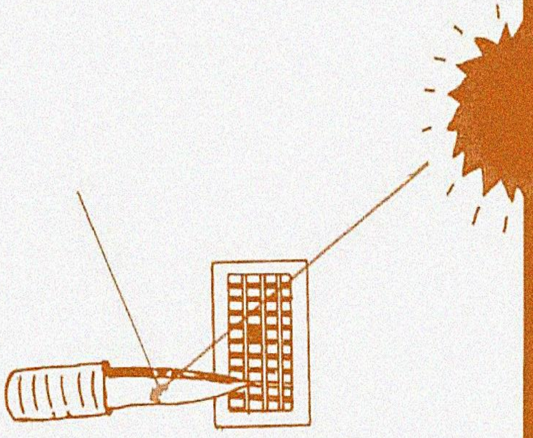
هاتف ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

«.. وحين دق الجرس مرة أخرى وفتح باب الغرفة الصغيرة ، صعد الي صمت القاعة ، ذلك الصمت وذلك الشعور الفريد الذي داخلني حين لاحظت ان الصحفي كان قد اشاح بعينيه .

ولم انظر باتجاه ماري . لم يتح لي الوقت لذلك ، لأن الرئيس قال لي بان رأسي سيقطع في ساحة عامة باسم الشعب الفرنسي » .

من « الغريب »

« الغريب » الرواية الاولى لألبير كامو (١٩١٣ - ١٩٦٠) ، الحائز على جائزة نوبل للآداب ، مؤلف « الطاعون » و« كاليغولا »



91

تصميم الغلاف: نصيح كيسو

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت